غادة السمّان

صفّارة إنذارٍ داخل رأسي



الكاملة ٩

منشورات غادة السمان

المشرف الفنّي : نبيل البقيلي
تصميم الغلاف والخطوط : الفنان حسين ماجد
لوحة الغلاف الأول : « هبوب الريح » للفنان لوسيان ليفي — دورمر . رسمها عام ١٨٩٦.
لوحة الغلاف الأخير : المؤلفة ، لوحة زيتية للفنان جريجوري .
تنفيذ الطبـــع : مطبعة دار الكتب — بيروت — لبنان

غادة السمّان

الأعمال غير الكاملة

٩

صفّارةُ إنذارٍ داخل رأسي

منشورات غادة السمان

منشورات غادة السمان

بيروت — لبنان

ص . ب ١١١٨١٣

تلفون ٣٠٩٤٧٠ — ٣١٤٦٥٩

الطبعة الأولى

نيسان (أبريل) ١٩٨٠

الطبعة الثانية

تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٨٥

الطبعة الثالثة

آب (اغسطس) ١٩٩١

مصارحـــة

١ ــ هذه الكتابات كان من المفترض أن تنشر بعد موتي إذا كان هنالك من يهمه ذلك .

كان من المفترض أن تبقى مجرد قصاصات صحفية عتيقة ومخطوطات لم تنشر في حينها لأسباب مختلفة .

ولكنها احترقت في الحرب اللبنانية الأولى ١٩٧٤ ــ ١٩٧٦ واستهلكت مني ومن أصدقائي كثيراً من الجهد والوقت وقليلاً من المال حتى استطعت استعادة أكثرهـــا .

واليوم ، وأنا أعيش في مدينة تتهددها ثانية (حرب ما) أشعر أن من حقي الحيلولة دون احتراق أوراقي مرة أخرى ... ولذا قررت نشرها ، ليس احساساً مني بأهميتها ــ وهي قد تكون أو لا تكون كذلك ــ ولكن بالدرجة الأولى لأنني لا أريد لها أن تحترق ! .. فهي جزء من ماضيّ الكتابي ، وهي ككل ماض لا يمكن إلغاؤه كما أنه لا يمكن تبنّيه كلية .. وبطبعها ، سيكون لي في بيت كل قارىء عربي من قرائي ملجأ يحمي حروفي من الإبادة .. وهو احساس جميل وحميم يغمرني ويسعدني .

٢ ــ ليس هنالك فنان يرضى عن أعماله القديمة ــ إلا فيما ندر ــ ولست من هذه الندرة . أنا راضية عن محتويات هذه السلسلة ضمن الإطار الزمني الذي كتبت فيه . لحظة كتبتها كنت باخلاص أشعر بأنه ليس بوسعي أفضل مما فعلت .

٣ ــ أعتقد أن العمل الفني كالخطيئة ، لا يمكن محو إثمها بعد ارتكابها ، وكالرصاصة لا يمكن استردادها بعد إطلاقها . ولذا فإنني لم أبدل شيئاً يذكر . فالكلمة حين تُكتب تخرج من يد الفنان مرة ، وحين تُنشر ، تخرج من يده مرتين وإلى الأبد . هذا بالإضافة إلى أنني قد لا أرضى في غدي عما أرضى عنه في يومي ، وهذا معناه ــ لو أعدت باستمرار كتابة كل ما لا أرضى عنه ــ أن أقوم بإصدار طبعة يومية جديدة لكتبي (!) وهو أمر مستحيل خارج عن طاقة البشر .

٤ ــ اللمسات القليلة التي أدخلتها في بعض السطور لم تكن تحوير في جوهرها بقدر ما كانت محاولة لمزيد من الاقتراب من جوهرها الأصلي .

٥ ــ « الأعمال غير الكاملة » هو الاسم الذي قررت إطلاقه على هذه السلسلة بدلاً من عبارة « الأعمال الكاملة » المتعارف عليها .

فهذه الأعمال ليست « كاملة » ما دامت حصيلة عمل بشري ــ مهما كان مبدعاً ــ هذا أولاً .

وهي ليست « كاملة » لأنني لن أنشر كل حرف كتبته بل كل حرف أتصور أنه يستحق حداً أدنى من الحرص ــ أي مختارات من أعمالي ــ (ما عدا أعمالي القصصية التي ضمها الجزء الأول من هذه السلسلة ، والتي نشرتها كلها لأن بداياتي تسهم في إلقاء الضوء على أعمالي الحالية والمستقبلية ، ولأن فعاليتي الأساسية تكمن ــ كما أتصور ــ في كتابة القصة) .

ثم إن هذه السلسلة هي بحق « الأعمال غير الكاملة » لأنني ما زلت أنبض توقاً إلى كتابة الأفضل ، ويخيل إلي أن عبارة « الأعمال الكاملة » تنطبق على الذين اكتملت حياتهم بالموت ، وذلك حظ لم يباركني بعد ! ...

غادة السمان

الساعة ٥,٣٧ فجر ٧ ــ ٩ ــ ٧٨

لا اهداء

لا أهدي هذا الكتاب الى أحد.

لا أجرؤ على اقتراف ذلك!

ليس فيه ما يطرب له الناس من اخبار. فيه الجرح
الذي قد يشيحون بوجوههم عنه متجاهلين. وفيه
صوت صفارة الانذار القادمة من الاعماق، والتي
قد يحاولون حجب صوتها خلف موسيقى الحوار اليومي الصغير.

من منكم يرضى بأن أهديه بعض صفارات الانذار
التي أرقتني على طول عشر سنوات ما بين عامي
١٩٦٤ - ١٩٧٤، التي تغطي رقعة هذا الكتاب
والتي جعلت ليلي الحذر والترقب، ووسادتي
حزمة ديناميت؟

وهل بينكم من يرغب حقاً بمشاركتي عذاب
الوعي بصفاراتنا الجهنمية؟ وهل ... وهل؟..

غادة

١٠/٢/٨٠

٣١ / ٥ / ١٩٧٤

صفارة إنذار داخل رأسي

كلما جلست هذه الأيام لأكتب ، ينطلق داخل رأسي صوت صفارة الانذار... يعلو داخل دماغي ، يمزّق أفكاري كلها ، ويملؤني بحس الخطر ، مثلما تشعر كائنات الطبيعة البريئة في الليل بأن شباك الصيادين تنتشر في الغابة حولها ، وان الشباك قد حيكت بحذق ودهاء ، وأن سكين الصياد لا ترحم ...

* * *

ليست صفارة الانذار هي ذلك الصوت المدوي الذي تطلقه الأبواق في أرجاء المدينة . هنالك أيضاً صفارات إنذار أشد شراسة وأكثر استفزازاً لحس الخطر... إنها تلك الصفارات اللامسموعة ، تلك التي تنطلق في الأعماق خافتة ولا يسمعها أحد خارجك ، لكنها قد تصمّ أذنيك . إنها تنطلق أمام ظواهر صغيرة هي بمثابة مؤشّر على الخطر الداهم ... انها تلك الحاسة التي تطلق صفارة إنذار داخلية وتدفع بالحصان البري وغيره من كائنات الطبيعة إلى الوعي بالزلزال قبل وقوعه . وهي حاسة يملكها الانسان إذا سمح لها بأن (تكون) ، ويستطيع سماع صوتها إذا أنصت .

* * *

عملاق مربوط إلى طاولة التخدير

هكذا أراهم يخططون للشعب العربي اليوم ... وأرى أعداءه وبعض المتواطئين على أرضه وتاريخه وذاكرته يلتفون حوله في ثياب الاطباء باحثين عن أسرع السبل لتخديره ... وبين الحين والحين يطير اليهم « خبراء أجانب » أخصائيون في قضايا تخدير الشعوب ، حاملين معهم وصفات جديدة لغسل دماغنا المثقل بالقهر والغضب والثورة ...

احساس عام يثقل على الصدور يوماً بعد يوم ... ليس مبعثه خطوة واحدة معينة ،

وانما هو حصيلة تحركات كثيرة ... وتيارات خفية ... كأن صيادين بارعين يتقدمون نحونا ويسوروننا بشباكهم ، يتحركون في الظلام بحذق وبخطى مدروسة ... يتحركون في كل اتجاه وعلى كل صعيد، وفي نفوسنا يتحول الغضب اليومي المحدّد إلى انطباع شامل بان الجو حولنا مثقل بالتواطؤ ، مكهرَب بخديعة ذكية مرسومة بدقة ، حتّى ليكاد الفرد العربي يلتقطها بغريزته ، ويعي الخطر في الجو عبر وجدانه قبل دماغه ...

فالعدوان على الشعب العربي ليس فقط عدواناً عسكرياً مصدره «اسرائيل» ... العدوان الأخطر هو عدوان المتواطئين ، وبينهم من هو غافل عن حقيقة ما يفعل وعن استغلال الخطة الامبريالية الصهيونية له بطرق غير مباشرة ، وتوظيفه (حتّى دون أن يقبض الثمن) لضرب القضية الوطنية ، أي لضرب نفسه وأساسات بيته وطعام أولاده ...

لم يكن العدو قط أشد شراسة مما هو اليوم ، والقضية الفلسطينية تمر بأخطر جولات محاولة تصفيتها . وكلما جلست لأكتب ، ينطلق داخل رأسي صوت صفارة الانذار ، ويملؤني بحس الخطر .

أجل ! كلما جلست لأكتب هذه الايام ، ينطلق داخل رأسي صوت صفارة الخطر والانذار ... وأحس أن أصابعي مكهربة وحلقي جاف بالقهر والترقّب وصدري مثقل بتشاؤم غامض وكلّي مسكونة بتوتر كائن بريء في الغاب يترصد به صيادون حاذقون يحركون شباكهم بحذق ...

بأي ثمن ، بأية وسيلة ، بعنف وغضب ولو بجنون ، علينا أن نقاوم كل محاولة لـ « تصفيتنا » أياً اتخذت هذه التصفية من أسماء مهذبة ...

علينا الا نخجل من اتباع الاساليب كلها للدفاع عن حياتنا وذاكرتنا وتاريخنا وأرضنا ...

٩ / ٢ / ١٩٧٣

نصب للحشاش المجهول !

لا ينقضي يوم إلا ونقرأ عن فنانين ومثقّفين عرب قُدّموا إلى المحاكمة بتهمة تعاطي الحشيش أو أية مخدرات اخرى .

وبيروت تتحدث اليوم عن الاستاذ الجامعي الذي ألقي القبض عليه مؤخراً وفئة من الطلاب والمثقفين لانهم كانوا يتعاطون مخدّر الحشيش .

وسوف يُقدمون إلى المحاكمة .

وستتخذ السلطات الجامعية اجراءات لمعاقبتهم ، وستكتب الصحف عنهم في صفحات الجرائم ، وستثرثر (التانتات) وعجائز المجتمع ويستفظعن الخطب الجلل ! ! .

غريب أمرنا !

لماذا يقدمونهم إلى المحاكمة ؟

ولماذا يعاقبهم القانون ؟

أليس من الاصح محاكمة كل فرد عربي لا يتعاطى المخدرات ، وذلك بتهمة انعدام الاحساس ؟ ! ... بتهمة انعدام الحس الوطني ، وانعدام الشعور بالمسؤولية ، وبتهمة اللامبالاة والبلادة القومية ، وعلى الاقل بتهمة الاسترخاء ! .

فكل ما يدور حولنا على الصعيد العربي العام وعلى الصعيد اللبناني المحلي يدفع بأي عاقل أو حسّاس دفعاً للهرب إلى رحمة التخدير... أي تخدير ... ما دامت آلاف القيود السرية والعلنية تحرمك من حرية الحركة من اجل التبديل .

أن تفتح نافذتك في الصباح لترى رجال الشرطة يطاردون الطلاب وينهالون عليهم بالهراوات ويشدّونهم من شعورهم كما تُشد البغال ، ويخيل اليك ان الشاب الذي كان وجهه ينزف هو ابنك ولكنك لم تتأكد لان ملامحه كانت مغطاة بالدم .

أن تعي ولو لثوانٍ جدية التهديد الصهيوني في عالمنا العربي ...

أن ترى « الكرنفال » الهستيري الذي يرقص في صخبه المسؤولون بينما الوطن

يرتجف لزلزال الحرب ...

أن تستمع إلى مزيد من الحروب الخطابية في خطابات المسؤولين الراقصين في في الكرنفال بينما مستنقع الهزيمة ذو الرمال المتحركة يبتلع الجميع ببطء ولكن باستمرار...

أن يختص مسؤولونا بصيد الحيوانات خارج البلاد ، وبصيد البشر من العمال والمزارعين داخل البلاد ...

أن ترى صورة المزارع الذي اصطاده رجال الامن وهو يسقط صريعاً، وأن ترى صور أولاده اليتامى وأرملته إلى جانب صور أولاد المسؤول – الذي أمر بإطلاق النار– وهم يتزلجون على الثلج ويمارسون « السكي » في (سويسرا الشرق الاوسط) التي تحترق ...

أن ترى صور سيدات المجتمع في الحفلات يلتهمن أكداس الطعام والرجال ، ويضحكن للكاميرا ، ويشكين التخمــة ويتحدثن للصحف عن الريجيم و (الاخلاص الزوجي) ، وترى صورهن وانت تبحث في الاعلانات المبوبة عن عمل لك ، ثم تجد نفسك مضطراً للهجرة عن الوطن من اجل اللقمة ...

ان تكون راكباً سيارتك الحقيرة وأولادك وفجأة تنطلق صفارة انذار ويهجم عليك رجال السير يدفعونك عن الطريق مثل كلب شرد في موكب يوليوس قيصر ، وتكتشف أن السبب ليس مرور سيارة اسعاف محملة بجريح مشرف على الخطر وانما مرور سيارة سوداء مسدلة الستائر تحمل حاكماً ما من حكامنا الذين تزداد الهوة بيننا وبينهم يوماً بعد يوم .

أن تحاول الوصول إلى حقك عن طريق القضاء فتضيع بين الشكليات والروتين وتخسر من المال في الحصول على حكم لصالحك أكثر من المال الذي رفعت الدعوى أصلاً لتستردّه ...

أن ينكب بك الدهر فتحاول اخراج جواز السفر ، أو ميكانيك لسيارتك ، أو يصلك طرد بريدي ، أو تمرض فتدخل أحــد المستشفيات أي ان تضطر للاحتكاك بأي من المؤسسات الرسمية أو غير الرسمية فتواجه في كل لحظة مدى الاحتقار لانسانية الانسان في بلادنا ... ان لا تملك ثمن الدواء لطفلك المريض فيموت بين ذراعيك في ردهة المستشفى بينما يسافر المرفّهون للاستشفاء ...

أن يُقبض عليك بتهمة ما خطأً ، ويطلق سراحك بعد أن تعذب وتُهان وتضرب ، وتخرج من (النظارة) بيد محطمة بينما تمسك في اليد الاخرى بجريدة فيها مقال لمسؤول

سعيد يتغنّى بحريات المواطن اللبناني ...

أن يأتيك محصّل الضرائب ويناكدك ويتفنن في انتزاع كل قرش من ربحك وأن تدفع صاغراً وأنت تعرف ان هذا المال سيذهب هدراً إلى جيب فلان أو علان المسافر إلى أوربا لتوضيب صفقة ما يبيعك فيها .

أن ترتكب جريمة التفكير بهذه الاوضاع كلها ، وأن تمعن اجراماً فتفكر في كيفية تبديل الاوضاع عن سابق تصور وتصميم ...

أن تنتمي إلى حزب من اجل التبديل يعني انك « مخرِّب » ... ويعني أيضاً ملاحقتك وربما (اصطيادك) في احدى المظاهرات ...

ماذا تبقّى لأي انسان بالغ عاقل راشد وممنوع من محاولة تبديل أي شيء مما حوله لأن حكّامه (دائماً على حق)، ماذا أمامه اذا كان واعياً وحساساً وبالتالي معذباً سوى أن يهرب إلى عالم الجنون ... أو إلى التخدير ؟..

في بلد كبلدنا ، يجب اعتبار عدم التحشيش خيانة عظمى لأن الصحو سيقود الجميع إلى الثورة ... يجب منح الحشاشين أوسمة لأن ضميرهم الانساني والوطني حي بدليل هربهم إلى التحشيش ... يجب اصدار قانون يعتبر كل من لا يتناول المخدر خائناً ... ويجب اعتبار الحشاشين أبطالنا القوميين ، ويجب اقامة « نصب للحشاش المجهول » ...

ومنح الاوسمة والنياشين للحشاشين تقديراً لحسهم الوطني الحي .

أليس الحشاش العربي المعاصر هو « المواطن الفاضل » في « الجمهورية غير الفاضلة » الذي تمنعه الدولة من ممارسة واجباته وحقوقه وتفرض عليه « التحشيش الاجباري » حين ترغمه على قبول منطق القطيع المستسلم وتجبره على عدم الاحتجاج أو الثورة أو التظاهر ؟

وهل يمكن لمواطن ألا يتظاهر اليوم أو يثور أو يحتجّ الا اذا كان مخدراً أو حشاشاً ؟

ويا حشّاشي العالم اتحدوا ...

١٠ / ٩ / ١٩٧٣

« سويسرا الشرق » أم « فلسطين الثانية » ؟

بيروت اليوم ، يا اصدقائي ، ترتدي ملابس الحداد ... تتبدى معتمة حزينة . دم أسود يجري في شرايينها ، فشوارعها مطفأة الانوار ...

لماذا ؟

هنالك أزمة كهرباء سوف تنفجر مع الخريف حين يعود الناس إليها من الجبال . لاسباب فنية تكنولوجية ... إلى آخر هذه الاصطلاحات العلمية التي لا نستعملها في بلادي إلا قناعاً لحقيقة واحدة هي « الإهمال » !

المهم ان السلطات « الساهرة » على « الاشعاع » اللبناني تبدو في غاية الرضى عن ذكائها في مواجهة الأزمة : ستطفأ انوار المخازن كلها بعد السادسة مساء . ستطفأ أنوار الشوارع ما عدا شوارع بيوت النافذين ، آلات المعامل ستتحرك في ساعات محدودة . الرجاء من الشعب الاقتصاد في صرف الطاقة الكهربائية ... لا تبريد مركزياً للموظفين الصغار المساكين الذين يذوبون حراً ! ..

كل ذلك جميل . ولكن المسؤولين لم يتطرقوا إلى موضوع اساسي في البلدان المتحضرة ، أو التي تمتلك سلطاتها حساً أدنى بالمسؤولية : لماذا يحدث ذلك ؟ ومن هو أو هم المسؤولون عن فخ التعتيم الذي سيلف بيروت ؟ لماذا لا يُقدمون إلى المحاكمة العلنية ؟ الجميع يتحدثون عن هذه الفضيحة بلهجة الأمر الواقع كما لو كانت قضاءً وقدراً ، مثل الزلزال والصاعقة والحب ! .. والمفروض ان الطاقة الكهربائية علم لا نزوة ، ثم انه حتى للخسوف والكسوف حسابات وتوقعات إلا كسوف بيروت وكهرباءها ... (ولكن ذلك كله خارج الموضوع الذي أود أن أكتبه) !! .....

أقول : تجولت الليلة في بيروت ، وكان كل ما فيها مظلم كجرح عميق ، إلا ميدان السباق . فوجئت بالأنوار ملتهبة كما لو كنا في رابعة النهار ، لأجل من ؟ سباق أحصنة ؟ حفل ترعاه الطبقة المخملية النافذة ؟ ! تابعت السير إلى الكورنيش ، حيث يخرج الشعب الفقير بأطفاله للنزهة على أرصفته مجاناً هرباً من همومه وبيته المغزول

بخيوط عناكب الخيبات والأحزان ، محاولاً رغم ظروفه الموضوعية القاسية كلها ، الدخول في « سباق الحضارة » ، رغم انه لا يلقى العناية التي تلقاها (أحصنة السباق) !

بحرقة وجدتني أتساءل : لماذا لا تطفأ « بروجكتورات » حلبة السباق لتضاء بدلاً منها مصابيح الكورنيش للشعب المسحوق الذي يدرس بعض ابنائه على نورها أحياناً ؟

لماذا لا تقام سهرات مجتمع ثريات الكريستال على أضواء الشموع ، كما في العصور الوسطى ، ما دامت هذه الطبقة بممارساتها وموقعها وعقليتها تنتمي أصلاً إلى العصور الوسطى ؟ ! لماذا لا تطفأ أضواء كازينو القمار في جونيه لتضاء مصابيح بيوت البسطاء ، ملح الأرض ، ابناء الشعب الذين يعتاش أهلهم من اعمال اضافية قد تتوقف بسبب تقنين الطاقة في المعامل ؟ لماذا يتحمل نتائج الخسارة أفراد الشعب الفقير بدلاً من طبقة المستثمرين ، التي عقليتها هي أصلاً سبب الأزمة وكل أزمة ؟ !

(ولكن ذلك كله خارج الموضوع الذي أود أن اكتبه .) ...

ما أود قوله هو ، ببساطة ، انني اصفق لتعتيم بيروت ! .. أرحب بخلعها لقناعها المضيء الملون لتتبدى على حقيقتها مدينة مهددة بالخطر ... وقد يكون في تعتيمها – ولو بغير الازرق – تذكير لأهل هذه الرقعة من الوطن العربي بأننا في حاله حرب . فتعتيم المدن يرادف في الأذهان كلمة حرب . وقد ينعش منظر الظلام الموجع ذاكرة الغارقين في سحب الطمأنينة ، الواهمين ان لبنان هو «سويسرا الشرق» ، لا المرشَّح الأول ليكون « فلسطين الثانية » ...

فلتطفأ أنوار بيروت !

فلتخلع هذه المدينة أقنعتها ، ولتستسلم شوارع الحزن فيها لرعب الحقيقة ! وليعترف الجميع بأن شارع الحمراء ليس « الكارتييه لاتان » أي الحي اللاتيني الباريسي واننا لسنا في سويسرا ، والحياد هنا غير ممكن ، فنحن امتداد لتاريخ هذه الارض بصحرائها ورمالها وهزائمها وأمجادها ومصيرها ...

وإذا أصرّ البعض في سهراتهم على الحديث باللغة الفرنسية أو الكتابة بالعامية اللبنانية ، فان ذلك لن ينجيّهم من قدر الأمة العربية الذي هو قدرنا جميعاً . ولعل شوارع بيروت المعتمة تذكرهم بالمصير المعتم الذي ينتظرنا جميعاً اذا لم نمسح الصدأ عن بوصلتنا وأسلحتنا ، وننفض التراب عن جذورنا ، ونواجه واقعنا كما هو .

من يدري ؟ ! ربما أضاءت شوارع بيروت المعتمة مصابيح ذاكرة الذين ينسون باستمرار اننا في حالة حرب وحالة خطر .

١٩٧٣/٩/٣

وجوههم ستطالها أظافر الشعب وأنيابه !

فلنحرق أقنعتنا !

فلنمزق عن شفاهنا ابتسامة المجاملة ، ولنخلع عن أهدابنا نظرة التردد الخائف شبه المهذب . ولنقل ما نؤمن به ، ولو استحالت الحنجرة محرقة ، والحرف سكّيناً ...

فلنحرق أقنعتنا !

فوطني المثقل بخمرة المجاملات الخطابية ، المعذّب بمحاولات تخديره ، هو في حاجة إلى الكلمة بلا مواربة ، مهما قست !

فلنحرق أقنعتنا !

ولنقف في ريح التاريخ غابة من الأشجار العارية ، بلا زينة ولا أضواء عيد ... ولنقل ما نؤمن به ... لنتحدث عن شؤوننا الكبيرة والصغيرة ببراءة عري الطفل لحظة ولادته ، وصدق صرخته الاولى .

* * *

فلنحرق أقنعتنا !

ولنتحدث عن شؤوننا الكبيرة والصغيرة ... شؤون صغيرة ، لكنها احياناً تلخّص مأساتنا بأكلها .

لنقل لحكامنا ، مثلاً ، اننا تعبنا في لبنان من مشاهدة صورهم وهم يتأبطون الصحون ويقفون أمام موائد الحفلات كل ليلة كل ليلة بين أكداس اللحوم على الموائد وعلى اجساد نساء « مجتمع الحفلات » ، كما لو كانوا في بلاط لويس الرابع عشر !

تعبنا من مشاهدة صور مسؤولينا يعيشون حياة « الدولشي فيتا » ، ينتقلون من حفل إلى آخر ، من وليمة إلى اخرى ، يرقصون ، يسبحون ، ينكتون ، يهرجون ، يصطادون ، يغازلون (بفتح الزين وكسرها ايضاً) ، ينظمون « القرّاديات » ،

ويتساجلون بالشعر ، يتزلجون في مياه « السان جورج » أو فوق ثلوج الارز ، ويعطون النصائح الطبيـــة ، ويعرضون آخر الازياء الرجاليـــة ، ويثرثرون عن عزوبيتهم وقصص حبهم أو حكايا زواجهم وطلاقهم وعن رأيهم في بريجيت باردو والزواج المدني وأحذية « بالي » والتهاب اللوزتين والسياحة في الباهاماس والصيد في ايران ، ويأكلون ويأكلون (الجبن وغير الجبن) ... ويتقنون القيام بكل شيء إلا بواجباتهم التي من المفروض ان الشعب جاء بهم أصلاً للقيام بها .

* * *

تعبنا تعبنا ، وتعبنا حتى أقنعتنا .

تعبنا من صورهم قرب قوالب الحلوى (الجاتوه) التي سممت في جنوب لبنان ١٤ طفلاً فقيراً ، لانهم التهموا حلوى وجدوها مرمية في الزقاق ، ومات اثنان منهم ربما في اللحظة نفسها التي التمع فيها « فلاش » التصوير ليلتقط صورة كروش المسؤولين ونجوم الحفلات امام قالب جاتوه هائل الضخامة .

ومسؤولونا جميعاً يصرّون على انهم من نسل دوريان غراي ، لا تعرف الشيخوخة اليهم سبيلاً ... كلهم مثل « فاوست » الأسطورة ، شباب دائم ، ولذا فهم لن يسمحوا لنا قط بالتساؤل : اذا كنتم تسهرون ليلاً وتصطادون نهاراً و « تحرتقون » مساء ، فمتى تعملون ؟ ليس بين مسؤولينا من هو تحت الستين (فلنجاملهم ولنقل تحت الخمسين) ، إذن لا مفر لأي طبيب مبتدىء من ان يقرر انهم في حاجة إلى ساعات من الراحة بعد كل سهرة وسكرة !

متى يعملون ؟

متى يدرسون القضايا التي يغرق مركبنا في لجّتها ؟ هل يسمح لهم وقتهم بالاطلاع على التطور التكنولوجي المرعب والسريع لعالمنا المعاصر ؟

* * *

أنا أؤمن بضرورة الراحة من اجل استمرار العمل .

وأنا ضد التزمّت المفتعل ، وقد سبق لي ان حاربت ضد الصورة التقليدية للثوري ، التي تجرّده من انسانيته حين تصوّره إنساناً لا يضحك ولا يحب ولا يرتاد الملاهي ولا يسهر ولا يخفق قلبه لأنثى ... وأؤمن بأن من لا يعرف كيف يضحك ويحب لا يعرف كيف يعمل أو يحارب ... وأؤمن بأهمية الاجازة الاسبوعية وضرورتها لكل انسان ، ولكنني لا استطيع ان أفهم كيف يصير الاسبوع كله إجازة لدى مسؤولينا ، ما عدا

« ويك إند » عمل ! المفروض ان يعمل الانسان خمسة أيام — كحد أدنى — ويستريح في اليوم السادس والسابع . ولكن ماذا يحدث حين يستريح الانسان كل أيام الاسبوع ؟ وماذا يحدث حين يكون هذا الانسان رجلاً مسؤولاً رسمياً في دولة هي في حالة حرب — شاءت أم أبت — وقوات «اسرائيل» تحتل بعضاً من أراضيها الجنوبية احتلالاً رمزياً وعملياً . ويحتل التخلّف والاهمال بقية اراضيها ؟ ! .

مسؤولونا (السياح) في وطنهم ، الغرباء عن عالمنا ومآسينا نحن ابناء الشعب ، لا يعملون شيئاً . حتى حينما « يعملون » فالدور الوحيد الذي يمارسونه باستمرار هو الدور العشائري لعرّاب المآتم والافراح والتكريم . لذا فالمشروع الوحيد الذي يمكن أن يبحثوه — عن خبرة — هو أمر الحفلات ... لذا فجميع مسؤولينا مؤهلون للتدريس في « المدرسة الفندقية » ، ولتقديم الاستشارات في لوازم الافراح والليالي الملاح ، وهذه خبرتهم الوحيدة ، ومع ذلك يدهشني انه ليس بينهم من قرّر التدريس في « المدرسة الفندقية » ليفيد شعبه من خبرته اليتيمة !

* * *

فلنحرق أقنعتنا !

ولنقلها عبر حناجرنا المزروعة بأشواك الخيبات وصبير الصبر ...

مسؤولونا من الهيبيز ! .. أجل من الهيبيين النادرين في العالم ، الذين تجاوزوا سن الشباب ولكنهم لم يبلغوا سن الرشد .

مسؤولونا من الهيبيز ، لأنهم من بعض مجتمع الحفلات ، من بعض مجتمع طبقة الـ ٤ في المئة الأثرياء عبر سرقاتهم « القانونية » و « الدستورية » ، العائشين على هامش واقعنا التاريخي والموضوعي ... مسؤولونا من الهيبيز ، لا لأن بعضهم يتعاطى المخدرات وتجارتها وزراعتها ولكن لأن التعريف الاول للهيبي هو انه الفرد الذي انفصل عن واقع مجتمعه وهرب منه ومن حقائقه إلى عالم يعيش فيه كما يشاء ، دونما حس بالمسؤولية أو بجذوره في أرضه وشعبه .

الا ينطبق هذا الوصف على مسؤولينا جميعاً — إلا فيما ندر — ؟..

* * *

اقول لكم : أشتهي أن أسمع ولو مرة بأن أحد مسؤولينا مرض بسبب أزمة ما (غير التخمة) ... أشتهي أن يصاب أحد مسؤولينا بانهيار عصبي مثلاً إثر كارثة من كوارثنا الوطنية ، (للتذكير ، اليكم هذه الامثلة : فضيحة هبــوط اسرائيل في

مطارنا — مجزرة فردان — مأساة الجنوب المستمرة — فضيحة الكهرباء — الماء — السرقات رغم النوم والابواب كلها غير مفتوحة — المستشفيات الموصدة في وجه الفقراء ، أي ٩٦ بالمئة من الشعب — فضائح التعليم — الاحتكار — الغلاء — الغلاء — الغلاء) ....

إن الصحة الجيدة لمسؤولينا ليست دليل عافية وطنية ! صرنا نحلم بمسؤول نزيه ، يصاب بالجنون أو ينتحر ، مثلاً ، لنقيم له تمثالاً وطنياً ، فهو وإن عجز عن تقديم خدمة فعّالة لهذا الوطن ، أو عملاً ايجابياً واحداً ، فانه على الاقل استوعب ، ولو لثانية ، حقيقة مأزق مركب الوطن الذي حين يغرق سيغرق بالجميع ، ولن تكون هنالك قوارب نجاة لمجتمع الحفلات وأهل الـ ٤ في المئة بمن فيهم مسؤولونا .

* * *

مسؤولونا يجهلون كل شيء عنا ، يسمعون بأزمة الخبز ولكنهم لا يحسّون بها ولا يعونها . والحلوى المكدسة على موائدهم تزداد قوالبها ارتفاعاً بالأمتار كلما ارتفعت الاسعار . انهم الداء فكيف ننتظر منهم دواء ؟! ثم انهم وصحبهم نجوم الحفلات يحافظون على قواعد « الريجيم » ويأكلون الجاتوه لا الخبز ...

ومصير « أكلة الجاتوه » معروف يذكّرك فوراً بمفردات مثل : مقصلة ، ثورة... إلى آخره .

وريثما يحدث ذلك ،

اقترح ما يلي : إنشاء وزارة جديدة هي وزارة الحفلات ، وإلحاق وحدة طبية بالوزير المختص لمعالجته من التخمة والسكري وارتفاع ضغط الدم ، ويمكن للوزير تطبيق قواعد اللذة الرومانية والطقوس الابيقورية بحيث يتنقل الوزير من حفل إلى حفل يأكل ثم يتقيأ كي يأكل من جديد على طريقة الأباطرة الرومان ... وله في نيرون مثال ونبراس .

وستكون مهمة « وزير الحفلات » حضور الولائم كلها ورحلات الترفيه بدلا من بقية الوزراء بحيث يتوفر لهم بعض الوقت للعمل اذا كانوا ينوون حقاً ان يعملوا .

و « وزارة الحفلات » التي أقترح استحداثها فوراً في لبنان ستكون أكثر الوزارات فعاليةً وأشدها انشغالاً ... ثم انها خدمة « وطنية » هائلة : سيكون لدينا « وزير حفلات » بدلا من « وزارة حفلات » و « هيبي » واحد في الحكم بدلاً من « حكم الهيبيين » !

وسلام على جمهورية الحلم التي حكامها هيبيون تجاوزوا الشباب ولم يبلغوا سن الرشد ! اقلبوا معي هذه الصفحات وسواهـــا ، وتفرّجوا معي على صور وجوههم المستّريحة وكروشهم المترهلة ، حيث لا مفر من ان تطالها ذات يوم اظافر الشعب وانيابه !

١٨ / ٥ / ١٩٧٣

كرنفال بيروت : تجدد أم تفاهة ؟ حيوية أم لامبالاة ؟

كرنفال في شارع الحمراء في ساعات السماح بالتجول ... الأرصفة مليئة بالفتيات اللواتي نسين (أو تناسين) ارتداء معظم ثيابهن ، والعابرون يستعرضون أجسادهن التي احرقتها أشعة الشمس . يبدو انهن انتهزن فرصة القتال لقضاء عطلة ممتعة على شاطىء البحر ... والشبان يفورون في المقاهي ، والازدحام على أشده في المقهى الذي تحطم زجاجه قبلها بيوم إثر قنبلة ...

موسيقى الضحك ، الحركة ، الاجساد المبللة بعطر الشمس وعرق الشهية للحياة .. الثرثرة ... أتأمل ذلك كله بذهول حقيقي .

اتساءل : هل النسيان ممكن ؟

ففي البرّادات ما تزال جثث القتلى من الطرفين لمّا تدفن بعد ... وما تزال الوجوه المشوّهة والأجساد المقطعة الأوصال مجهولة الهوية لما يتعرف عليها صحبها ، (وربما كانوا الآن يتسكّعون في شارع الحمراء) .. ورائحة البارود لما تنحسر عن الابنية بعد ...

رغم كل شيء ، عاد الكرنفال اليومي البيروتي كأن شيئاً لم يكن ..

ما تفسير هذه المظاهر العجيبة ؟ ... ترانا نرى (الحيوية) أم (اللامبالاة) ؟ مظاهر (للمرونة) أم (العدمية) ؟ هل هي القدرة على (التجدد) أم على (التفاهة) ؟

هل هي ظاهرة بشرية فريدة من ظواهر المقدرة على ابتداع (الحياة) أم هي مجرد ظاهرة (هرب) إلى أحضان التخدير اليومي ؟

لا أدري ماذا أسمي هذه الظاهرة. ماذا نسمي رجلاً يرقص (الروك اندرول) بحيوية وفي عنقه خنجر مغمد ؟

* * *

كاهن اسرائيلي تقرر فصله من معبد تل أبيب الكبير لامتناعه عن انشاد صلاة

«مجدوا الرب هلل» اثناء الصلاة التي اقيمت بمناسبة قيام «اسرائيل» . قال المنشد المفصول (ان المناسبة لم تكن تسمح بترديد هذه الصلاة) ...

لقد اخترع الانسان وسائل الكترونية كثيرة للكشف عن الكذب . هنالك آلات لكشف الكذب باحصاء دقات قلب الكاذب أو ضغطه أو كهارب دماغية خاصة ترتفع ذبذباتها اثناء الكذب ..

ولكن أحداً لم يخترع أي كومبيوتر يستطيع كشف كذب الانسان على داته ...

فالكاهن الاسرائيلي عاش لحظة المواجهة مع الذات . فقط حين طُلب اليه أن يتلو صلاة تمجد إنشاء دولة كل ما فيها هو ضد كل القيم السامية التي هي من بعض صفات الإله ...

وعجز عن الانشاد ... ونبت الشوك في حنجرته ..

يبدو ان (الايمان) يظل وحده ذلك الاختراع العتيق المذهل الذي يكشف للانسان مدى كذبه على نفسه عبر عريه أمام خالقه .

ولكننا لا نستطيع الاعتماد على (ايمان) الأسرائيليين لزوال عدوان «اسرائيل» ! ... ولا على (إيماننا) بحقنا ..

يبدو انه لا مفر من حلول اخرى ! ...

٤ / ٥ / ١٩٧٣

لا استراحة لمحارب في أرضنا !

حين وقع الانفجار كنت أكتب « استراحة المحـــارب »(*) ، رميت بقلمي ، وركضت أبحث عن طفلي الصغير في الحديقة ، وشاهدت القطة التي ولدت منذ أيام ترتمي فوق صغارها وتغطيهم بجسدها وترتجف .

انفجار ثان . وثالث . ورابع ...

لا نار . لا دخان . لا شيء سوى الصوت المدوي كالرعد . ولكن الشمس كانت تضيء ولم يكن الرعد هو الذي يصرخ ...

صباح اليوم التالي قرأت في احدى الصحف عن الانفجارات : كانت طائرات اسرائيلية قد اخترقت جدار الصوت ... وسببت هذه الاصوات المدوّية كالرعد .

أتساءل : الطائرات الاسرائيلية التي اخترقت جدار الصوت ، كيف لم تخترق جدار خدرنا الوطني ، جدار لامبالاتنا بما يدور حولنا من أمور اساسية خطيرة ، وانشغالنا عنها بصغائر الامور ؟ ..

صحيح ان هذه الطائرات الاسرائيلية لم تسبب هذه المرة أي أذى إلا الصوت المزعج ، ولكن أليس هذا الصوت وحده كافياً ليكون صفارة انذار تدوي في أعماقنا المبطّنة بألف جدار نسيان لحقيقة وضعنا ؟ ... صفارة إنذار تدوي في حياتنا جميعاً . وفي ايامنا المبعثرة التي لا يجمعها هدف واضح هو على الاقل الدفاع عن وجودنا وأطفالنا – على الاقل كالقطة في الحديقة التي هبّت غريزياً تحمي صغارها ؟...

فإلى جانب هذا الخبر : قرأت خبراً عن رصاص طائش قتل طفلة في لحظة الانفجارات الاسرائيلية إياها نفسها ... دار شجار بين اثنين لأمر تافه ، وتبادلا اطلاق الرصاص وقُتلت – كالعادة – عابرة سبيل .. أتساءل : الا تكفي الانفجارات ليكفّا عن شجارهما التافه وليلتفتا إلى العدو الحقيقي ، والهدف الوحيـــد الذي يستحـــق

(*) استراحة المحارب : عنوان صفحة في مجلة كنت من كتّابها يومئذ .

رصاصنا ؟ . اتساءل : حين تغرق الباخرة بكل من عليها ، هل يمكن لاثنين أن يتشاجرا اثناء غرقها بسبب دَيْن لأحدهما على الآخر ، أو لأي سبب آخر تافه ، ما دامت الباخرة تغرق عادة بكل من عليها ؟ ..

ورغم باخرة الوطن التي تغطس شيئاً فشيئاً في بحار النسيان كما غطست باخرة الهنود الحمر في صحاريهم إلى الابد ، فنحن ما نزال ركّاب الباخرة اللاهين عن الخطر الأكبر باهتمامات تافهة ، نتحدث عن هندسة الحدائق وصيد الفراشات وتحنيطها . ومدارس عرض الازياء وفتيات الاعلان ولعب « الفليبرز » وعجائز الجمعيات الخيرية وثرثرات الصبحيات وثرثاري الاحتراف السياسي ومعدّات التزلج على الماء وفوائد الصيد ومداواة الصلع والانتيكا والباربكيو والجاليه والسيفر و .. و ..

أم ترانا نهرب إلى ذلك كله كي نتلهى ونتخدر وننسى الباخرة التي تغرق بنا والأرض التي تهرب من تحت أقدامنا مثل الرمال المتحركة ؟ ...

اليأس ؟ ولمَ اليأس؟ لماذا نتأرجح أبداً بين عقدة العظمة وعقدة اليأس ؟ بين الصراخ بتعال (نحن مئة وخمسون مليوناً وهم ثلاثة ملايين ، ما همنا ؟) وبين النواح بأسى : الدول الكبرى تساندهم. لا نملك شيئاً أمام طاقاتهم.. لا يصيبنا إلا ما كتب الله لنا...

لماذا لا نفكر بالاختراع الانساني الأقدم من اختراع النار المسمى بـ : العمل؟ ...

في الصحيفة نفسها رأيت في صفحة الجرائم صورة فتاة جميلة وإعلان عن اختفائها ورجاء البحث عنها .. (فتاة ضائعة ترتدي ... خرجت ولم تعد،من شاهدها أو يعرف شيئاً عنها الرجاء الاتصال بالرقم ...) .

ذات يوم سنقرأ الاعلان التالي : « وطن ضائع . خرج في ٥ حزيران « يونيو » ١٩٦٧ ولم يعد . الاوصاف : بدأنا ننساها .. الرجاء ممن يعرف شيئاً عنه عدم الاتصال بأحد لاننا قررنا نسيان القضية » ..

حين وقع الانفجار كنت أكتب « استراحة المحارب » . آه لا «استراحة لمحارب» في أرضنا .

• • •

رجل قتل زوجته .

ساقوه إلى السجن ، واعترف بجريمته ولما سأله القاضي : لماذا قتلتها ؟ أجاب ببساطة : لقد سئمت عيشها .

والجدير بالذكر ان الرجل القاتل في التسعين من عمره وزوجته المغدورة في

السابعة والثمانين ! ...

أعجبت بهذا الرجل القاتل . صحيح ان الجريمة تسرّبت إلى نفسه ، ولكن من الواضح انه وهو في التسعين ما يزال قادراً على الغضب والرفض إلى حد القتل ... وأن اليأس لم يتسرب إلى نفسه ، وانه ما يزال يحس بان هنالك ما يستحق ان يقتل من اجله !

ما أكثر الذين يموتون وهم في الثلاثين من عمرهم ..

وما اتعس الشعوب التي مات فيها الأمل والرغبة في التغيير والقدرة على التبديل والشهية إلى الحياة حتى القتل ! ..

١٧ / ٩ / ١٩٧٣

لا لإبرة المورفين !

إليكم هذا النموذج اللبناني عن الوجع العربي .

في لبنان عدد كبير من سائقي سيارات (السرفيس) الذين يتقاضون تعريفة قدرها ٢٥ قرشاً لبنانياً عن نقل كل راكب . في الاسابيع الاخيرة بادر بعضهم إلى رفع التعريفة إلى ٥٠ قرشاً .

وبادرت السلطات « الساهرة » على حماية المواطنين من الغلاء إلى الضرب بشدة ، وسيّرت دوريات نظّمت محاضر بعشرة مخالفين ، وهي تعرّض مرتكبيها لغرامات تتراوح بين ٥٠٠ و ٥٠٠٠ ليرة وللسجن من ١٥ يوماً إلى شهر . وتتضاعف العقوبة عند التكرار ، ومن المفروض أن نصفق ونهتف عاش العدل ! ..

ولكن لا ...

أعتقد أنه قرار خاطىء . أعتقد أن العكس كان صحيحاً ، أي أن المنطق السليم يقتضي معاقبة السائق الذي لا يرفع التعريفة لا الذي رفعها ... أقول ذلك بملء صوتي لا التصاقاً مني بقاعدة « خالف تعرف » ولكن للاسباب التالية : من المعروف ان موجة من وباء الغلاء انتشرت في لبنان كما في العالم أجمع . الأسعار كلها ارتفعت : البنزين والخبز والسكر والارز وأقساط المدارس والملابس والأدوية وكل الحاجات الضرورية . وكان من نتائج الغلاء طبعاً زيادة بؤس الأكثرية الفقيرة (إن لم أقل زيادة ثراء المحتكرين والمتواطئين معهم من المسؤولين) ...

وسائق التاكسي (السرفيس) — الذي من البديهي انه لا ينتمي إلى طبقة اللامبالين بالغلاء — هو إذن في حاجة إلى مزيد من الدخل ليقوى على مواجهة الحياة المعاصرة الصعبة القاسية ، ويتمكن من إعالة أسرته وأطفاله الذين هم طبعاً في حاجة إلى الغذاء والدواء واقساط المدارس ، وكلها ارتفعت أسعارها ...

وبالتالي ، فالسائق الذي يستطيع مواجهة الغلاء دون ان يرفع تعريفته هو صاحب

دخل غير مشروع (ناتج عن السرقة ، المخدرات ، الخوّة ... إلى آخره) يمكّنهُ من مواجهة متطلبات الحياة المستحيلة والغلاء الفاحش ...

السائق الشريف مضطر إلى رفع أسعاره وإلا فكيف تريدون منه أن يعيش ؟ انكم تدفعون به دفعاً إلى السرقة وإلى البحث عن الرزق خارج القانون الذي لم ينصفه . وإني لأعجب إذا لم يفعل .

أقول لكم : عاقبوا السائق الذي لم يرفع التعرفة لا الذي رفعها ، فهو إما سارق صغير ، وهذا ضد القانون الذي يتولى أمر أمثاله عاجزاً عن مطاردة السارقين الكبار ، أو أنه من طليعة الثورة التي ستنفجر لا مفر ذات يوم من أجل اللقمة والعدالة الاجتماعية ، (والثورة أمر تعاقب عليه القوانين الحالية بشدة أكثر !) ..

إن مطاردة السائقين لا تحل مشكلة الغلاء وانما تجسّد بعض أسبابها الحقيقية ...

تجسد ذلك المرض اللبناني العربي الذي يعاني منه الشعب العربي في أكثر أقطاره ، ويتمثل في ما يلي :

١ — الهرب من مواجهة المشكلة ككل إلى معالجة بعض ظواهرها الجانبية .

٢ — استخدام أسلوب ابر المورفين في تسكين بعض أعراض الداء القاتل .

٣ — اعتماد أسلوب « أسدٌ عَليَّ وفي الحروب نعامة » ، فتُثبت الدولة هيبتها باستمرار بالتسلط على الطبقات الكادحة الفقيرة واستعمالها كبش فداء تتلهّى بذبحه ، هرباً من مواجهة السارقين الكبار أصحاب الفضائح الكبيرة التي تنفجر من آن إلى آخر ويكون أول المسارعين إلى التستّر عليها هم أصحاب الشأن من « الكبار » .

أقول لكم : لا تعاقبوا أولئك السائقين العشرة الذين رفعوا تعريفتهم ، وانما أقيموا نصباً لهم وأسموه النزاهة وانعموا عليهم بالأوسمة والنياشين كي يحمل الوسام مرة من يستحقه حقاً .

* * *

ترى أيهما أكثر تعبيراً عن واقعنا العربي ، مهرجان الأزهار في بكفيا الذي قطع الطرقات بعربات الزهور ، أم « مهرجان » القرى العطشى في منطقة كسروان التي قطع أهلها الطرقات بالدواليب المحروقة وجذوع الاشجار احتجاجاً على العطش ؟

١٤ / ١٠ / ١٩٧٤

هل اسمك اليوم في عمود الوفيات ؟!

تستيقظ كل صباح ، وتبحث في جريدتك عن أسمك في عمود الوفيـــات ، وتفرح حين لا تجده ... ثم تفتش عن اسمك أو صورتك في صفحة الجرائم وحوادث السيارات ، وتتنهد براحة لأنه ليس هناك أيضاً ... وتقول : إذن نجوت البارحة !...

إذا كنت من سكان بيروت ، ستفعل ذلك مثلي وتصلّي كل صباح شكراً للصدفة لأنها منحتك يوماً اضافياً تعيشه ... ولأنك ما زلت تحيا رغم انك تقطن في بيروت ١٩٧٤ .. تصلي شكراً لأنه لم تقتلك رصاصة طائشة . لم تدهسك سيارة . لم تمت عطشاً .. لم يختطفك أحد . لم يذبحك أحد . لم يسقط عليك بناء مغشوش . لم يصعقك سلك كهربائي مقطوع مهمل . لم تُقتل خطأً حين نشب قتال بين المافيا المحلية في المطعم وأنت تتناول عشاءك .. لم تتسمم بالخبز المعجون بالصراصير . لم تحرقك نيران القصف الاسرائيلي اليومي على الجنوب . لم تلتهمك كلاب حواجز الشرطة أثناء التفتيش . لم تصب بانهيار عصبي لأنك قرأت عبث رجال السياسة المهترئين وتظارفهم السمج وتصريحاتهم ... ولم تُسرق سيارتك وأنت بداخلها... ولم .. ولم .. ولم يصبك شيء بعد مما يصيب عشرات المواطنين المعذبين في بيروت .. ولم تنتحر بعد ! ..

وستصلي مثلي شكراً للمصادفة ، لأنها منحتك يوماً إضافياً جديداً تتعذب فيه ! ..

* * *

قرأت اليوم خبراً عجيباً عن ناطور بناية وجد ميتاً وأثبت الطبيب الشرعي انه مات بالسكتة القلبية ...

ودهشت .. أما زال في بيروت من يموت ميتة طبيعية ؟ ...

* * *

وحين تحس أنك تعوم فوق بحر من القرف ، والمدينة تربض فوق صدرك بكل بشاعتها ومهازلها ، كجسد كففت عن حبه ، تحس بالحاجة الى الهرب .. الى أين ؟

ماذا غير البحر ، البحر العتيق الشاسع ، البحر — الأب ، بحر البراءة والدهشة ، بحر الشمس والنقاء المنسي ... بحر الأسرار والكنوز والقارات المدفونة والأساطير ؟ ..
وتذهب في قارب مع بعض أصدقائك ...

* * *

توقف بنا القارب فجأة في عرض البحر ... وداخل مروحة المحرك ، كانت القاذوراتِ متشبثة به تعيق دورانه ... قاذورات من كل صنف يخطر بالبال أو لا يخطر .. مجموعة (عالمية) من القاذورات لا ريب في أن سفن المرفأ قد جادت بها على شواطئنا ، فبينهـــا معلبات لا تباع في أسواقنا ... هذا بالإضافة الى قاذوراتنا المحلية التي نهديها للبحر مع كل فجر ... كان المركب يشق دربه عبثاً في مستنقع من البقايا المقرفة والشمس عبثاً تشق دربها الى قلوبنا ، وتعلقت نظراتي ببقايا امعاء خروف عائمة .. (أم تراها امعاء إنسان قرأت اسمه هذا الصباح في خانة المفقودين ؟) ..

ولكن ، لماذا تدهشني قذارة الشاطىء ؟ أليس امتداداً للساحل ، وها هو يحمل على صفحته الشفافة صورة عن حياتنا في الداخل ، وها هي الصورة تنتشر بين الأمواج بكل عريها وقذارتها كأنها سطور ليوميات إهمالنا ؟ .. وعبثاً حاولنا اختراق سور قاذورات بيروت لنصل الى عرض البحر . تعطلت المروحة ثلاث مرات ، وتعبنا ..

* * *

قال صديقي : أغطسي تحت الماء ...

وهربت الى الأعماق وفوق ظهري مؤونتي من الأوكسيجين ... كان القاع ساكناً إلا من ضجيج تنفسي والفقاعات الراكضة الى الأعلى .. وسمكة تتأملني بدهشة بعينيها الكبيرتين ... تتأملني بما يشبه الهزء والغضب ولعلها تتساءل : ما هذا الحيوان البحري العجيب . ما أبشعه . وما أسخف تنفسه ! .. ما الذي قذف به الى هنا ؟ وتمنيت أن أروي للأسماك ما يدور وأطلب اللجوء الى عالمها ... لكنني شعرت بعيونها تطردني من القاع ... ولن تقنعها نظرية « جول فيرن » عن البحر ، وأن عودة الإنسان الى البحر هي أمله الوحيد في النجاة ... لا مكان لنا هنا . لا مفر من مواجهة المستنقع كل صباح ، كل صباح ! ..

* * *

ولا مفر من الغضب حين نقرأ ذلك الخبر المتكرر عن شاب نجا من القصف الاسرائيلي ولكنه كاد يقضي نحبه نتيجة الاهمال اللبناني الطبي ...

شاب تتمزق امعاؤه ... يحملونه الى المستشفيات الرسمية ليعامله الأطباء بغطرسة ولامبالاة قد توديان بحياته ، ثم تصدر إدارة المستشفى أو الطبيب المختص تكذيباً للمريض إذا شكا ، ويتم اعتماد التكذيب لأن صاحب الشكوى فقير وبالتالي مهمل وليس هنالك من يدافع عن حقوقه .. عن أبسط حقوقه التي تقرها جمعيات الرفق بالحيوان : حق الحياة ...

أنها ليست حادثة إفرادية ... انها ظاهرة عامة ... ظاهرة استخفاف آكثر الأطباء بحياة الفقراء وعامة الشعب ... إنهم لا يتذكرون قسم ابقراط إلا أمام دفاتر الشيكات...

المطلوب إعدام كل طبيب يترك إنساناً يحتضر أمامه ولا يعالجه لمجرد أن جيوبه فارغة إلا من القهر والدم !

٢٣ / ٥ / ١٩٦٦

في العنف الدموي نغرق !

عنف وجريمة .

دم دم دم يسيح حولنا ...

دم يسيح على صفحات صحفنا ، دم يسيل من أحاديثنا المتبادلة ، دم في الأزقة المعتمة ، دم . خنجر مسموم يحس كل منا أنه يتربص في الظلام لرقبته ...

يوماً بعد يوم

لم نعد نقرأ إلا عن حوادث العنف .. قتل ، اختطاف ، سرقة ، دم ، دم ...

لو تجاوزنا التفاصيل ، الأسماء ، الظروف ، لوجدنا دلالة ما يدور خطيرة .. الجريمة هي أن يعتقد الإنسان أن رصاصة ما هي الحل الأمثل لأية مشكلة . إنها سقوط إنساني : والعنف الدموي ، الذي بدأنا نجد أنفسنا غارقين فيه ، معناه أن جيلنا بدأ يتعلم استعمال يديه أكثر من استعمال رأسه ...

إنها عودة الى العصر الحجري في الأرض التي لما أنبتت الأديان والفلسفات حررت الانسان من منطق العضلات الحيواني وكرمته برفعه الى عالم الفكر السامي ..

لماذا ؟ .. لماذا هذا العنف الجنسي والسياسي والاجتماعي ! لماذا بدأ جيلنا يستعمل يديه حيث يجب أن يستعمل رأسه ! .

لأننا أغرقناه في العنف .. في الدم .. وفي الجهل والسطحية ؟

الدم يسيح من برامج تلفزيوناتنا (وقد تنبّه المسؤولون الى ذلك ربما بعد فوات الأوان) ... عنف ودم .

لأن « جيمس بوند » صار مثلنا الأعلى وهو استيراد تافه في عالمنا العربي ...

في عالمهم الغربي حيث الإنسان مجرد رقم مجهول تافه ، جيمس بوند تجسيد لفكرة « السوبرمان » ...

أما في عالمنا العربي ، فجيمس بوند رمز لايجاد حلول تتجاوز الحلول المشروعة الجماعية الإنسانية ..

لو عدنا الى حقيقتنا ، لاكتشفنا أن عالمنا العربي بتقديسه للقيم ، قد تجاوز عصر جيمس بوند بمراحل ومنذ زمن طويل.. ربما كان السندباد «جيمس بوند» العرب.. لكنه كان — إنسانياً — على مستوى أرفع ، فقد كان له في طموحه الصادق للمعرفة ، لا في اسلحته الآلية البهلوانية ، سر قوته وعظمته ..

أن نستورد الطائرات منهم ، والصواريخ ، أمر لم يعد هنالك مفر منه ..

أما أن نستورد منهم حصيلة جوعهم المريض الى التفرد ، فأمر تجاوزناه منذ عصور ..

لماذا ، لماذا في غمرة ركضنا الأعمى وراء كل غربي مستورد. نستورد أمراضهم ونستورد لقاحاتهم لأمراض لم نصب بها قبل أن يقوموا بتسميم جسدنا السليم بجراثيمها ؟

في التلفزيون ، في برامج إذاعاتنا ومسرحياتها البوليسية (المثيرة) ، في الأفلام . في أسطوانات النحيب والأنين ، في الروايات (الميلودرامية) بذور لعقلية لا تلائم المزاج العربي الذي كان شهماً والأخلاق العربية التي لم نعد نجد أمثلة لها إلا في الكتب الصفراء ..

العربي لم يكن قط مجرماً ...

العربي كان شهماً حتى في جرائمه وسقطاته ..

كان في أشعاره يناجي حتى ذئاب الصحاري التي ربما — قبل ليلة — التهمت أطفاله ..

العربي كان دوماً حار العاطفة ، لكنه لم يكن مجرم العاطفة مسعورها ..

اليوم ، جيلنا هجين . فتح عينيه على تفاهات الحضارة الغربية لما عجز عن مجاراة انتصاراتها ...

شيء واحد كان يمكن لعالمنا العربي ، المقصر علمياً . أن يمنحه للغرب الجائع روحانياً ..

شيء واحد اسمه : القيم ...

وها نحن اليوم نتخلى عن الشيء الوحيد الذي تبقى لنا .

وها هو جيل الإنسان الآلي (الروبوتز) يتسلل الى ذلك الرأس الذي كان مدينة منطق ونقاش وتسامح ، ليحيله الى قرية من قرى الغرب النائية في احد أفلام

الكاوبوي ...

عشرات الأحداث في شهر واحد .. دم .. دم .. دم ...

ومع ذلك ما تزال التلفزيونات تعرض تفاهاتها ببلاهة .. وما تزال أفلام العنف والقتل تجد طريقها الى شاشاتنا واستديوهاتنا ...

وما زلنا نربي في أطفالنا وشبابنا أجسادهم ، ونمعن يوماً بعد يوم في تشويه بقايا رواسب الأخلاق العربية النبيلة في رؤوسهم ...

نسخّر وسائل دعاياتنا كلها لنعلم سيقانهم كيف تتلوى في حلبات الرقص ، وكيف تتسلل الى دهاليز الجريمة . أما رؤوسهم ، فلم تعد العاقلة المدبرة ، وإنما استحالت الى مجرد أدوات مدبرة متضامنة مع حيوانية الأصابع التي تفرض منطق الرصاص ...

شيء مفجع حقاً ، أن أجسادنا صارت تحمل رؤوسنا في مأتم رؤوسنا ...

شيء مفجع حقاً أن كانت لخيام أجدادنا جذور أعمق انغراساً في أرض الطمأنينة من ناطحات سحابنا التي تعوم على الرمال ...

شيء مفجع حقاً ، أن أطفالنا سوف يشهدون الليلة ، وكل ليلة ، على الشاشات وعلى الصفحات ، رجالاً يموتون كالذباب ...

ترى ، كم طفلاً من بينهم سيكون قاتلاً بعد أعوام ؟ ! ...

١٣ / ٦ / ١٩٦٦

الأطفال ، والقتل !

روت لي المعلمة ، وفي عينيها ذعر قلق ..

قالت ،

(طفل) صغير ، تشاجر مع (طفل) آخر في المدرسة ، فشهر عليه سكيناً كان قد سرقها من المطبخ ... ورد عليه الآخر بالمثل ! ...

قالت ،

إنها بحكم انتمائها الى (الجيل القديم) الذي ما يزال يقرن الطفولة بالبراءة ، كادت تصاب بالاغماء .. وعجزت عن مشاركة بقية أطفال الصف حماسهم أو لامبالاتهم بما يدور ...

قالت ،

الأطفال لم يعودوا أطفالاً ... لم يعد في عيونهم ذلك البريق المشبوب بالعاطفة ، ولم يعد في حركاتهم وفي لهوهم ذلك الخبث الساذج الطيب ، والمكر المحبب النقي ...

قالت ،

أطفالنا فقدوا الطفولة ، ولم يبق لهم منها سوى احجامهم الصغيرة ...

لقد تحولوا الى مجموعة من الأقزام العصريين ، تسود تصرفاتهم ، الآلية ، والقسوة ، والأنانية المستهترة ... إنهم فقدوا كل تحسس مورث بالقيم الخلقية الجمالية ... إنهم يشبون على ذلك ، يكبرون يوماً بعد يوم ، بينما يصغر الإنسان في أعماقهم حتى يكاد يضمحل ...

قالت ،

إن متعة تدريس الأطفال انتهت .

صارت اليوم تشعر أنها موظفة في بنك تتعامل مع الأرقام . تتحاور مع الآلات الحاسبة .

انها ترى فيهم رموزاً مرعبة لجيل هجين ، سيشب بعد أعوام قليلة ليحمل تراثاً لا يفهمه ولا يقدره ، وليمارس حياة تنحرف نهائياً باصالة الفرد العربي القديمة التي أهلته ذات يوم لسيادة العالم ..

أتساءل ،

في موجة التطور السريع التي تخوضها بلادنا العربية لمواجهة المدنية الآلية العصرية ، وما ينتج عن هذه الموجة من مضاعفات اجتماعية وسياسية وأقتصادية ، ماذا أعددنا للطفل سوى إهماله ؟ ...

ماذا أعددنا ليرث الجيل الطالع شخصية الفرد العربي وما كانت تنطوي عليه من أخلاقية مكثفة معينة تميزها عن الفرد الغربي الممزق ؟ ..

ماذا اعددنا ليكون التطور إغناءً لشخصيته ، لا إفقاراً لهيكلها الأساسي ؟

هل يكفي أن نحشو البرامج المدرسية بالمعلومات التاريخية والجغرافية ، ونقسرها داخل رأسه على أمل أن يجعل ذلك منه استمراراً لروحانية الشرق العتيقة المقدسة ؟ ..

طفلنا ، ماذا نعلمه في شاشة الشارع والدار والتلفزيون والصحف ؟ ماذا سوى حصيلة مئات من أعوام التخلف والصدأ والاهتراء العاطفي والفكري ؟ ...

عالمنا الاجتماعي المتميع القيم،المهزوز الاسس ، ماذا يملك لأولئك الأطفال سوى جو من الفوضى والغوغائية والصراع والقلق وسوء الفهم وسوء التفاهم ؟ ... وإذا استوردنا له من الخارج ، فإن جهلنا بلب الحضارة الغربية يتحكم في أختيارنا ، ونعود اليه بهدايا (السوبرمان) وأفكار (بيتلزية جيمسبوندية) العنف .

وهكذا يشهد الطفل (أمل المستقبل) اطلالته الأولى على وطنه في هذا الجو المفتعل المريض الغائم ، وهكذا يتم تهجينه واغتيال بذور الأخلاقية العربية التي يفترض أن نعنى بتنميتها في دمه وفكره ...

قالت ،

طفلنا صار مادياً قاسياً ، ملكاته الجمالية مشلولة ...

أتساءل ،

ما دام من يزرع الريح يحصد العاصفة ، ماذا زرعنا في رؤوسهم الصغيرة ؟ ... ولماذا يدهشنا أن ينبت في أحشاء وطننا جيل من حاملي الأمواس والسكاكين ؟ ! ...

٥ / ٩ / ١٩٦٦

الزلزال قادم إلينا !

موجة الأضرابات التي بدأت منذ أكثر من شهر في لبنان ما تزال تروح وتجيء. اليوم ، الاثنين ، هو الموعد الذي حددته النقابات لمتابعة اضرابها ، إلا إذا ...

أهل الاقتصاد والصحافة والسياسة لم يُفتْهم المدلول الخطير لهذه الموجة التي ما هي إلا امتداد للاضطرابات التي تعاني منها أكثر البلاد العربية في بحثها عن استقرار نهائي ونظام يحقق أهدافها وينسجم مع مقوماتها التاريخية والنفسية ...

وهكذا عالجوا الاضرابات بـ (الاسعافات الأولية) من مخدرات ومهدئات وأدوية (موضعية) لا تحسم الداء نهائياً وإنما تحد من انتشاره مؤقتاً ..

وتطوع أطباء الاشتراكية والرأسمالية ، فوصفوا لجسم لبنان أدويتهم وعلاجاتهم المقترحة ، كما يحدث في أي بلد عربي آخر ...

وغرقنا في دوامة من العبارات المهمة : الأجور ، الضرائب ، الغلاء ، السياحة ، الضمان ...

وكانت آثار هذه الدوامة واضحة على صفحات الصحف ... ورغم ذلك ... رغم زحام هذه الكلمات (المهمة) المتعاركة فوق عيني مع هدير صرخات الآلاف من « محمد جورج » (المواطن اللبناني المسلم والمسيحي ولنرمز له باسم محمد جورج) ، هذه الصرخات رغم عمقها وأهميتها ، فإن حكاية في أحد تحقيقات الصحف نفسها حملت إلي ما هو أخطر من هذا كله ، وأكثر أهمية ...

الحكاية : أن مظاهرة قامت في السويد ، وبما أن الناس هناك يمشون في المظاهرات على رؤوس أصابعهم ، فقد كان حادث إحراق علم ، عملاً يستحق تدخل الشرطة ... وكانت صورة شرطي أمسك بمواطن من أذنه وفركها ، عملاً يستحق ثورة الصحافة والرأي العام على امتهان كرامة الإنسان ...

كرامة الإنسان ... هي بالضبط العبارة الأساسية التي يجب أن ينطلق منها أي

حل وكل حل وفي مجالات حياتنا جميعاً ... في اضراباتنا الفردية السرية والعلنية الجماعية ... وفي علاقة الدولة مع الفرد والفرد مع ذاته وفي عطاء الدولة للأفراد .

أي حل لا يضمن لـ « محمد جورج » ضمان الكرامة قبل (ضمان الخبز) هو أيضاً من نوع (الاسعافات الأولية) ... وأي حل لا ينطلق من حق « محمد جورج » بالحياة الكريمة وبالتالي بتحسين وضعه المادي هو حل مفتعل وناقص .

أرضنا العربية هي منبت الديانات لأن الديانات بدأت دوماً ثورات للكرامة الإنسانية المهدورة ... ثورات من أجل الكرامة أولاً ، ومن أجل الخبز مع الكرامة ثانياً ... وكل ما في تاريخنا وجيولوجيتنا النفسية يقودنا الى هذه النبوءة : (أي وضع اجتماعي أو اقتصادي يخلو من هذا الشرط الأساسي هو عرضة للزلزال والتدمير)...

وعلى ذكر الزلزال ...

فقد وقف نائب تركي قبل أشهر ثلاثة من الزلزال الأخير هناك ، وتنبأ بوقوع الزلزال لأسباب جيولوجية ، وطالب بنقل أهل مدينة « فارنو » وإخلائها ... ولم ينصت اليه أحد ...

وبعد أن وقع الزلزال ، وتم مصرع ٣٠٠٠ شخص ، أطلقوا على النائب لقب « المنجِّم » ... أخشى ، لا أريد أن أمنح اللقب نفسه وليمنحونا كرامتنا ، فالكرامة قمح العربي .

١٦ / ٢ / ١٩٧٣

صاحب أجمل بصمة إصبع !

موظف الجمارك في لندن ، سأل أوسكار وايلد العائد إلى وطنه : هل لديك ممنوعـــات ؟

رد الكاتب الساخر : نعم ، ذكائي .

واليوم كانت الشرطة تطارد في شوارع بيروت كل من يحمل كتاباً (*) كأن الكتاب هو دمغة الاجرام العصرية التي كانت توشم بالحديد المحمى فوق أجساد المجرمين والزانيات والقراصنة في العصور الوسطى .

نعم ! أحد زملاء دراستي في لندن كان يزور لبنان سائحاً بعد أن كذبت عليه طيلة أعوام عن بيروت مدينة (الاشعاع والحرية) . تصادف أن ذهب المسكين الى مكتبة في شارع الحمراء ليشتري كتاباً بوليسياً يتسلى به قبل النوم ، ولم يكد يغادر المكتبة والكتاب في يده حتى فوجىء برجال البوليس يهاجمونه ويطاردونه ... ولو لم يكن بطل جامعة لندن السابق في الركض لكان اليوم نزيل أحد المستشفيات !

إن عداء النظام ، أي نظام ، للكتاب هو أمر خطر على النظام أولاً .

لقد أثبت التاريخ أن الثورات التي يقوم بها حملة الخناجر هي التي يفجرها أولاً حملة الأقـــلام ... فالقلم يستحيل خنجراً حين يُقمع . والكتاب يصير قنبلة يدوية .

الثورة الروسية صنعها أولاً غوغول وديستويفسكي وتورجنيف وتولستوي وماركس .

كل ثورات الشعوب صنعها الفكر المكبوت ، وفجرتها أنظمة خنقت الفكر بدلاً من أن تستلهمه ... واضطهدت حملة القلم وحاولت إطفاء نيرانهم بدلاً من أن تستضيء بعطائهم ... فالمفكر بوصلة الحاكم النزيه . والكتاب سلاح الحاكم الواعي ، لا

(*) حدث ذلك إثر تظاهرة الطلاب !

الهراوة ... فالهراوة سلاح رجل الغاب . ولم يعد ممكناً لحاكم في القرن العشرين أن يعود بنا الى العصر الحجري ...

هذه كلها بديهيات .

أي تلميذ في المدرسة الابتدائية يستطيع أن يروي عشرات الأمثلة التاريخية عن هزيمة كل حاكم يُرغم شعبه ومفكريه على ارتداء « حزام العفة الفكري » ... وصاعقة الفكر تحرق سيف الحاكم الخشبي .

أجل . هذه كلها بديهيات ، كان يحفظها عن ظهر قلب كل أطفال بلادنا ، ولكنهم للأسف ، ينسونها حينما يكبرون ويصيرون حكاماً ... وقديماً قيل : افتح مدرسة تغلق سجناً . ولكن يبدو أن أكثر حكامنا العرب قرروا إغلاق كل مدارسنا كي يستحيل عالمنا العربي الى سجن واحد كبير ... وإذا ظلت الأمور على ما هي ، سيأتي يوم تُفتّش فيه البيوت ويقتاد الى السجن كل من يملك مكتبة بتهمة حيازة أسلحة ممنوعة .. وستجري امتحانات الذكاء (I. Q.) ، وكل من يفوق ذكاؤه المتوسط ، يُتهم بالشروع في التواطؤ ضد الحكم ...

أما من يُضبط متلبساً بالتفكير ، فيساق الى المحكمة بتهمة الخيانة العظمى .

وستمنح الجوائز الثقافية للأميين ، وسيحرق الكتاب في الساحات العامة كالمخدرات ... وسيمنع الناس من « التوقيع» على الشيكات وغيرها ويستعاض عن ذلك « بالبصمات » لأن « التوقيع » قد يثير لدى الناس « النوستالجيا الثقافية » ويذكرهم باستعمالات الأبجدية الأخرى .. وسيُرشح العرب لجائزة « نوبل » صاحب « أجمل بصمة » ! ..

١٣ / ٤ / ١٩٧٣

صرخة تحذير في وطن التخدير!

تعبنا من هذه الصورة التي تطالعنا كل أسبوع تقريباً ...

صورة طلاب يركضون في تظاهرة ، ورجال الشرطة ينهالون عليهم بأعقاب البنادق ... يشدون شعورهم ويحشرونهم في سيارات الاعتقال كالخراف المساقة الى الذبح المعنوي .

كلما شاهدتها ، تمطر الدموع في حلقي بصمت غاضب مشمئز .

لماذا تثور السلطات هكذا أمام تظاهرات الطلاب أياً كانت أسبابها ؟

ولماذا تتصرف كأنها تخاف من أن يوقظ الطلاب عقدة الذنب لديها ، أو يوقظوا الشعب النائم (أو المتناوم على مضض) من حولها ؟ ..

أليست تظاهرات الطلاب هي وحدها دليل عافية الجيل الطالع ؟ ...

وحين تمضي بنا الأحداث في مستنقع راكد من الفضائح والسمسرات والإهمال لحاجات الشعب الأساسية والمتطلبات القومية للأمة والتطلعات المصيرية للمثقفين ، أية كارثة قومية تحيق بنا إذا لم يتظاهر أحد ، ولم يرف جفن ، ولم تزكم الفضائح أنف . ولم تصرخ حنجرة فتية : لا ! ..

ومع ذلك ، وبدلاً من أن توزع الحكومة الأوسمة على المتظاهرين لأنهم وحدهم بصيص الأمل في ليلنا الطويل ، نجدها تتفنن في قمعهم .

أعرف أن ذلك لا يحدث في بلادنا فقط ،وانه لا يقع في عصرنا فقط. كما أعرف أن الشبان كانوا دوماً صرخة التحذير فيوطن التخدير وذلك بحكم كونهم ممثلين لإرادة التبديل والتغيير ... وانهم جوبهوا دوماً بحكام يتفننون في اختراع أسلحة مكافحتهم .. وحتى المفكرون العباقرة أعمتهم الهوة بين الجيلين ووقفوا ضد الجيل الصاعد . اقرأوا معي هذه العبارة التي كتبها أحدهم : « شبان اليوم يعشقون الرفاهية . أخلاقهم فاسدة وسلوكهم سيء . انهم يحتقرون السلطات ، ولا يكنون الاحترام للجيل السابق .

أنهم يعاكسون آباءهم ويرهقون اساتذتهم ... » ..

هذه السطور لم يخطها حاكم لبناني معاصر وإنما كتبت منذ العام ٣٢٩ قبل المسيح ! .. وكاتبها هو سقراط نفسه ! .. وحكاية اضطهاد الشبان اليوم ما تزال بعد ٢٠٠٠ سنة صورة معاصرة لما كانت عليه منذ عصور ... وإذا كان سقراط نفسه قد قال في جيل الشبان ما يقال اليوم عن شباننا ، فهل نطمح في تفهم عاجل للشبان ولدورهم الموقظ لحواس الحكم المتبلدة ؟ .. أم علينا أن ننتظر أيضاً ٢٠٠٠ سنة أخرى ؟

٢ / ٣ / ١٩٧٣

إذاعة لبنان مغتربة

لا مفاجأة .

عدوان اسرائيلي .

كان ذلك منذ اسبوع ، وقد يتكرر بعد اسبوع ..

ما الفرق ؟

المهم أنه وقع ويقع وسيقع .

هاجمت طائراتهم الحربية طائرة ركاب مدنية ليبية ، اسقطوها ، وذهب ضحيتها عشرات المواطنين العرب الأبرياء ...

وفي شمال لبنان هاجموا مخيمي البداوي ونهر البارد وخلفوا وراءهم كالعادة جثث الأطفال والرجال والنساء المحروقة ، وأنقاض البيوت الملطخة بالدم ...

لا مفاجأة .

فضيحة التخلي عن الدفاع عن الأرض اللبنانية مستمرة كما لو كانت دعوة لاحتلال جنوب لبنان ... وكما حدث يوم الاعتداء على مطار بيروت في ٢٨ كانون أول (ديسمبر) ١٩٦٨ ، وكما يحدث في كل عدوان اسرائيلي يحدث اليوم ... كالعادة ، لم تقم السلطات اللبنانية بأي عمل دفاعي طوال مدة الاعتداء .

لا مفاجأة .

كالعادة ، مع اليوم التالي طلعت أصوات السياسيين محتجة ، ولكن الذين قتلوا قد قتلوا ، والسيادة اللبنانية انتهكت ، والعار هو العار ، وكلها أيام ، ويعود كل الى مصالحه الخاصة ناسياً الحكاية ...

ولكن ، بعيداً عن الديبلوماسية ، فلنقل بصراحة القلب العاري أن مصرع الضحايا يدمي نفوسنا . والأكثر إيلاماً هو أن إذاعة لبنان من بيروت تابعت بث برامجها كأن شيئاً لم يكن ، في حين أن إذاعة (مونت كارلو) نفسها ، أوقفت

بث برامجها الغنائية والترفيهية ، وأعلنت الحداد على ضحايا العدوان في لبنان ، والحداد على ضحايا الطائرة الليبية ! ! .

أجل !

راديو مونت كارلو يعلن الحداد .

وراديو لبنان يرقص الدبكة ويتغنى بمجد لبنان والتبولة ...

صحيح أن إذاعة لندن استمرت أيام الحرب العالمية في بث برامجها العادية تقريباً — وذلك من أجل رفع الروح المعنوية للشعب — ولكن الأهم من ذلك كله أن جيش انكلترا كان يخوض الحرب فعلاً .. ويدافع عن أراضيها فعلاً ...

أما نحن ، فلا نحارب ، ونتستر أيضاً على فضيحة هزائمنا ، ونتجاهل القتلى الذين يسقطون فوق أراضينا ، والذين يمثلون طليعة النضال العربي وأمل هذه المنطقة المتخلفة في أن تستيقظ من سباتها التاريخي ...

فالشهداء يتساقطون على أرضنا ،

والحداد في مونت كارلو ...

الميت عندنا ،

والتعزية في مونت كارلو ...

واذاعة لبنان مستمرة في رفع الروح المعنوية للشعب ، مستعيضة بذلك عن الحرب !

متى يقطن لبنان في لبنان ؟ ...

ومتى تصير الأراضي اللبنانية جزءاً من لبنان ؟ ..

ومتى تعبّر الإذاعة اللبنانية عن البشر الذين من المفروض أنها تنطق باسمهم ؟ ...

٣٠ / ٣ / ١٩٧٣

لمسة حنان (*)

لمسة حنان ؟

وكيف أمنح هذا الأسبوع « لمسة حنان » ، و « لمسة البارود » تتهدد وجودنا ؟

بالأمس ، زرعوا الموت في جذور مطبعتنا . أرادوا ذبح حناجرنا ، واغتيال أصواتنا قبلها . كنا نأتي الى مكاتبنا بالمجلة كما نذهب الى الصلاة ، عزلاً وبلا سلاح — إلا سلاح الكلمة — .

واليوم ، حولوا دارنا المسالمة الى ثكنة للدفاع عن الذات ...

لمسة حنان ؟

كيف ؟

ها أنا جالسة الى مكتبي الذي كان من المفروض أن يتطاير بي في الجو مع اشلاء بقية زملائي ..

لمسة حنان ؟

كيف ؟

(ربما في هذه اللحظة تقبع في درجي متفجرة . يخيل إليّ انني أسمع تكات ساعتها الموقوتة . لماذا قدر الكاتب في بلادي أن يسمع باستمرار تكات قنابل التهديد داخل طاولته ؟ ومع ذلك هل نملك إلا أن نستمر ؟) ...

ولكن ، هل يستطيع الارهاب الغاء الأساس الحضاري الأول : الحوار عبر اللغة ؟ ...

وهل صارت لغة البارود هي لغة الحوار الوحيدة الممكنة بين العرب ؟ .. (واللغة الوحيدة التي لا نستعملها مع اسرائيل!؟) وصار الحوار المهذب حكراً على تعامل البعض مع إسرائيل ! ؟ ...

(*) كان اسم (العمود الأسبوعي) الذي أكتبه للمجلة : (لمسة حنان) .

أياً كان ما قلناه ونقوله في هذه المجلة ـ وقد نكون أحياناً ، أو غالباً، على خطأ ولكن اللغة يرد عليها باللغة ، لأنه لا يقتل الكلمة إلا الكلمة الأصدق ، ولأن الإبادة تستطيع أن تطيح بأجسادنا الممزقة في حقل البرتقال المجاور ، ولكن الكلمة تظل أبداً ...

الذين يواجهون الكلمة بسلاح العنف قد يعرفون « جغرافية » مقرنا ، ولكنهم لا يعرفون « تاريخ العالم » .. التاريخ يؤكد أن الكلمة « كالميدوزا » ، كلما قطعت لها اصبعاً نبت مكانه ألف إصبع ، بأظافر أكثر طولاً وتحدياً .

قبل أن نتحدث نحن العرب عن استراتيجية المعركة والتكنولوجيا والخطة الموحدة للحرب ، علينا أن نوقف حربنا المستمرة ضد كل مؤسسة فكرية حضارية عربية ، وعلينا أن نتفق على بديهية ساذجة لخصها فولتير بقوله : قد أكون ضد رأيك حتى الموت ، ولكنني أدافع عن حقك في أن تقوله حتى الموت .

هذا الصباح قال لي أحد الجنود الموكل اليهم أمر حراسة المكان ، بعد أن أطلع على بطاقتي الصحفية : ماذا في حقيبة يدك ؟

ـ أوراق وأقلام حبر .

قال لي : دعني أر أقلامك . هنالك مسدسات بشكل أقلام حبر .

قلت له : يبدو أن بعض الحكام العرب يعتقدون أن أقلام كل المفكرين العرب من هذا النوع ! ...

٥ / ٧ / ١٩٦٨

من أجل حرية الفكر !

لا تدهش إذا ذهبت يوماً ما للاستماع الى محاضرة ، وفوجئت بالمحاضر يدخل إليك وقد ارتدى ثياب الميدان ، نظاراته السميكة تطل من خلف خوذته ، في إحدى يديه نص المحاضرة وفي اليد الأخرى قنبلة يدوية وجيوبه محشوة بالسكاكـــين والمسدسات ..

ولا تدهش إذا استعاضت الجمعيات الثقافية بالخنادق عن المنابر ...

ولا تدهش إذا وجدت أكياساً من الرمل ، (تمترس) خلفها أثناء المحاضرة بدلاً من المقاعد ...

ولا تدهش إذا ارتدى الصحافي الحر كفنه ذات مساء ، وودع زوجته وأولاده قائلاً أنه ذاهب الى المكتب لكتابة افتتاحيته ! ..

ولا تدهش إذا تناهى إليك خبر تأجيل محاضرة مفكر ما ، لانشغاله في دورة (الجودو) التي يستعد بها لمحاضرته ، وتنفيذاً لتوصيات مؤتمر الأدباء العرب بتدريب المفكرين على السلاح الأبيض والأسود !

ولا تدهش إذا قلت لك إنني لا أمزح ! وانني أعني كل حرف أقوله ! .

هذا هو الحل الوحيد المتبقي للمفكر العربي ، ما دامت بعض السلطات العربية حتى (التقدمية) منها ، تتخلف عن تحقيق أبسط مبادىء (تقدميتها) : مبدأ حماية حرية الفكر ! ! ... فالحادث الذي وقع في قطر عربي شقيق ، ومدلوله الخطير ، وتجسيده لمأساة عربية مشتركة متعددة الوجوه ، هذا الحادث لا يترك للمفكر العربي أي خيار ...

لا أعتقد أن هنالك من لم يسمع بالحادث المفجع الجديد ، الذي خرج منه الفكر العربي كعادته ، لقيطاً مرمياً على أبواب القمع .

الدكتور نديم البيطار ذهب ليحاضر في قطر عربي بدعوة من جمعية العلوم السياسية كما يحدث في بلاد العالم المتمدن ...

وكما لا يحدث في بلاد العالم المتمدن تلقى الدكتور بيطار قبل موعد محاضرته هواتف تهدده بالقتل فيما لو تجرأ على أن يمارس أبسط حقوق الإنسان العربي في ظل أنظمته (التقدمية) التي هلل لمجيئها : حرية الفكر والتعبير ..

رئيس الجمعية المضيفة تصرف كأي مواطن مثقف : لم يفكر باستئجار فرقة من المرتزقة للدفاع عن أمن الحاضرين ، وانما اتصل بالسلطات الرسمية على اعتبار أن الدولة وجدت أصلاً لهذا الغرض ، ولها الحق في منع المحاضرة أو حمايتها ... ولم تمنع المحاضرة .

وفوجيء الجميع يوم المحاضرة بهجوم فئة من الأفراد تمنع المحاضرة بالقوة وتنفذ تهديدها . ! هجموا بالسكاكين والأحجار والخناجر ، متسترين بذلك الشعار النبيل « الله أكبر » .. (أيتها الآلهة ، كم من الجرائم ارتكبت باسمك) ... وهرب المحاضر وجرح الجمهور !

هذا الحادث في نظري فضيحة عربية مثلثة الوجوه ..

١ — فضيحة على الصعيد الاسلامي :

إن مهاجمة جمهور أعزل بالسكاكين والرصاص ليس من روح الإسلام في شيء . والحكم بالاعدام على إنسان من أجل محاضرة لما يقم بالقائها بعد ظلم إنساني .

أنا لم أقرأ شيئاً للدكتور بيطار ، وهو قد يكون ملحداً أو لا يكون ، قد يكون ماركسياً أو نازياً أو لا يكون . في الحالات كلها أدافع عن حقه في أن يقول ، بقدر ما أدافع عن حق الجميع في الرد ...

ولكنني أرفض العنف الجسدي رداً، بدلاً من مقارعة الحجة بالحجة ، وأرفض أن يكون ذلك باسم الإسلام . إذ ليس من روح الإسلام المجيد ، العمل في الظلام ، وهو الذي جاء ليُخرج الناس من الظلمات الى النور ... من الظلم والارهاب الى الحرية والكرامة .. والإسلام معجزته الكلمة ، فهو مع الحوار الفكري ...

وبالتالي كان يمكن أن يتمثل الإسلام في المحاضرة ، فيما لو رافقت صيحات « الله أكبر » أدمغة تحمل الحجة لا السكاكين وتناقش الدكتور بيطار حتى مطلع الفجر ، حتى يسقط فكره صريعاً ، وفي اسوأ الاحتمالات يخرج كل فريق حاملاً قناعاته ويكتشف الجمهور ذاته الحقيقية عبر ذلك الحوار الصحي .

اني أصرخ في وادي أئمة المسلمين ومفكريهم في العالم العربي كله ، أناشدهم

رد الأعتبار الى الفكر العربي الإسلامي وتبرئة الإسلام من هذا التنظيم الإرهابي ومن أي تنظيم ارهابي غوغائي في أي قطر عربي يستهدف تدمير حرية الفكر ..

٢ — ما حدث فضيحة على صعيد موقف الرسميين في نظام تقدمي :

قبل المحاضرة قدّم بعض الذين لا يعرفون عن الإسلام سوى المسابح والعمائم عريضة الى رئيس الحكومة طلبوا فيها منع المحاضرة واحراق كتب نديم البيطار في الساحات العامة ...

إنّ حريق مكتبة بغداد التي كانت تضم خلاصة الرقي الإسلامي الفكري والعلمي ، على يدي هولاكو كان فاتحة عصور انحطاط العرب وسقوطهم في الذل والمسكنة ... والتاريخ الإنساني في كل مكان من العالم يذكر بهلع وخجل مأساة احراق حضارة إنسانية هي الحضارة العربية الإسلامية .

وحتى تهاون السلطات الرسمية في تأمين الحماية البوليسية للمحاضر المفكر ، يمكن أيضاً أن نبرره على أنه من قبيل عدم التصديق ! عدم تصديق أن أموراً كهذه يمكن أن تحدث في عصرنا ... ويؤكد ذلك عدم منع المحاضرة رسمياً .

ولكن ، لماذا ترحيل المحاضر ؟ ولماذا تعطيل الجريدة التي دافعت عنه وإقالة رئيس تحريرها ؟ لأنه حر وصادق ، هذه محاولة لتدجينه كما يحدث لأي مفكر عربي حر في أي قطر (رجعي) . أن يحدث ذلك بالذات في ظل نظام تقدمي ، يثير مخاوف وحساسيات المثقفين العرب ... وتساؤلاتهم ... ماذا حدث ؟ ...

أن القضية لا تخص شعب هذا القطر الشقيق وحده ، لأن كل مواطن عربي خرج يرقص في الشوارع يوم سقوط الرجعية في ذلك البلد ولأن الثورة العربية في أي قطر تخص كل عربي .. ولأن في انحرافها أو تشوشها ما يمسه مباشرة ، ويهدد بقاءه ...

لماذا لم يُعاقب مثيرو الشغب ؟ من واجب السلطات أن توضح أن الدستور مقدس ، وانتهاك حرمته يعرض الفرد للعقوبة مهما كانت دوافعه وأقنعته .

ما جدوى سقوط الرجعية في أكثر من قطر إذا كان النظام التقدمي الجديد ، تقدمياً بشعاراته لا بأسلوب عمله أياً كانت أعذاره ؟

ما هي القوى الشريرة الخفية التي تدفع ببعض الأنظمة التقدمية الى مهادنة الرجعية الغوغائية ، وحتى مساندتها أحياناً ضد الفكر الحر ؟ ... أليس الفكر الحر هو وحده ، الضمانة الصادقة للثورة ؟ .

إن حكومة هذا القطر مطالبة بإعادة ثقة الفرد العربي بأنظمته التقدمية ، وبجدية شعاراتها على الصعيد الواقعي العملي ضد سماسرة الرجعية المتسترين خلف اقنعة الدين وسواها.

٣ ــ فضيحة على صعيد المثقفين العرب :

لقد وقّعت ٢١ نقابة مهنية وفكرية في ذلك القطر العربي مذكّرة تعلن شجبها واستنكارها لأسلوب العنف والاعتداء على حرية المواطنين واجتماعاتهم ، وحريتهم الفكرية . وعريضتهم تتعلق بالمبدأ ... بينهم أكثر من مسلم وليس بينهم قريب للدكتور نديم البيطار (الذي تصادف أنه لبناني) ، إذ ليس للفكر وطن .

اني أصرخ في وادي المثقفين العرب على اختلاف هيئاتهم ومهنهم ، بما فيهم من رجال دين ودنيا ... كل عربي مدعو لتوقيع هذه المذكرة ، التي تطالب بمعاقبة المذنبين وفقاً للقضاء وفي المحاكم المختصة ... وكل عربي مدعو الى دعم الأنظمة التقدمية بشرط أن تمارس تقدميتها ، وتدعم الحرية الفكرية للأطراف كلها ، وتنظّم أي حوار في ظل هيبة القانون وسطوته .

عار على المفكر العربي في أي قطر أن يقرأ عن هذا الحادث بينما هو يتناول قهوة الصباح في مقهاه ، ويظل يتثاءب في مقهاه بعد ذلك ، كما لو كان يقرأ عن جريمة نشل في الطرف الثاني من القمر ...

إنها جريمة تخص كل مفكر . . . جريمة نشل الفكر من رؤوس المثقفين العرب .

وعلينا جميعاً أن نثور وعلينا أن نحمي الثورات العربية من مواقفها « اللاثورية » ..

٤ ــ فضيحة على المستوى الأكاديمي اللبناني :

الدكتور نديم البيطار مواطن لبناني ، مثقّف الى حد أهّله للعمل كأستاذ جامعي في بلاد غربية : كندا ... له موقف فكري ، ومؤلفات (أكرر ، لم أقرأ له) ، لكن مجرد استثارة كتبه لقوى الإرهاب أمر يثبت أنه كمفكّر يقف ضدها مباشرة ، أو أن في أفكاره ما يهدد بقاءها ، أو أن أفكاره جديدة فعلاً (أول قائل بكروية الأرض ودورانها في التاريخ كان مصيره كالحلاج : الحرق) .

قد نوافق الدكتور البيطار على مواقفه الفكرية أو لا نوافقه ، ولكننا نظل نكنّ الأعجاب لموقفه الصلب والواضح الذي كان أبداً يميّز رجال الفكر الحقيقيين..

السؤال : لماذا يعيش دماغ كله اشعاع خارج وطنه لبنان بلد الاشعاع ؟ ...

لماذا يدرِّس في جامعات كندا ، بينما يرتع في مناصب التدريس الجامعي في لبنان أكثر من (فيلسوف) مزيّف، يستر عمالته خلف تقعره الفلسفي ، ويقوم بمهمة تمييع الفكر العربي وتشويشه ؟ ...

لبنان « بلد الاشعاع » ، مطالب أيضاً بالانسجام مع شعاره ، ومطالب بإنصاف أي مفكر ذي موقف واضح وحاسم وحمايته ، بدلاً من حماية المرتزقين والعملاء ، في عصر تدفع فيه الملايين لشراء الأدمغة من كافة أنحاء الأرض .

وبعد .

صرخاتي الأربع أحس أنها في واد .. كآلاف الصرخات الأخرى ... فإلى (الجودو) أيها المثقفون العرب .. فليس لديكم ما تخسرونه سوى أقلام محرَّم عليكم استعمال الحبر فيها ..

١٩ / ٧ / ١٩٦٨

من أنا حتى أكم أفواه الينابيع ، وأخيط شفاه الأطفال !؟

استعيد الآن هذا الجزء المسجّل — في ذاكرتي — من محاضر اجتماع هيئة التحرير.

بعد ساعة من النقاش الحار الأشبه بالبوح ، والذي أثيرت خلاله أوجاع امّتنا العربية كلها من سياسية واجتماعية وحربية ، وامتلأ الجو برائحة البارود ، بحس الخطر ، بحالة الحرب القائمة في كل ميدان وعلى كل صعيد ، وامتلأ كل محرر بالرغبة في القيام بشيء ، بالرغبة في أن تكون موضوعاتنا تجاوباً مع تواتر الأحداث وخطورتها وضرورة اتخاذ خطوة ما ..

سألني فجأة رئيس التحرير : وأنت يا غادة ، حول ماذا سيدور موضوع تحقيقك المقبل ؟

— عن قصائد « الموت واللغة » للأب الشاعر يوسف سعيد .

خيل الي أن همهمة خيبة أمل وعتب سرت في الجو .

رئيس تحريرنا تابع : كنت أسألك عن التحقيق ، لا عن نقدك لكتاب .

— سأكتب تحقيقاً انطلاقاً من هذا الكتاب . انه كتاب مهم ، وظاهرة في أدبنا العربي يجب الالتفات اليها .. لا لأن شاعرنا رجل دين ، ولكن لأنني وجدت في الكتاب ما ذكرني بالـــ (Metaphisical School) . الحركة الشعرية المهمة جداً في تاريخ الشعر والفكر الغربي ...

وقبل أن يحتجّ أحد ، استرسلت في محاضرة أكاديمية حول تلك المدرسة ، وشعرت بأنني كنت كمن يحاضر عن غاندي والمقاومة السلمية في ملجأ للغارات الجوية ! أو كمن يقرأ فقرات من كتاب « دع القلق وأبدأ حياتك من جديد » لفريق من المجاهدين الذين سيُنفذ بهم حكم الإعدام بعد ساعات !.. إلا أن حبي للشعر تغلب على كل شيء .. وتابعت : « مدرسة ما وراء الطبيعة » الشعرية تلك هي التي انقذت الشعر الأنكليزي من فترة انحطاط خطيرة ، غرق الشعر خلالها في داء عشق اللفظة

وألاعيبها . حتى خلا من كل مضمون فكري أو رؤيا شعرية .. يومها تحول الشعراء من مبدعين الى راصفي كلمات على رقعة « كانفا » .. ثم جاء « دون » ، و « هيريك » و « هربرت » وأتباعهم، بعضهم من رجال الدين أو من المنشغلين بالقضايا الروحية . وانقذوا الشعر من هذا المصير المفجع ، إذ أغنوه بمضمون فكري انساني مسيحي الرؤيا للوجود . وشعرنا العربي المعاصر يمر بمرحلة موازية ، ومن الضروري أن لا نهمل الأدب في موجة انغماسنا بالسياسة لأن الأدب يغني الأمة فكرياً، وهو أمر نحن بأمس الحاجة اليه في هذه الظروف الحرجة .

وقاطعني رئيس تحريرنا في نفاد صبر هادىء : حسناً .. حسناً .. أكتبي ما تشائين ..

(انتهى المحضر) ...

عدت الى كتبي وأوراقي . والى عوالم « دون » و « هيريك » ، والى دنياي العتيقة وحتى الى شوسر وميلتون .. عشت معها ، ومع أكثر من كتاب نقد غربي حولها ...

وعشت مع كتاب الأب الشاعر يوسف سعيد ، مع « اللغة » التي يحارب « الموت » بها ، وأعوان قتل « إنسانية » الإنسان أثناء حياته ..

بل انني نفضت الغبار عن بعض كتبي في الصوفية ، عن « أمراء الشعر العربي في العصر العباسي — أنيس المقدسي » ، وعن « شخصيات قلقة في الإسلام — عبد الرحمن بدوي » ، و « التصوف الإسلامي — الدكتور البير نصري نادر » ، وبدأت أقرأ ، وخيوط أطروحة أدبية تتجمع في ذهني ...

عشت أياماً أقرأ وأفكر في برج من الرؤى : ترى هل هنالك شبه بين مدرسة ما وراء الطبيعة ، وبين الصوفية ؟ هل هنالك تناقض ؟ المقارنة على أية حال تجعلنا دوماً أقدر على الرؤيا ... وأين تقع قصائد الاب يوسف سعيد من ذلك كله ؟ هو يقول : « هذه المجموعة ، تجربة تحاول أن تتجاوز الموت باللغة .. ! تراني وقفت أمام الجدار أم اخترقته ؟ » ..

وأعترف ...

استسلمت لغيبوبتي الفكرية الممتعة .. وبدأت في كتابة دراسة أدبية أكاديمية مفصّلة حول معركة الأدب ضد الموت على رقعة شطرنج الحياة وبعساكـــر من حروف ...

لو ...

لو لم أقرأ في صحيفة زميلة مقالاً للاب يوسف سعيد حول ما كتبته عن الدكتور نديم البيطار ... وفي المقال يأخذ عليّ دفاعي الحار عنه وعن حقه في أن (ينطق بكفره) ...

أذهلني ذلك ! ...

الشاعر الذي يريد أن يتحدى الموت باللغة ، ينادي بقتل اللغة ! ..

الشاعر الذي يقول :

« من أنا حتى أكمّ أفواه الينابيع وأكمّ أشداق القطط والذئاب ؟ حتى اخيط شفاه الأطفال في حفلة الشعانين ؟ »

هو نفسه الذي يستنكر في مقاله لماذا « لم يَسْكُتْ نديم البيطار ، ولم يَشُدّ خرقة بالية على فمه » ! ! ...

لا .

للشعر أقول لا . للفن أقول لا . للغناء أقول لا . للنقد الأدبي أقول لا .

لا .

لا جدوى من أن يقال أي شيء في مجال الإبداع الأدبي أو حوله قبل أن يتمّ ، ونهائياً ، التفاهم حول قضية حرية الفكر ، وحمايتها نهائياً بتشريعات الدستور والموكلة بتطبيق تشريعات الدستور : السلطات التنفيذية .

لا .

لن أكتب نقداً أدبياً ولا بحثاً أكاديمياً شعرياً ، وإلا كنت كمن يكتب مؤلفاً في فن الطبخ لقبيلة تموت جوعاً ! ..

لا .

قبل أية محاولة تقييم لأي نتاج ، علينا أن ننتزع الأهم : حرية الانتاج ! ! ..

قبل أن نطبّق أساليب الدراسة الحضارية على نتاجنا الفكري ، علينا أن نعامل نتاجنا الفكري باسلوب حضاري ، ونوفر له جواً انسانياً حضارياً لنموه ، وأول شروط هذا المناخ هو الحرية الفكرية .

لذا وداعاً يا رحلتي الصوفية عبر قصائد وقصائد وقصائد ، فقد كنت كمن يريد أن يتجول مصلّياً للوجود بقيثارة ، في حقل لم يكن يدري أنه مزروعٌ بالالغام ...

لذا ، (عودة الى عالم الأرقام) سأناقش على التوالي :

١ ــ رد الأب يوسف سعيد حيث كان فيه ــ ربما دون أن يقصد ــ سجّاناً للكلمة .

٢ ــ قصائده التي احببت ، والتي كان فيها ثائراً من ثوار الكلمة ..

٣ ــ مدلول ازدواجية الموقف هذه ، ــ أن يكون ثائر الكلمة سجّانها ــ ، ومن هو المسؤول الحقيقي عن ذلك ؟..

سوء تفاهم أم رفض للتفاهم ؟

يوم كتبت عن نديم البيطار كتبت مدافعة عن المبدأ . عن مبدأ السماح بحرية التعبير وضمانها لكل فرد وأنا لا أدافع عن مبادئه ، وإنما أدافع عن حقه في أن يقول ، بقدر ما أدافع عن حق الجميع في الرد .

الأب يوسف سعيد يطالبنا بأمر آخر ، يطالبنا (زميل لي دافع عن البيطار ، وأنا) بأن نطّلع على آراء البيطار ونناقشها ثم نحكم لها أو عليها ... هذه روح مقاله ... انه يأخذ علينا دفاعنا عن « ملحد » ، ونحن لم ندافع عن « ملحد » وإنما دافعنا عن حق مواطن في أن يقول .. لقد وقفنا ضد الالحاد بحرية الفكر في وطننا العربي ، ضد الالحاد بالإنسان . تساءلنا عن ماهية (الحقيقة) وبالتالي مفهوم (الإلحاد) .

والأب الكريم يقول في مقاله « أقول الحق لكم ، اننا يجب ، قبل الكتابة أن نقرأ ونناقش ونحلم ثم نكتب ، وإلا كان العطاء عندنا ناقصاً مشلولاً ، فاتراً ، يحتاج الى ملح يغذي أطعمة الفكر » ... تلك هي النقطة الأولى التي أثارها .

وأنا لا أجد في كلامنا ما يتنافى مع كلامه . نحن دافعنا عن المبدأ، دافعنا عن حرية أن نقرأ ، وأن نناقش وأن نكتب ، لأن هذه الحرية مفقودة ، ودافعنا عن ذلك عبر حادثة واقعية : قصة الدكتور البيطار ...

ولا أجد في رده علينا أي رد ، وانما مجرد تطوير لما طالبنا به ، وتوسّع حول احدى النقاط ، فهو يتحدث عن « الملح » الذي يجب أن يغذي أطعمة الفكر ، ونحن تحدثنا عن الأهم : عن المجاعة الفكرية التي تهددنا حينما نهدد حرية الفكر . نحن تحدثنا عن خبز الحياة الفكرية ، وهو تحدث عن مقدار الملح فيه ، وأنا أوافق على كل ما قاله دون أن أجد فيه حرفاً واحداً يتناقض وما قلته أنا ، أو زميلي . ببساطة ، الأب يوسف سعيد يسألنا : لماذا لم نقرأ ؟

ونرد : اننا ندافع عن حقنا في ان نقرأ ... وكي نقرأ (وتلك رغبتنا ورغبتك) ، ندافع عن حق سوانا في أن يكتب وأن يقول ... ثم كيف نقرأ لنديم البيطار مثلا أو سواه ونناقشه اذا لم يُسمح له بأن يقول ، ولم يسمح بنشر ما يقول ؟ ..

أليس ما ندافع عنه هو الشرط الأساسي لتحقيق مطلب الاب الفاضل ؟

إذن فالقضية حتى هنا لا تتجاوز سوء التفاهم بيننا وبين الاب يوسف سعيد الذي يثيره دفاعنا عن المبدأ ، مبدأ حرية الرأي . وبدا من كلامه انه أكثر اطلاعاً منا على أسرار القضية ، وكتابات من يسميه بـ (النديم) ، وفي هذه الحالة ، لماذا تفرغ للهجوم على مواقفنا الحالية من الاطلاع بدلاً من ان يتابع دراسة ما سهونا عنه ، فيقرأ هو ويجادل ويناقش ؟ اذا كان يجد في (تعليقنا) موقفاً اعتباطياً ، فلماذا اكتفى بكتابة مجرد تعليق على تعليق ؟! ولماذا لم يكن منسجماً مع ذاته ، ومع مطالبته لنا بمناقشة عميقة « بعمق الفضاء والبحار والاغوار » ، فسمح لنفسه بأن يقول « المدينة التي طردت النديم برهنت انها تقرأ » دون أن يقول لماذا برهنت ؟ !

وكيف يؤيد هدر دم نديم البيطار فكرياً ... دون أن يناقش (وينوّرنا) ما دام قد قرأ واطلع (باعترافه) ! ؟ أليست مهزلة ان يمارس في نقده كل خلق أدبي نهى عنه ؟ ... ثم ، عبر أي منطق يتبنى تسمية نديم البيطار ملحداً ؟ ملحد ؟ بماذا ؟ حتى الآن ، وحتى يناقش الاب سعيد ويسد النقص في ما خطه زميلي وأنا ، نظل نقول ان النديم ملحد في نظره ، وفي نظر الفئة التي هاجمته بالسكاكين والرصاص فقط ... (وربما في نظرنا أيضاً لو قرأنا له ، وسنفعل)

هنالك أمر آخر يستحق أيضاً ان يناقش بعمق « الفضاء والبحار والاغوار » وهو : هل لأية سلطة دنيوية أو دينية أو فكرية حق خنق صوت مفكّر ما بتهمة الالحاد لانه لا يتفق معها ، وبحجة ان الأفضلية لها لانها (تمثل الحقيقة) وبالتالي تنطق باسمها ؟ ثم ، ان تمثل — سلطات دينية أو دنيوية — الحقيقة في مختلف اصقاع الارض وعلى مر التاريخ أو ترمز لها ، هل يعني ذلك أنها (تكوّنها وتصيّرها) ؟

بمزيد من الوضوح ، واحتراماً مني للحساسيات الدينية ، أترك الكلام للكاردينال فرانز كوينغ الذي قال في ليندواو بالمانيا الغربية :

« ان الكنيسة الكاثوليكية تعيد النظر الآن في حكمها على العالم الايطالي غاليليو الذي عاش في القرن السابع عشر » .

وقال انه « قد تقام لجنة خاصة لاعادة محاكمة غاليليو الذي عاش بين سنة ١٥٦٤

وسنة ١٦٤٢ والذي ادانته الكنيسة بتهمة الهرطقة لانه أكّد ان الشمس، لا الارض، هي مركز الكون . وأجبر غاليليو على انكار ذلك علناً تحت التهديد بالحرمان الكنسي».

وقال « ان البابا أبلغ عن جميع الخطوات التي تتخذ . »

طبعاً ، ليس المقصود بهذا الموقف ابلاغ شهادة البراءة إلى حارس مقبرة غاليليو ، أو شبحه ، أو الصاق التبليغ على رخام مقبرته .. المقصود هو تبرئة فكر من تهمة اضطهاد فكر آخر لمجرد انه لا يتفق معه بالرأي ، وفي ذلك تأكيد ديني رسمي لحقيقة فلسفية فكرية ، هي الحقيقة الوحيدة الاكيدة : « اضطهاد الفكر تحت أي شعار هو العدو الاول للحقيقة » ...

وبالتالي ، فان المفكر الحقيقي من ديني ودنيوي يستنكر احتكار حق حرية الرأي لفئة دون اخرى ، مهما كان تبرير ذلك ، وتحت أي شعار .

تستطيع اختراق الجدار ، ولكن ...

والآن ، إلى القصائد التي أحببت ... أراها بالحب نفسه : لانني لا أعـرف « الغضب الاسود » ، ولأن غضبي لحرية الكلمة هو من بعض حبي للكلمة ، وحرصي على ان لا تُجهض . واذا كنت آسفة لشيء ، فلأننا نصطدم دوماً بالحاجة إلى الدفاع عن البديهيات الانسانية (الحرية الفكرية) وإبطال الالغام المزروعة في أرضها ، بحسن نية أو بسوء نية ، بدلاً من تفرغنا للانصات إلى فنان « يجلبب بالقصائد والاغاني رأس غليونه » ...

اصطدم الشاعر الأب بالموت عبر موت جزء منه في موت صديق له غال ، هو المرحوم رئيف خوري، جعله يعيش « في جوف دوّامة اربعين يوماً ، واربعين ليلة أكتب ما يعصره المجهول علي .. وولدت هـذه المجموعة ... تجربة تحاول أن تتجاوز الموت باللغة .. ! تراني وقفت امام الجدار أم اخترقته ؟ » .. انه ليس كاهناً اكتفى بتلاوة ادعيته ، إنه شاعر يخلق لغته الخاصة ، وعبر القصائد ، مع الشاعر الفنان وحساسيته المرهفة . نحوم فوق الجدار تارة كالفراش حول المصباح برفق انتحاري، وندقّ الجدار بأظافرنا تارة اخرى ، نخرج اضلاعنا بوحشية ضلعاً ضلعـاً نحاول ان نفتح فجوة في صمته الصخري البلوري ... معه نتمرد ونـذوي ونحتج ونستسلم في انشودة لها زخم صلاة مساجين جرحى منطلقة عبر كوة السجن ..

المذهل ، روح التمرد في كلماته ، ذلك التمرد الفكري الذي يمزقه :

« أحب ان اسأل .
لان الجواب في جنازة الصمت .
لا سؤال عندي .
لان الجواب اعرج ... »

وكيف يتابع ، وكيف يتمرد وقد :

« حبسني الملاك في اعماقي .
متى اتحرر من الحضيض ؟ »

ويتساءل من جديد :

« أتبقى اللغة في صلابة الأشياء ؟ »

ولكن في لغة شاعرنا صلابة مشحونة بالايحاءات ... فيها صلابة الحلم حينما تمتزج الاسطورة بالحقيقة .. وفيها غنى من توابل المعرفة الانسانية التي يغتني بها رجال الدين عادة عبر دراساتهم الروحية ويحوّلها شعراؤهم إلى زخم انساني عتيق يضيء كزيت أول زيتونة بوركت في التاريخ ...

ويتم ذلك أيضاً عبر اشارات كثيرة ، ومزيج من أساطير توراتية وانجيلية واغريقية وعربية (برثلماوس – آجيا صوفيا – قلة دليلة – شمشون – المزمور الواحد والخمسون – قصعة هيرودس – كفرناحوم – العتبة الهابلية – دخان سادوم...) ... نجد ذلك في كثير من روائع الشعر الغربي القديم ، في ملتون وشوسر وحتى لدى شكسبير ، ونجد هناك عادة هوامش تشرحها وتشير إلى اصلها ، الامر الذي لم يمنحه شاعرنا لقارئه (حسن ظن مبالغ فيه بمعلومات قارئه وناقده) ...

في قصيدته « التحرر » حس عميق ومباشر بمأساة الانسان المعاصر ، اذ يصرخ :

« لمن تسرق الدواة ، والرفش ، وسوار أمي ؟ !
يا ضمير العالم .
فجر فقاقيع امريكا .
تحت قميص الشمس . »

وهنالك ذلك الحب الكبير للحرية ... وتوق إلى فردوسها :

« عشيرتي تبكي .
لان العبيد يلحسون قدور الحرية .

يلعقون دسم الزيت من ملعقة
لقيصر ، لفرعون ، لارملة المليك .
هل في افريقيا فردوس ؟ »

شاعر التحرر والحرية ، وكاهنها ، كيف استطاع أن يكون سجّانها ؟ أن يكتب كلمة نقد يمكن ان تكون قضيباً لقفصها ، وهو الذي استل من صدره ضلعاً ليحفر جدار الموت بحثاً عن الحقيقة ؟ ... لماذا يريد « تقليص إنسانية » نديم البيطار ولكنه يقف ضد « تقليص انسانيته » هو ؟

الثائر السجان ..

لانني وجدت في قصائد الشاعر يوسف سعيد كثيراً من التقديس للفكر الحر ، « لولا اللغة لانحبس المطر » ، ومعاناة للحظات الوعي الموجع « مشيئة اللفظ محمومة » ذلك كله جعلني اتساءل : أحقاً أن هنالك « سوء تفاهم » بيننا وبينه ؟ تراه لم يفرّق بين دفاعنا عن المبدأ الذي تمثله حادثة نديم البيطار وبين دفاع قد يكون عن آراء نديم البيطار ؟ ..

هل هو سوء فهم أم تعمد اساءة فهمنا ، كي لا يقول أكثر ؟ ... وتراه لا يريد أن يقول أكثر لانه لا يريد ان يفكر أكثر ؟ ...

لماذا حكم علي وعلى زميلي بجرم « الالحاد » وهو يعرف جيداً اننا لم نرتكبه بعد أو على الاقل لم نقر بارتكابه ؟ .. تراه يجد في اختراق الجدار إلحاداً ؟ .. انه كشاعر يستطيع اختراق الجدار لو اراد . تراه يخشى ذلك بقدر ما يريده ؟ تراه لذلك يصرخ « يا رب ، حاشا ان ألمس هدب الموت » ... تراه يخشى لعنة بروميثيوس ؟ وهل هو كالقاضي الذي يحكم على الابرياء من اجل جرم يخشى هو أن يرتكبه ؟ ولماذا يذكّرني بقصة الكاهن الذي وقف يعظ أهل المدينة بحرارة طيلة ساعات ضد ارتكاب خطيئة مميتة ، ثم تسلّل إلى الغابة ليرتكبها بنفسه ؟ . لا ادري ..

كل ما أدريه انني احببته كشاعر ، ومن أجل حبي لكلماته « المضيئة ، المعتمة ، المميتة » أفجر غضبي لها لا عليه ، غضباً كمطر الخريف ، حزين وشرس ومحب ...

صديق ، همس في أذني : الاب يوسف سعيد ولد في القطر الذي طرد نديم البيطار وأصله هناك قبل مجيئه إلى لبنان يوم هرب ذات زمن من اضطهاد فكري تعرّض له .

قد يكون في ذلك ما يفسر الكثير دون ان يُسوِّغَهُ ...

إن حرب شاعرنا ضد القوى التي اضطهدت فكره يجب الا تتحول إلى حرب ضد أي فكر غير فكره . أقول : الخطيئة لا تحارب بالخطيئة ... اعرف ان الذي (يأكل العصي) ليس كالذي يحصيها .. ولكن الشاعر ، كاهن الوجود ، مطالب بالغفران كما غفر المسيح لصالبيه ، وكما غفر محمد لراجميه ، وكما يسمو اصحاب الرسالات فوق الاحقاد .

وبعد ، سيدي الاب الشاعر : ادافع حتى الموت عن حقك في نقدي لانني ادافع حتى الموت عن حقي في ان اقول ، وان يقول نديم البيطار ، وان يقول غاليليو ، وان يقول الانبياء والاطفال ... واردد معك :

« من أنا حتى أكمّ افواه الينابيع ؟
وأكمّ اشداق القطط والذئاب ؟
حتى أخيط شفاه الاطفال
في حفلة الشعانين ؟ ... »

١٤ / ٣ / ١٩٦٩

دفاعاً عن حرية الفكر لا عنه !

كان ذلك البريق الطفولي الضاحك الذي لم ينطفىء في عينيه منذ عرفته — منذ اعوام بعيدة — يشتعل ، وضحكته تملأ وجهه المتوقد ، حتّى ظننته سيروي لي آخر نكتة سمعها ، وتحفزت للضحك . كنت حزينة حتّى الضحك . أبحث عن مبرر لأضحك ، لكنه اخرج من جيبه صورة وقال كأن الأمر لا يعنيه : هذه آخر صورة التقطت لي خلسة .. انها في سجن (....) ! ! ..

وأمسكت بالصورة ثم استحلت إلى تمثال متحجر في يده صورة تصرخ وتنزف . ثم انفجرت أضحك وأضحك كما لم أبك منذ أعوام .. كان من الصعب أن أصدق ما تراه عيناي ... قاتل ؟ لا . مهرب كوكائين ؟ لا . لكن الشعر مجزوز حتّى جلد الرأس (وربما حتّى العظم ، حتّى النخاع . يا موسى السلطة ، يا مقصلة الحرية ، ارفقي برؤوس الذين يتعاطون التفكير بحرية — وما أندرهم في بلادي —) .. أجل الشعر مجزوز والجسد النحيل الذاوي تلفه ثياب السجن .. والسجين أديب من بلدي .

مد بقية رفاق جلسة المقهى أيديهم ليروا الصورة — النكتة . كان أحدهم يتثاءب ، وكانت تمطر دماً في حلقي لذا أخفيت الصورة عن الجميع ، ولحسن حظي دخلت فتاة جميلة إلى المقهى فنسي الجميع حكاية « الصورة — العار » .. وقلت له بإصرار : هل تعرف معنى هذه الصورة ؟؟ .. كيف تسمح لإنسان برؤيتها ؟ ..

واحسستني اخفي « الصورة — المأساة » واتوسل إلى صاحبها أن لا يسمح لأحد برؤيتها كما يتكتّم أفراد الاسرة الواحدة على عار مشترك ... خجلت من ان يرى أي انسان عربي هذه الوثيقة المهزلة لرجل أُدخل السجن شهوراً من أجل « كتاب » ثم أفرج عنه بصمت ايضاً ودون محاكمة ودون تبرير ...

أهل مدينة الجذام

مثل هذه الامور (الدقيقة) تعوّدنا ان نتحاشى الحديث عنها ...

مثل هذه المهازل والمآسي تعوّدنا ان نمر بها دون ان نتدخل « نمشي من الحائط إلى الحائط ونقول يا ربي السترة » . تعوّدنا ان نرى الناس يزجون في السجون فنصلي في أظلم ركن من بيتنا شاكرين قوة ما لأن السجين هو جارنا وليس نحن (حوالينا ولا علينا) . هذه الصورة الرهيبة ظلت مدموغة على شبكية عيني وشماً من جمر ، ليس لان صاحبها أديب أعرفه ، يحزنني ان يسجن ، ولكن لأنني مواطنة أحسست أن السلطة التي تحكم باسمي وباسم باقي الشعب قد استخفّت بي ..

لم يمزّقني أن يُسجن هذا الكاتب بقدر ما مزقني أن يُطلق سراحه بلا محاكمة وبعد سجن شهور !! ..

أن يُحاكم ، وأن تثبت إدانته أمر يمكن أن يحدث لأي مواطن في أية دولة ..

أما أن يملأوا صدره بالنياشين باسم الشعب أي باسمنا ثم ينزعوها ويسجن عدة أشهر أيضاً باسم الشعب (أي باسمنا) ثم تفرج عنه السلطة باسم الشعب أيضاً دون أن تحس السلطة بالمسؤولية ، أمام ذلك الشعب ... بواجبها في اعطاء تفسير على الاقل أو أصدار بيان فذلك يدين تلك (السلطة) ... لم يفجعني أن يدان أو لا يدان بقدر ما فجعني ان في تلك الحادثة – التي تصادف انه بطلها – ما يدين (السلطة الثورية) التي قامت ثورة من اجل الحرية وها هي تقدم أكثر من دليل على استخفافها بنا ، وتدمغ مقصلتها التي نصبتها باسم الحرية ، بدم رأس الحرية ! ! ..

في بلدان العالم غير المتخلف حيث الإنسان ، أي إنسان – حتى المجرم صاحب السوابق – قضية . في تلك البلدان يحق للفرد أن يُقاضي السلطة اذا تم توقيفه أو سجنه على ذمة التحقيق ثم ثبتت براءته ... ويحق له المطالبة بمحاكمة عادلة حتى ولو كان قاتلاً .

عندنا . لا يملك الانسان حتى حق الطلب بتقديمه إلى المحاكمة !! ... كافكا حينما كتب « المحاكمة » وروى « مأساة الانسان المحكوم بلا جريمة » على انها ذروة المأساة الوجودية ، لم يدر بخلده أن هنالك نمطاً من الظلم أشد هولاً ، يدور في بعض اقطارنا العربية دون أن يعيره أحد ما يستحقه من التفات ، ألا وهو حجز حرية انسان وسجنه وادانته سلفاً بتهمة لا يعرفها ولا يُبَلّغ عنها ولا يقدم إلى المحاكمة بسببها مهما توسل لأجل ذلك !! ... كافكا تحدث عن مأساة رجل حوكم ثم أخذه الجلاّد إلى المقصلة ليموت « ميتة كلب » بجريمة لم يرتكبها على أنها ذروة المأساة الانسانية ...

لم يدر بخلد دانتي حينما وصف الجحيم في الكوميديا الإلهية ان يتحدث عن أشد أنواع الاذلال التي يمكن ان يتعرض انسان له : ان يسجن دون أن يحاكم . ان يموت

أكثر من مرة كلما أُطلق الرصاص ذات فجر بارد في فناء السجن على رجل ما ..
وأن يُحرم من حقه حتّى في الادانة ! ! ..

وأخفيت الصورة ، دفنتها في أحد المعاجم كي أضمن عدم التقائي بها ولو مُصادفة..

وقررت أن أنسى الصورة العار ، وأصمت ، كما اعتدنا ان نفعل جميعاً .. ذلك الصمت الحزين الشاحب اللامبالي ، صمت أهل مدينة اجتاحها الجذام والطاعون حتّى لم يعد يستوقف عابري السبيل مشهد انسان تتساقط اعضاؤه أو يحتضر على الرصيف عند موقف الباص متشنجاً مصلوباً على أحد أعمدة الكهرباء .. حتّى المصباح الشاحب لم يعد يرتجف نوره ! ..

ومرّت الايام .. وأنا أسوّر مشاعري بما تواطأنا عليه ضمناً : « تلك أشياء لا تقال» اصمتّي يا بنت .. ولكنني فشلت .

الأشياء التي لا تقال « لا مفر من أن تقال » !

١٩٦٩/٣/٣١

جريمة أن تفكر علناً !

هنالك مأساة فكرية طالما تهربت أكثر السلطات العربية (من رجعية وثورية على السواء) من مناقشتها رسمياً ، وصار مفهوماً لدى الجميع انه من الافضل للاطراف المعنية (من ادباء وصحافيين) تجنّب طرح القضية التالية :

من حيث المبدأ ، هل يحق لأية سلطة حاكمة ان تضطهد مفكراً ما لمجرد ان افكاره لا تنسجم – أو لا تتطابق – وشعاراتها ؟ ...

وإلى أي مدى يحق للسلطة ذلك ؟

هذا السؤال لم تبق أمة لم تطرحه ، ولم يمر عصر دون أن يسقط الكثر ضحية له .

وقد استطاعت الشعوب الأقل تخلفاً ان تتجاوز المأساة – نسبياً – ... وغاليليو الذي اتهم بالهرطقة منذ قرون ، لانه أصر على أن الارض هي التي تدور حول الشمس ، وليست محور الكون ، غاليلو هذا قد برّأته الكنيسة في العام الماضي ! ...

أما في بلادي ، فما نزال نعيش بعقلية القاضي الوزير ابن الزيات في العصر العباسي الغابر .

فقد أقنع هذا القاضي الخليفة ببناء قفص فرن ليشوي فيه خصومه (الفكريين) أحياء ! !

وجاءت الردة أو لنقل (بلغة عصرنا) وقع (انقلاب) اطاح بسلطان ابن الزيات وجاء إلى الحكم بخصمه اللدود القاضي أحمد بن أبي دؤاد ..

وانتقم ابن ابي دؤاد من خصمه ، وبالاسلوب ذاته .. وتم شوي ابن الزيات في الفرن حتى الموت (الفرن الذي كان قد افتى ببنائه لحرق خصومه) ...

عصور وعصور ... وكل خصومة فكرية في بلادي ما تزال تحل على طريقة ابن الزيات وابن ابي دؤاد ...

تلك هي مأساة الفكر العربي التي عجزت حتى بعض أقطارنا (الثورية) عن تخطيها ...

المطلوب ايقاف مأساة ابن الزيات وابن ابي دؤاد وافران الفكر في بلادي .

وحتى النهاية ، أظل أردد قول فولتير الرائع : « انني لا اوافقك على كلمة مما تقوله ، لكنني ادافع حتى آخر قطرة من دمي عن حقك في أن تقوله » ...

٢٢ / ١١ / ١٩٦٨

الحرية ! الحرية !

« ان المواعظ لا تقنع أبداً...وان ندى الليل البليل،ليغوص أعمق منها في نفسي ، والآن أفحص ثانية الفلسفات والاديان ، وهذه قد تبرهن على وجودها ، في قاعة المحاضرات ... ولكنها لا تبرهن ذلك على الاطلاق،تحت الغيوم الرهيبةالفسيحة » .

و. ويتمان

وفي ليل هذه المرحلة من تاريخنا العربي — ربما أكثر من أي وقت مضى — ، يجد الفرد نفسه مرغماً على « اعادة النظر في الفلسفات والاديان » ومنطلقاته كلها ، وحتى البسطاء « لم تعد المواعظ تقنعهم » ، واذا كان « ندى الليل البليل » و « الغيوم الرحيبة الفسيحة » قد دفعا بالشاعر ويتمان إلى لحظة « اعادة نظر » صوفية ، فان واقعاً اليماً معاشاً هو ما يلزم مئة مليون عربي لإعادة النظر، مئة مليون ليسوا مفروشين تحت « تلك الغيوم الرحيبة الفسيحة » فحسب ، بل وتحت سقوف سجونهم أو في معتقلات الاحتلال ، أو في ظل انظمة تقنعهم أو لم تعد تقنعهم ، ويجمع بين ذكيهم وساذجهم، ثوريهم ورجعيهم احساس عام مسترسل بأن الارض تحت اقدامهم جميعاً لم تعد صلبة ، وبأن صحراء من الرمال المتحركة قد امتدت فجأة من المحيط إلى الخليج ، وان رملها المتحرك بدأ يبتلع كل شيء ، يغوص فيها السجان والسجين على السواء ... القاتل والمقتول ..

قابيل وهابيل

فماذا حدث ؟؟ ... وكيف ضاعت المرافىء والمنارات والاوتاد ، وعمّ ذلك الحس العام بالفجيعة المذهولة ، بالحماس المشتت ، بالقلق . الحيرة . الخــوف . الحذر ؟ .. بالحاجة إلى التبديل . إلى صرخة « لا » أمام سقوط جماعي في صحراء الرمل المتحرك التي انفتحت تحت قدميه منذ فقد يقينه بكل شيء ؟ .. زلزال ؟ أم سلة زلازل ؟ البركان الاخير ، « تهديد اسرائيل » لخبزه وبيته بغزو مسلح قد لا

يقوى على رده ؟ صفارة الانذار ، النكسة الاخيرة ؟ .. تصاعد وتراكم عوامل متشابكة لا تحصى ؟

« لا » أولاً وآخراً

كلٌّ يصرخ « لا » وعلى طريقته . وضمن حدود امكاناته الفكرية وغير الفكرية. جيلنا الطالع يصرخ « لا » بسلبيته وبايجابيته . طلابه يقذفون « لا » حجارةً على (زي) رجل الشرطة الذي يمثل لهم (المنطق الرسمي) في التصدي للامور ، منطق (الكبار)..

العامل يزداد احتضاناً لكتابه (الاحمر)،الموظف لزجاجة خمره الرديء ونعاسه. سرحان الفلسطيني يفجر « لا » رصاصةً في الرأس « الاميركي البشع » ممثلاً له في كنيدي .

وحتى « المؤمن » الذي كان يختم صلاته بالدعاء للسلطان أيا كان بالنصر . وينبيه بأن يصرخ « لا » عنه (ما دام يحمل اوراق اعتماده من السلطات الالهية والذي علمه من « أعقلها وتوكل » ان يتوكل فقط !) ، حتى هذا الرجل الذي كان زيادة في الاحتياط يكتب على باب بيته المجاور للمسجد الاقصى في القدس أو الجامع الاموي بدمشق « الملك لله » لم يعد بوسعه ان يكتب على باب خيمته « الملك لله » ...

لقد تكسرت الدروع القديمة التي كان الفرد العربي يستر بها (عورات) تخاذله وسلبيته ، وحتى الدروع (الجديدة) التي قاتل ليرتديها ، بل وليرغم سواه على ارتدائها ، لم تؤت أكلها ... حتى هذه الدروع ، (لخطأ ما) في طريقة صنعها أو طريقة ارتدائها واستعمالها قد انقلب سحرها .

أين صوت الأديب ؟

وفي مثل هذه المرحلة بالذات حينما يصبح الخبز مراً ، والبندقية تصيب مطلقها بدل الهدف ، تصبح الحاجة إلى « الكلمة الحرة الصادقة » امراً أهم من الخبز والبندقية، لأن الاديب وحده قادر على ان يفسر حقيقة « اللعنة » ، ولأن مفكري الامة قد يكونون مقعديها ، لكنهم مبصروها (بمعنى البصيرة) ، ولذا فانه من الضروري ان لا يتخلى الثوار المشاة المنفذون الاشداء ، عن مفكريهم المقعدين ، انما المبصرون . (حتى ولو كانت الحجة هي استبدالهم برغيف أو ببندقية) ..

فالتاريخ العربي لم يثبت شيئاً بقدر ما اثبتت احداثه المتعاقبة منذ قرون حتى اليوم

ان حاجة الفرد إلى اديب هي اهم من حاجته إلى الخبز المر وبندقية فاسدة السلاح ، وان « ساحر القرية » العتيق ليس الا صورة رمزية بدائية « للأديب » ، الذي يشخص « اللعنة » و « العلاج » للخبز وللبندقية .

وبعد ، الأديب الحر هو بوصلة الحاكم لأنه حنجرة المحكوم . . . والحيلولة بينه وبين حريته أمر يلغيه ، ويلغي أهمية شهادته وصوته، وإذا كتمت الدولة هذا الصوت فلن يعود عليها إلا بالخسارة ، وهي هنا كالذي يضع عصابة على عينيه برضاه كي لا يرى وانه (لا يخشى هذه الحرية إلا واحد ، هو غير الحكيم . وبُعد الحاكم عن الحكمة انما يُقاس ببعده عن حب حرية الرأي ــ نجيب محفوظ) .

٢ / ٨ / ١٩٦٨

عاقبوه بقسوة ، ولكن بعد محاكمة علنية عادلة

في بلادي ، في بلاد البسطاء ، تقول أمثالنا فيما تقول « نحن مع الواقف » و « من يتزوّج أمي يصير عمي» ، وتصفق أيدينا لمن في يده السلطة، ثم تحمل الخناجر ملتفة حوله متى سقط ..

وهكذا ليس للحاكم عدو ..

وليس للخارج من الحكم صديق ..

وهكذا وكاتب زميل في السجن، لم يعلُ صوت من أصوات أصحابه أو اعدائه ليقول كلمة واحدة من أجل حرية الفكر لا من أجله ، والذين لم يسلّوا سكاكينهم اكتفوا بالصمت .

لا حباً مني بشخص السجين أكتب الآن عنه ، وانما ككاتبة عربية قرأت ذات يوم له وقدّرته لمؤلفاته الموضوعة والمترجمة التي أغنى بها المكتبة العربية .

ذلك كله ، يجعل من التهم التي توجه اليه أمراً خطيراً لا يغتفر — لو صحت — ويدفعنا بالتالي إلى المطالبة :

١ — بمعاملته معاملة انسانية كريمة في السجن،فكل متهم بريء حتى تثبت ادانته.

٢ — بمحاكمته محاكمة عادلة وعلناً لأن أي تدخل لصالحه أو ضده من أجل طمس قضيته أو طمس حياته ، سيدين نهائياً (وفي عيون كل مثقف عربي) السلطات الحاكمة؛ ويجعل من شائعات الشراكة في (دفن الشيخ زنكي) حقيقة مؤكدة من طرف واحد ، هو الطرف المتكتم والذي بيده الاختيار : السلطة ..

٣ — هذه فرصة ترد فيها السلطات لمواطنيها ثقتهم بعدالتها وحيادها . وباحترامها للفكر ولحرية الكلمة وللمواطن : لحقّه في المعاملة الانسانية والدفاع عن نفسه ، بقدر حقها في صرامة العقاب بعد إدانته .

١٦ / ٥ / ١٩٦٦

همسات سرية ، لأجل حرية للفكر علنية !

كان كل شيء يدور كما هو مرسوم له .. الممثلون على المسرح يتابعون أدوارهم. المتفرجون فوق مقاعدهم في الصالة . وزجاجات المرطبات الفارغة تحتها ..

ثم فجأة ، اضطرب كل شيء .. انتقلت الزجاجات الفارغة والمقاعد إلى خشبة المسرح قذائف موجهة . وهرب الممثلون إلى ما وراء الكواليس ، وعلا الصراخ ، وهرع مدير المسرح إلى مكبرات الصوت يناشد المتفرجين الناقمين ان يغادروا القاعة ليستمر العرض .

لم يقع هذا الحادث على مسرح من مسارحنا كما قد يتبادر إلى الاذهان ، وانما كان من نصيب مسرح – الاوديون – في فرنسا ، اثناء تقديم مسرحية جان جانيه « الرداء » .. والمسرحية تدين فرنسا في حربها مع الجزائر وتسخر منها ..

مثل هذا الحادث لا يمكن ان يقع أبداً في أي بلد عربي ، لا لوعي المتفرجين – طبعاً – ولكن لأن أكثر السلطات لا يمكن ان تسمح بطبع أو تمثيل مسرحية أو قصة قد تحمل تعريضاً مباشراً أو غير مباشر بها أو بسياستها . انها حقيقة لا مفر من الاعتراف بها – كخطوة اولى – قبل مناقشة مدى ضرورتها أو شرعيتها ... الكاتب العربي ليس حراً في أكثر الاقطار العربية ..

إذا تجاوزنا الضغوط الاجتماعية والتاريخية وضغوط بيئته ورواسبه الذاتية ، نجد انه يتعرض أيضاً إلى ضغط واضح مباشر ، هو ضغط السلطات الحاكمة ... ففي أكثر من بلد . تتعرض الكتب أو المقالات التي جرؤ أصحابها على تسطيرها ، إلى المصادرة أو القص أو المنع من دخول مكان أو آخر (هذا في حال السماح بنشرها) ... وللسلطات أيضاً اعذارها التي تقدمها ، منها أن الكاتب عميل – وقد يكون ذلك صحيحاً احياناً – أو ان كتاباته تسيء – من وجهة نظر الحاكم – إلى افكار الناس ..

وقد ألفنا ذلك في بلادنا حتى كدنا نعتبره جزءاً من مسلماتنا التي لا تناقش ..

ومع ذلك ، فالنقاد يشكون من الكتب الجنسية التي تـُغرق الســوق .. والقراء يشكون من تفاهة الكتاب .. والمثقفون يشكون من ضحالة ما ينشر وافتقار أدبنا العربي إلى الادب الساخر ، والعلمي الخرافي ، والخلاق الجديد .

كلهم يشكون من الكاتب ...

ولكن الكاتب عاجز عن تقديم أهم بند في الدفاع عن نفسه : هو انه محكوم عليه بالتفاهة اذا كان يريد ان يعيش غير مطارد من قطر عربي ما .. وأنه محكوم عليه بان لا يطرق الموضوعات المصيرية بصدق وتجرد ما دام عاجزاً عن استئصال معدته فيما لو جاع ... وما دام مضطراً أولاً أو آخراً إلى الرضى ببيع قلمه الذي كان حراً إلى سلطات اخرى تستضيفه وتحميه ، وربما كان يحمل لها كثيراً من (اللااحترام) ، وربما كانت له عليها نفس مآخذه على السلطات الأخرى التي تجرأ وهاجمها ...

شيء واحد تمنيت أن أقرأه في بيان وزاري يصدر في بلد عربي.. إنه اطلاق حرية الفكر والسماح للمثقفين بالكتابة في الموضوعات المصيرية، بل استفتاؤهم والاهتمام بآرائهم ..

فقد صارت التفاهة (الشيك) الوحيد الذي يمكن صرفه في أي مكان .. وصارت السطحية واللامبالاة بالاحداث تأشيرة الدخول الوحيدة إلى عالم الطمأنينة الاجتماعية والسياسية ..

وعذر السلطات الدائم في (توجيهها) للفكر هو عدم نضج الشعب العربي بعد وخوفها من (غوغائيته) ... انهم في بلادنا يمنعون الفكر باسم الغوغائية .. وهم هناك يمنعون الغوغائية لحماية الفكر ...

البوليس هناك يحمي المسرح والمسرحية ، والبوليس هنا موجود ليمنع الفكر باسم تربية النشء وتوجيهه ..

ترى كيف يتخلص الناس من الغوغائية ما دمنا نمنعهم من قراءة أي شيء سوى التفاهة ؟ ...

هذه الحلقة المفرغة ، من سيكسرها في بلادنا ، موطن الديانات والافكار الجديدة؟

١٩٦٦/٣/٧

على حد المقص .. !

قرأت في احدى المجلات رسالة موجزة لقارىء أوجز اسمه ، يحتجّ فيها على مقص الرقيب ، الذي يحرمه أحياناً من بعض الصفحات ..

رسالة صغيرة مجهولة ، حرّكت – ربما دون أن يدري صاحبها – السكين المغموسة في حلق كل كاتب أصيل في بعض الاقطار العربية ، يبدأ متماسكاً صادقاً مفعماً بالآمال ثم ينتهي ممزّقاً متخبطاً ، ضائعاً بين مُثُله وواقعه ، مفجوعاً بوباء الازدواجية العام ، الذي يكاد يستولي عليه .... ينتهي إما بالسقوط في التفاهة أو الصمت .

التفاهة أو الصمت قدر الأديب في بلادي ... لماذا ؟ ...

لأنه ليس مقص الرقيب وحده هو الذي يمعن في تمزيق الكلمات التي لا تنسجم وآراءه ، هنالك عشرات المقصّات الأخرى التي تمر بها الكلمة في بلادي في طريقها من حنجرة الكاتب إلى قلب القارىء ...

هنالك درب من المقصّات ...

فالمفجع ان عالمنا العربي يمر بمرحلة من تمييع القيم والمفاهيم والتناقضات ، والرياء الاجتماعي – إلى جانب التعنت الفكري الاستبدادي في بعض الاقطار، مما يجعل التفاهة هي الشيء الوحيد الذي يلقى قبولاً جماعياً .

التفاهة هي القاسم المشترك الوحيد تقريباً الذي تفتح في وجهه الابواب .... والذي لا يلقى ردة فعل ... ومع ذلك فنحن نسمع من وقت إلى آخر صرخات احتجاج على تفاهة ما يُكتب . أو قصائد رثاء تنعى أدباء عرباً بدأوا كباراً ثم كفوا عن العطاء واختاروا الصمت على التفاهة ولم يجدوا درباً ثالثة ... اننا نبكي ادباء قتلناهم وهم أحياء ونرفض ان نرى كيف غرسنا الخناجر في حلوقهم ...

يبدأ الكاتب بصرخة كبيرة فتية في حلق ما زال مزروعاً بالبراعم : « سوف أقول ولو كلفني ذلك حياتي ... سأقول دوماً الحقيقة » ... ثم يكتشف انه لا يستطيع

أن يقولها حتى ولو دفع حياته ثمناً !! .

انه سوف يموت على رصيف بارد وسوف تتجمد الكلمات في حلقه وتنطفىء قبل أن يسمعها أحد ... ثم تضيع عنه الحقيقة .. ففي درب المقصات هنالك أكثر من مقص اعمى واطرش ، يحمل الصفات نفسها التي يحملها ذلك الوحش الاعمى الاطرش الذي سماه شكسبير : « المجتمع » !..

في البداية يكتشف ان عليه القيام بمحاولة «تكيّف» مع رغبات الناشر كي يجد كلماته في صيغة حبر وورق... والناشر بحاجة إلى التكيّف مع ارشادات حسابات المبيعات .. وحسابات المبيعات تدخل فيها عشرات من الاعتبارات السياسية والاجتماعية .. وعشرات من الاعتبارات التي ربما ما كتب الاديب إلا احتجاجاً عليها أو على انحرافها أو عقمها ... ثم يكتشف ان القضية ليست مجرد « تكيّف » اختياري ... ثم يكتشف ان المقصّات انتقلت إلى داخله ، ان عشرات من عيون الآخرين تتفتح على لسانه كالقروح ، ترقبه بينما يكتب ، عشرات الألسن التي طالما احتقرها تتدلى كالسياط على أكتافه ، تزجّ باصواتها مع صوته ...

وحينما يتمرد ، يكتشف أن هنالك مقصاً آخر ولد معه : معدته ! .. ويكتشف ان أولى مآسي الاديب هي انه لا يستطيع استئصال معدته ، ولا يستطيع استئصال نفسه تماماً من مجتمعه .. وان المعركة لن تهدأ الا اذا قبل بمساومة أحلى اسمائها « الحياد السلبي » واصدق اسمائها « التفاهة » ...

البطولة الوحيدة التي تبقّت للأديب في بلادي في هذه المرحلة ، ليست في النصر ، وانما في الاستمرار أطول مدة ممكنة قبل السقوط النهائي في الازدواجية ، أو الانضمام النهائي إلى مدجنة المجتمع ، أو رشوة الذات بقناعات زائفة لمجرد انها تلقى الرواج في سوق المهازل الكبرى ...

انه محكوم بالصمت سلفاً ، وكلماته محكومة بالعبودية لمغاور دامية في رئتيه .

ومع ذلك ، فلنصرخ ولو لمرة ، ولنسقط بعدها على جرف الصقيع المعتم .

١٢ / ١٢ / ١٩٧٣

خوفنا على الحرية أكبر من خوفنا على السر !

أكتب هذه الكلمات صباح الاربعاء ١٢ كانون الأول، والمطر يرسل خراطيمه بعنف، وعبثاً يغسل عن قلوبنا ما علق بها طيلة الاسبوع الماضي من مخاوف وقهر وحقد ... (أجل حقد هي الكلمة) ، وربما كان المطر يدلف من سقف سجن الرمل، ولعلّ الصحافي السجين (....) يحرّض الآن سائر السجناء على العمل لاصلاح السقف، (حاول قبل يومين طلب كميات من الدهان ليعمل والسجناء على دهن السجن وطبعاً رُفض طلبه لان كل محاولة للتخفيف من بشاعة هذا العالم مرفوضة ولان مصير الذين يحاولون ذلك هو السجن) ...

* * *

ما أود قوله للحكم هو أن الرجوع عن الخطأ ليس فضيلة ! الرجوع عن الخطأ واجب ! ...

فسجن الصحافي (.....) ليس قضية شخصية . ولا قضية لبنانية ، بل قضية تنكأ جرحاً عربياً وتاريخياً في قلب كل مثقف لا يزال يطمح إلى ان يمد بأصابعه الهشّة إلى افق الفكر العربي المعتّم في بعض الاقطار ليدفع بشمس الحرية، أي الجمال أي الخير والمحبة والايمان ، إلى البزوغ ، دون أن يمتد سيف الجلاد ليقطع أصابعه !

ان سجن أي كاتب بجريمة ممارسة حرية الفكر يطلق في عيوننا تاريخ المفكر العربي مع بعض حكامه مثل شرارات تعذيب يرتجف لها جسدنا قهراً وغضباً وحقداً . ذلك التاريخ كان غالباً موجعاً ، وكان صدر الحاكم العربي يضيق مراراً بعصافير عقل المفكر الباحثة أبداً عن أفقٍ جديدٍ ورؤى جديدة .

الفظيع في لعبة قمع الحرية هو أنها مثل لعبة (الاستغماية) لا تميّز بين أصحاب

الاتجاهات المختلفة ، ومن هنا كان تضامن اعداء الصحافي (....) معه قبل اصدقائه – ووقوفهم مع قضيته ليس واجباً فكرياً فحسب ، بل هو أيضاً نوع من النرجسية أو الأنانية أو بُعد النظر ، قبل ان يمر بهم سيف الجلاد المعصوب العينين .

متى يفهم لبنان ان في البلاد العربية كلهـا شواطىء وشمساً مشرقة وأرزاً وثلوجاً وفنادق وكباريهـات ونساء جميلات وكبّة وتبولة ولكن معجزة لبنـان الوحيدة هي الحرية النسبية التي ننعم بهـا (أو نتوهّم ذلك) ، ولذا كان لرمال لبنان وجبـاله ونسائه ومائه وهوائه طعم آخر ... وبدلاً من ان يطعّم لبنان بالحرية أشجار القهر في أكثر البلدان العربية الأخرى ، نخشى ان نقول ان العكس بدأ يحدث ! ...

* * *

في اللحظة التي تقرأون فيها هذه الكلمات قد يكون صديقنا الصحافي مطلق السراح (أم تُراني متفائلة كالاطفال ، أجهل عوالم الكوابيس المتربّصة بنا جميعاً ؟) وقد لا يكون ...

ولكننا لن ننسى أنه قد سُجن ، والرصاصة التي تطلق لا تستَرد ، فضعوا اشارة استفهام واحدة والف اشارة تعجب ولنبدأ صفحة جديدة هي صفحة الحقد .

لنبدأ من الأهم : إن خوفنا على « الحرية » هو أكبر من خوفنا على « السر » إن كان في الامر سر ! ... وخوفنا من اساءة استعمال النص القانوني وتسخيره لتقييد مفكر ما ، أكبر حتى من خوفنا من العيش بلا قانون تحت لواء شريعة الغاب حيث يتم الاعتداء علينا باسم الاعتداء السافر لا باسم الشعب .

وربما كان مكسب الحكم الوحيد من هذه الخطيئة هو أنها أنستنا خطاياه العشر السابقة الأقل خطورة من خطر تهديد حرية الفكـر ... واذا كان المقصود دفع فواتير سياسية على حساب رفيق قلمنا، فليتم ذلك خارج معبد حرية الكلمة ودون المساس بمقدّساتها .

هنالك أشياء كثيرة تدور في الظلام نجهلها ونعرف اننا نجهلها ، ولكنني أعرف شيئاً واحداً : اذا تم اجراء استفتاء شعبي ، وطلب إلى المواطنين ان يسجلوا أسماء

اعدائهم الحقيقيين الذين يشتهون ان يغسلوا المقصلة بدمهم، ترى هل يكون على هذه القائمة اسم واحد من الموجودين داخل سجن الرمل ؟! . . .

* * *

إننا نصرخ بكل كبتنا التاريخي لحرية الفكر (الذي يفوق لدى العربي كل كبتٍ آخر) : أطلقوا سراحه ، وأطلقوا الحكم من سجن هذه الخطيئة المتدلية من عنقه مثل طائر المحبة الصريع (الألباتروس) في اسطورة «البحار العتيق» لكولريدج ! ...

١٩ / ٥ / ١٩٧٤

أطلقوا سراح حريتنا !!

اليوم ينقضي شهر ونيّف ، وزميلنا (.....) (*) في السجن .

مثل حصان بري نقي ، عبثاً يحاولون تدجينه ووضع اللجام المناسب في حنجرته وكتم النبض الحقيقي لقلبه ..

وحين جرّوه من زنزانته منذ يومين ليمثل امام المحكمة ، كان ما يزال صامداً ضد كل أساليب غسل الدماغ ، وكان يرى بوضوح ، كما نرى جميعاً ، أن توقيفه إهانة للصحافة وإذلال لكل حامل قلم ، وان حكاية « التوقيف الاحتياطي » المتسلطة على رقابنا جميعاً مثل مقصلة ، يجب أن تنتهي .. اذ يكفي ان يعبس أي حاكم في مقعده الهزّاز حتى تهوي المقصلة على عنق الكاتب الذي عكّر مزاجه ، سواء كان ذلك الحاكم على حق أم لا ..

* * *

وحين جرّوه من زنزانته منذ يومين ليمثل أمام المحكمة ، رفض ان يتكلم وهو موقوف كما رفض السماح لمحاميه بالمرافعة عنه .

كلنا نتحدث عن ضرورة إلغاء قانون التوقيف الاحتياطي للصحافيين ، لكنه هو لم يكتف ــ مثلنا ــ بالأقوال ، وانما كان سلوكه في المحكمة تجسيداً عملياً لأقواله .. وهو أمر قد يدفع ثمنه غالياً . لكن تحويل الافكار إلى سلوك معاش هو الوسيلة الوحيدة للتبديل ، ولغسل البشاعة عن وجه وطننا ..

« ان شيئاً لا يتحقق ، لا لسبب إلا لأنه ليس هناك من يجرؤ على ان يتبع مبادئه حتى النهاية. ان كل ما هو مطلوب ان نكون منطقيين حتى النهاية ومهما كان الثمن» ــ البير كامو .

(*) زميلنا (....) هو شخص آخر غير زميلنا (....) المذكور في المقال السابق بهذا الكتاب ، وقد حذفت الأسماء زيادة في التذكير على أن السجين أياً كان هو حرية الفكر التي لا تقبل مساومـــة .

وزميلنا السجين من الرجال القلائل في وطننا الذين اثبتوا عملياً اصرارهم على اتباع مبادئهم حتى النهاية . وفي اصراره على عدم الكلام احتجاجٌ على « لامنطقية » التوقيف الاحتياطي وتوكيد عملي لقناعاته، مهما كان الثمن .. والثمن بالطبع اعادته إلى السجن ، السجن ، السجن ، السجن .

* * *

هو مسجون ..

ونحن نكتب عن النجوم والاشجار والعصافير .. الاشجار مشانق ، والنجوم فقاعات ، والعصافير أكاذيب تطلقها الغيوم ما دام ممنوعاً كل من يحاول التحليق في فضاء الحرية . ممنوع استعمال الاجنحة إلا وفقاً لشارات مرور علقتها « قوى خفية » في درب تحليقنا . وكل من يحاول التحليق – عكس السير – يُعاقب بقص أجنحته أو إحراقها .

ألا يعرفون أن الأجنحة كالمخلوقات الاسطورية ، وانها حين تقص لمرة ، تنبت من جديد قوية كجذوع الشجر وشرسة كالحقد ؟ ..

المأساة أنه حين يُسجن شخص ما يقف معه الذين تربطهم به صداقات ويقف على الحياد السلبي الذين لا تربطهم به معرفة . المهم هو القضية التي سجن لأجلها هذا الرجل الذي لا أعرفه أنا أيضاً . هذا الرجل مسجون لاجلنا جميعاً . قضيته هي قضيتنا .. صراصير السجن التي تفور حوله تنتظرنا ، ولكل واحد منا دوره .. وفي هذه اللحظة التي أخط فيها هذه السطور قد يكون هنالك موظف ما يحرر مذكرة بتوقيفي وزجّي في السجن – توقيفاً احتياطياً – سواء كنت سأدان فيما بعد في المحكمة أم لا .. هذا ينطبق عليكم جميعاً . ومع ذلك مـــا نزال نحن حملة القلم نمر بالزميل المسجون كما لو انه شخص آخر . هنالك جزء منّا مسجون مع زميلنا ، وهذا الجزء اسمه « كرامتنا » وهي كلمة كانت تعني شيئاً ذات يوم . انه « نحن » . انه « الانا » . واذا كنا قد فقدنا القدرة على تحسس القضايا العامة ، وعلى اعتبار قضية زميلنا قضية «الحرية الصحافية» ،فلنقف معه من أجل أنانيتنا نحن ومن أجل مصالحنا الفردية الصغيرة، فكل واحد منا هو « مرشح سجين » .

فلتصب حروفنا بالشلل ، ولتسقط أقلامنا مغمى عليها فوق السطور – الاسم الرسمي لذلك هو الاضراب ، أليس كذلك ؟ – .. ولنصرخ معه : لا .. ولنصرخ : أطلقوا سراح حريتنا . وبعدها حاكموه وحاكمونا وفقاً للقانون .

١٩ / ١١ / ١٩٧٣

لبناني في الحرب

قتل خليل حسون . ع اخته خديجة لانه ضبطها متلبسة بجرم الذهاب إلى السينما ! ابنة الثامنة عشرة توسلت إلى شقيقها ان يصطحبها إلى السينما في ثالث أيام عيد الفطر لترى دريد لحام في فيلم « غوار الطوشي جيمس بوند » ، ولكن « غوار الطوشي اللبناني » رفض طلب اخته وذهب وحده ، وبينما هو خارج من السينما شاهدها تغادرها أيضاً فهاجمها بسكين الجهل وصرعها ... وأُزهقت روح إنسانية لمجرد أن صاحبتها الصبية الصغيرة كانت مخلوقة طبيعية جرمها الوحيد أنها ، كشقيقها ، تحب الذهاب إلى السينما !

ومنذ أسابيع ، ذبح شاب بيروتي أخته لان عريسها العجوز اتهمها بسوء الاخلاق ومصاحبة العشاق . وشُرِّحَتْ جثة العروس المقتولة في آخر (شهر العسل) والمتهمة بالفسق ، فتبيّن انها عذراء !

عشرات الجرائم ، عشرات الامثلة التي لا تخلو منها يوماً صفحات الجرائم ... والذي يلفت النظر فيها أن الشك ، مجرد الشك العابر التافه ، صار كافياً لارتكاب جريمة القتل ! لماذا ؟ لأن القانون بخصوص « جرائم الشرف » مطاط ، ولأنه بداعي « الاسباب الاخلاقية المخففة » يخرج كل مجرم من هذا النوع من السجن بعد شهور وعلى رأسه أكاليل الغار !

والذي يلفت النظر في جريمة خليل حسون . ع هو سنه ... انه في الخامسة عشرة من عمره . يده فقط غرست السكين في صدر أخته . إنه الأداة ولكنه ليس القاتل . القاتل الحقيقي هو المشترع الذي سن قانون « جرائم الشرف » بقصوره المرعب عن استيعاب واقعنا العصري . والقاتل الحقيقي هو مجتمع هذا الصبي ، وأسلوب تربيته وزرع المعلومات الخاطئة في رأسه ، وتحديد الهدف الخاطىء لغرس سكينه . فحينما يرتكب صبي في الخامسة عشرة من عمره جريمة قتل ، فالقاتل هو اسرته ورفاقه

ومدرسته ومجتمعه الصغير ... القاتل هو سلطة العادة والتقاليد والمفاهيم الخاطئة المتوارثة!

ولن أكرر هنا مطالبتي للدول التقدمية والثورية والمقاتلة العربية بتعديل القانون واعتبار ما كان يدعى « جرائم شرف » جرائم عادية تخضع للنصوص الزاجرة القاسية التي تشمل الجرائم الاخرى ، لانني سئمت سماع صدى صوتي الصارخ في وديان الصمم ...

ولن أقول لسيدات الجمعيات النسائية إن كل ما يتبجحن به في الاحاديث الصحافية عن « حرية المرأة وتحررها و ... و ... » هراء ، ما دامت المرأة لا تملك حق الحياة والحرية في القانون ، اسوة بالرجل ، ولا حق السفر دون موافقة « ولي الامر» ، ولا « حق الخطأ » الذي يملكه الرجل ، لانني أعرف ان أكثرهن لا يبالي حقاً بذلك كله ، والمهم لديهن قشور الحرية ومظاهرها من حفلات وصور وثياب عصرية يرتدينها ناسيات الخلخال في اقدامهن ! ..

ولكنني أتحدث عن خليل حسون ، القاتل ابن الـ ١٥ سنة ، لأؤكد دور التربية الخطير في سلوك الانسان ، ولأوضح دور المجتمع وتقاليده في دفع الانسان إلى القتل والموت .

هذا ليس وقته ؟ !

هذا زمن الحرب ، والجرائم الفردية لا تهم ؟ !

بل هذا وقته . ولانه زمن الحرب أتحدث عن خليل حسون . اتساءل بحرقة : لماذا تقاليدنا في لبنان تربط الشرف بجسد المرأة ولا تربطه بجسد الارض ؟

لماذا نربي أولادنا في البيت والمدرسة والشارع على فكرة ان المُحرَّم الأكبر هو عرض المرأة لا عرض الارض ؟

هذا الصبي ، الذي دُفع إلى ارتكاب جريمة عبثية لا فائدة منها لأحد ، كان يستطيع ان يكون مقاتلاً على الحدود الجنوبية لأرض لبنان التي تنزلق من بين أصابعنا يوماً بعد يوم ...

حربنا مع «اسرائيل» لم تنته... ربما بدأت حقاً الآن . وفي لبنان اعتقاد شبه نهائي وراسخ بأن لبنان عاجز عن القتال ! لماذا ، والفرد اللبناني ليس عاجزاً عن القتل إذا مس أحد مقدساته ؟ المرأة هي المقدس الأول والأوحد ، فلماذا ؟ لماذا لا تبدأ حملة توعية واسعة النطاق ، في الريف قبل المدينة ، لزرع « تابو » آخر محرّم في النفوس غير المرأة ، هو الوطن ؟ ما دام ابن ١٥ سنة مستعداً للموت من أجل ما يظنه هدفاً

سامياً ، فلماذا لا نغرس فيه هدفاً سامياً حقيقياً ومجدياً حقاً ؟

عشرات الشبان الذين تفترسهم البطالة وتمضغهم آلات الفليبرز فينزلقون يوماً بعد يوم في هوّة الاحساس باللاجدوى وعدم الأهمية يحاولون عن طريق ارتكاب « جريمة شرف » ولو مفتعلة ، الحصول على شيء من الأهمية في مجتمعهم الصغير ، والتميّز بفعل بطولة ! فقد سرقنا من المواطن اللبناني — حين سرقنا منه حقه في الحرب وحقه في مشاركة المنطقة العربية مُثُلها ومصيرها وكيانها — شرف الانتماء إلى بطولة حقيقية وكبيرة ، فراحت النفس تفتش عن بطولات صغيرة « دونكيشوتية » هنا وهناك .

جرائم القتل الكثيرة المرعبة المستمرة في لبنان ، القبضايات ، « الزعرنات» الصغيرة التي تؤدي الى مذبحة ، والمشاجرات من أجل نساء الليل أو لأن شخصاً خاطب آخر بلهجة لم تعجبه (جريمة ملهى « البلو آب ») ، أليست هذه كلها تعبيراً عن مجتمع محروم من قضية كبيرة ، وعلى افراد تمزقهم ضحالة الأفق أمامهم ؟

كل هذا يدور ، والرصاص ، يطلق في إسقاط نفسي موجع من هدفٍ كبيرٍ إلى أهداف جانبية صغيرة ، ولكن رصاصة واحدة لا تُطلق في جنوب لبنان ! الجنوب يفرغ ، ينزح ، يموت أفراده عزلاً دون إطلاق رصاصة دفاع عن النفس واحدة ، والرصاص يطلق في لبنان في محاولة اسقاط للقضية الكبيرة !

ليكن الوطن « التابو » ، المحرّم الاول والأوحد . وليكن الموت محرّماً علينا إلا من أجله . ولتبدأ حملة توعية في هذا المجال ، وليتبين لبنان دوره العربي الحقيقي كي يكف ابناؤه عن التخبط .

وكفانا مهازل « جرائم الشرف » ! إن ابن زنا اضافياً تضعه امرأة ما ليس بكارثة في وطن يخون كل يوم شرف الانتماء إلى التاريخ والثورة والحرب !

١ / ٧ / ١٩٧٤

نساء أم « قتلة » !

دلال فتاة لبنانية أطلقت النار على شقيقتها ناهية « السيئة السمعة » وتركتها بين الحياة والموت ثم خرجت « تفتل شاربيها » على طريقة القبضايات وتقول : « من أجل شرف الأسرة ! .. »

للوهلة الاولى يبدو الأمر مثيراً ، فقد اعتدنا ان يحتكر الرجل حقل « جرائم الشرف » التي لا يزال القانون يمنح أبطالها أعذاراً مخففة ... ولكن المرأة قررت ان تقاسم الرجل كل شيء . العمل في سلك الشرطة ، وفي سلك الجريمة ! .. ثم لماذا يقتل الرجل لأجل الشرف ولا تقتل المرأة أيضاً ؟! .

هذا للوهلة الاولى . ولكن دلال التي قتلت ليست انثى . دلال التي قتلت هي السلوك الذكوري المتداول الذي يغرسه المجتمع في النشء منذ الطفولة، حتى صارت « جرائم الشرف » التافهة وغير الشريفة واللاانسانية طموحاً للعاطلين عن الحب والحياة والاخلاق . ولما كانت المرأة المقهورة في مجتمعنا ترى في الرجل أحياناً المثل الاعلى ، وترى في التشبه به أمنية ، لذا ليس غريباً ان تقرّر فتاة ما التصرف على طريقة « البطل الاجتماعي » الذي « يحصّل » شرف العيلة ... (ترى هل تمنح الفتاة الاسباب المخففة على جريمتها أسوةً بالذكور أم ان تحصيل الشرف هو أيضاً شرف رجالي ؟ !) .

هذه الحادثة لفتت نظري لأنها جزء من موجة جديدة بدأت تجتاح جيل الفتيات العربيات الصاعدات ، وهي موجة « الاسترجال » . ودلال التي أطلقت النار على اختها من اجل « شرف العيلة » تعبّر تعبيراً حاداً عن ظاهرة واسعة ومنتشرة بحيث تلفت الانظار في الأوساط النسائية ، وهي ظاهرة تقليد السلوك الخارجي للرجل ، أو تقليد اسوأ وأسخف ما في سلوكه مثل جرائم الشرف . ودلال هي في النتيجة ضحية. لقد وجدت أن عليها ان تختار بين ان تكون جزّاراً يَذبح أو شاة تُذبح ، فاختارت دور الجلاد مقلّدة بذلك الرجل . وهي قد فقدت انوثتها ، واذا كانت قد كسبت

«الر جولة » العربية في أبشع وأحط مفاهيمها : « رجولة » القتل تحت ستار «الشرف» ! . ويبدو اننا نمر في مرحلة من الضروري التأكيد خلالها على انه لا علاقة بين الاسترجال والتحرر . فقضية تحرير المرأة ليست قضية تحويل المرأة إلى رجل . القضية هي تحويل المرأة إلى انسانة ، والرجل أيضاً إلى انسان . فالرجل نفسه ليس حراً في أكثر مجتمعاتنا العربية ، وهدفنا اذاً هو تحويل امرأة ورجل مستعبَدين إلى انسانين حرّين في مجتمع حر .

لا نريد من قضية تحرير المرأة ان تتحول إلى عملية زرع لحية وشاربين وعضلات ، ولا إلى حركة ببغائية لتقليد الرجل ، خصوصاً في ابشع ما يصدر عن السلوك « المذكر » في بلادنا : « جرائم الشرف » .

المطلوب ان تظل الانثى انثى . ذلك لا يعني طبعاً انثى بالمعنى التقليدي للكلمة (كائن سلبي) ، ولكن ذلك يعني عدم التنكر للطبيعة . و « جرائم الشرف » هي ضد الطبيعة وضد الانسانية ، وهي بقايا نظرة متخلفة « تشيىء » المرأة . اما تحرر المرأة فيعني كسر كل القيود التي تحول بينها وبين ممارستها لإنسانيتها ، ولا يحل المشكلة تقليد كائن آخر مستعبد أيضاً هو الرجل ...

المرأة هي ، من دون شك ، بروليتاريا البروليتاريا في المجتمع . وهي تقاسي من كل ما يعانيه الرجل في المجتمع العربي من قهر سياسي واجتماعي واقتصادي ، بالاضافة إلى وضعها البائس كأنثى . على انه ليس المطلوب مساواة المرأة بالرجل فحسب ، بل المطلب الأهم هو تحرير المرأة والرجل في مجتمع يستعبدهما معاً . فالعلاقة بين المرأة والرجل جدلية لا جامدة ، بمعنى ان وراء كل امرأة مسجونة رجلاً مكبوتاً ، ووراء كل مومس رجلاً بائساً يعاني من علاقة سطحية وغير انسانية .

وقد يكون المطلب الاولي (كتكتيك لا كاستراتيجية) المساواة بالرجل ، ولكن ذلك لا يعني بالضرورة تقليد مظهر الرجل أو تفاهات سلوكه .

(ومدام كوري لم تقم بعملية استئصال للثديين . المهم هو استئصال ذاكرة الخنوع ووهم التخلف النوعي . وانديرا غاندي لا تزال ترتدي الساري. فالمهم جوهر التحرر لا قشوره . وما جدوى ان ترتدي المرأة العربية ربطة عنق اذا كانت لا تزال محتفظة بخلخالها تحت البنطلون ؟ !)

تحرير المرأة كتكتيك يمكن أن يبدأ ، باعلان كل نساء القطر اللبناني الاضراب العام (كبداية) من أجل تعديل النصوص القانونية التي تعامل المرأة معاملة دونية ... ويظل الأهم هو تحرير الانسان العربي ، والمرأة بطبيعة موقعها كبروليتاريا البروليتاريا

في الشعوب العربية مؤهلة لتكون طليعة ثورة التحرر العربي ...

كثيرون يعتبرونني من المسؤولين عن تفجير طموح المرأة العربية وتشجيعها على ان تلغي نون التأنيث من سلوكها ، وتعيش حياتها دون خوف من المجتمع . فإلى اللواتي اعتبرنني ضوءاً أخضر في درب تحرر المرأة أقول : لا علاقة بين المناداة بتحرير المرأة والمناداة بإحراق بعض ثيابها الداخلية ...

تستطيع المرأة ان تكون متحررة وان يكون لها ثديان . الحمل وانجاب الاطفال ليسا ضد تحرر المرأة اذا تمّا في شروط انسانية دونما ارغام . مسموح للمرأة ان تحترم زوجها وتحبه وحتى ان تقبله دون ان يشكّل ذلك اساءة إلى بنود تحرير المرأة (!) ...

انا اعتقد ان « الاسترجال » ليس مظهراً من مظاهر تحرير المرأة بل مظهراً من مظاهر عبودية المرأة لفكرة سطحية عن التحرر ...

المهم في التحرر ، التحرر الاقتصادي والتحرر من سلطة المجتمع وسطوته ...

والنساء المسترجلات هن أكثر إقراراً — حتى من نساء الحريم — بسلطة المجتمع ، ودليل اقرارهن هو تقديمهن لمسرحية الاسترجال . وهكذا فان المرأة المسترجلة هي في جوهرها امرأة الحريم مع تغيير في بعض الديكور ...

ويا نساء العالم ... احببن ! فالرجل كائن جميل ، وهو بائس مثلنا ... وتضامنّ معه بدلاً من تقليده . فالمطلوب في علاقة المرأة والرجل التكامل لا التماثل ، والمطلوب المماثلة في الحقوق والواجبات كمواطنين ، ولكن ليس من الضروري ان تحلق المرأة ذقنها كل صباح لتؤكد لنفسها انها متحررة .

بالمناسبة ، قرأت للتو خبراً عن سبعة شبان ألقت القبض عليهم شرطة الآداب بعد ان ضُبطوا في شقة يرتدون الملابس النسائية الداخلية والخارجية ويتزينون بالماكياج والحلي والعقود ... فهل هذه طلائع « الثورة المضادة » ؟ ! .

١ / ٤ / ١٩٧٤

المطلوب تحرير المرأة من التحرر !

كثيرة في بلادنا هي الكتابات النسائية التي تحرّض المرأة على الثورة لانتزاع انسانيتها ، ولكن الخطأ الذي تسقط فيه أكثر هذه الكتابات هو انها تعتبر أن معركتها هي ضد الرجل ، لا ضد التخلف الاجتماعي العام .

أعتقد بأن هذا النوع من الكتابة كان مقبولاً قبل نصف قرن ، في بدايات سفور المرأة عن وجهها وقلبها . كان ممكناً في تلك المرحلة تصوير القضية على أنها ثورة حواء الجارية ضد آدم المستغِل .

اما الآن فيبدو أن القضية في حاجة إلى رؤية جديدة تخرج بها من مرحلتها الميتافيزيقية لتضعها في إطارها الطبقي والاجتماعي والتاريخي العربي ، أي في إطار أكثر وضوحاً ومصارحة ...

إن خلاص المرأة العربية المعاصرة لا يكمن في إعلان العصيان المدني على الرجل ورفض العمل المنزلي والحمل والولادة ، لسبب بسيط هو أن المأساة أوسع وأشمل . فالرجل العربي نفسه ليس جلاد المرأة بقدر ما هو ضحية الوضع الطبقي والاجتماعي الخاطىء في معظم أقطارنا ...

المرأة العربية تعاني من استلاب حرياتها الاقتصادية والفكرية والسياسية والجنسية، ولكن من قال ان الرجل العربي حر ؟ ! . من هنا أؤمن بأن هذه المرحلة تفرض على المرأة النضال من أجل حرياتها ضمن إطار نضال الانسان العربي ككل ضد قوى الاستلاب كلها، اذ لا يمكن لأي فرد (رجلاً كان أو امرأة) أن يكون حراً في مجتمع مستعبَد فاقد للعدالة .

ان الاقلية العربية الثرية التي تعتاش من بؤس الأكثرية،ومصالحها مرتبطة بتخلّف الشعب العربي ، تحرص على إفساد غضبة المرأة وتحويلها في غير مجرى الثورة الحقيقية حيث يجب أن تصب . والأبواق الاعلامية المتعفنة لها مصلحة في تحويل أنظار المرأة عن الثورة داخل منظمة ثورية منظّمة إلى « الشجار » داخل البيت مع الزوج، وبالتالي

هدر طاقتين كان من المفروض اتحادهما ضد العدو الحقيقي الذي هو كل ما يكرّس تخلّف الاثنين ...

ان قضية المرأة العربية هي نفسها قضية الرجل العربي الثوري . فحواء وآدم العربيان المعاصران لا يعيشان في جنة تمنحهما « ترف الشجار » وانما يعيشان في جهنم أحداث هذه المنطقة ومآسيها وأخطارها ، وكل هدر جانبي للطاقات هو جريمة بحق النضال العربي ككل .

والمطلوب من الكاتبات المستقلات والاتحادات النسائية والجمعيات وكل التجمعات « النسوانية » إعادة النظر في موقع قضية المرأة من العصر والاحداث .

ليس الرجل فقط هو الذي ظلم المرأة، بل إنّ الاستعمار والتخلف والطبقية ظلمتهما معاً ... ومن الضروري أن تبدأ مرحلة التحالف الواعي بين المرأة والرجل ضد عدوّهما الحقيقي ، وان تعمل التجمعات النسائية ضمن هذا الاطار .

١٧ / ١٢ / ١٩٧٣

مدلول خطر لنجاح فيلمين

يبدو ان عصر السينما ذات الاخلاقيات التقليدية قد انتهى .

فقد اعتدنا ان نرى كل سارق أو قاتل في السينما يُعاقب ، ومهما أحبه الجمهور فسوف يُلقى به في النهاية إلى السجن ... وقد يُخففُ الحكم عليه ، أو يكافأ بحبيبة جميلة تنتظر خروجه من السجن ، ولكن لا بد (للعدالة) التقليدية من الاقتصاص منه من حيث المبدأ .

هذا الاسبوع شاهدت فيلمين تمردا على هذا الخط . **الأول** ، فيلم « الفرار » ـ ستيف ماكوين ، آلي ماكرو ـ الذي يلقى نجاحاً لا حد له . انه حكاية زوجين عاشقين شبه فقيرين يسرقان بنكاً وينجوان من البوليس ومن عصابة تطاردهما ويصلان بسلام إلى المكسيك مع الغنيمة طبعاً ، وينتهي الفيلم نهاية سعيدة ! .. ولعل الجمهور يخرج أكثر سعادة حتى من أبطال الفيلم الذين ربحوا ثروة صغيرة (نصف مليون دولار) ! .. لماذا ؟ وهل يكره الجمهور « العدالة الشرعية » إلى هذا الحد ؟ ..

هذا ما يبدو للوهلة الاولى .. ولكن الفيلم في حقيقته يمثل سارقين صغيرين (ستيف ماكوين وزوجته) سرقا من بنك هو أصلاً مؤسسة للسرقات الكبيرة ... وهكذا فالجمهور الذي تعب من « السارقين الكبار » الذين يحميهم القانون ، يتعاطف مع « السارقين الصغار » الذين هم أقرب إلى قلبه وواقعه ، ويشمت بـ « الكبار » الذين يجد مثيلاً لهم في حياته اليومية وفي واقعه الاجتماعي والسياسي ...

الفيلم الآخر الذي شاهدته هذا الاسبوع ضمن الخط نفسه (مما ينبشر بموجة أفلام من هذا النوع غير التقليدي) ... اسمه « اقتل شارلي فاريك » . والبطل في الفيلم يرتكب سرقة تقارب المليون دولار لكنه ينجو بنفسه من البوليس والعصابة التي تطارده ويربح المال أيضاً . وكما في فيلم « الفرار » ، المال الذي سرقه شارلي فاريك هو أصلاً « مال حرام » ويخص عصابة المافيا ومجموعة من المجرمين الكبار الذين تحميهم تغطية قانونية ،

أما هو ، الذي ينطلق البوليس خلفه والمافيا أيضاً ، فينجو بالغنيمة مشفوعاً بتهاني جمهور الصالة وفرحهم الكبير بنجاة « السارق الصغير » من « السارقين الكبار » ...

ان حماس الجمهور اللبناني لفيلم الفرار (يعرض منذ ستة اسابيع وتنفد كل التذاكر منذ الصباح) له « دلالة » سارة بالنسبة لموزعي الشريط واصحابه، ولكن له « دلالة » غير سارة بالنسبة لمصاصي دم الشعب في هذا البلد ، المتمتعين برعاية القانون وتغطيته ، والذين يبرعون في تكديس ثرواتهم ورفع بناياتهم دون أي مأخذ قانوني عليهم .

ان تعاطف الناس مع « فقراء » الفيلم السارقين الصغار الخارجين على القانون ، وشماتتهم بـ « الحرامية الكبار» المستغلين لبنود القانون لن يتوقف عند حد الاقبال (غير المؤذي) على فيلم يشاهدونه دونما عنف ..

ان هذا النوع من الشعور والحماس يمكن في اللحظة المناسبة ان يتحول إلى انفجار يسمونه في كتب التاريخ « ثورة » أو أسماء اخرى كثيرة مشابهة ...

فليذهب مستغِلوّ الشعب لحضور هذا الفيلم ، ومطلوب منهم أن يستمتعوا به قليلاً ، وان يفكروا بعده كثيراً ! ..

٥ / ١٢ / ١٩٧٣

سهو ، أم تمهيد لصلح ؟

فيلم « الفتى ذو القلب المكسور » الذي يعرض حالياً في إحدى صالات السينما في بيروت ، قدم لنا في حفلة العرس اليهودي أغنية اسرائيلية فولكلورية أظن أن اسمها « هاغانا » . فقد سمعت هذه الاغنية في كثير من حفلات السمر في لندن أيام دراستي ، وشاهدت أكثر من تشابك بالايدي بين رفاقي العرب وأفراد الفرق الموسيقية اليهودية التي تفاجىء الساهرين بعزفها ويطرب الاوروبيون (لشرقيتها) .

وظهر الاحد ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ، حوالي الساعة ٥ بعد الظهر اذاعت محطة بيروت باللغة الاجنبية أغنية تبدأ الحانها بالمعزوفة الاسرائيلية الفولكلورية نفسها وتغنيها ايرين برتيبيه ! مما لا شك فيه أن أحداً لا يريد تعويد الأذن العربية على الألحان الفولكلورية الاسرائيلية تمهيداً « لصلح ثقافي » ، وأن الامر هو حتماً سهو ألفت اليه أنظار ادارة السينما ومديرية الاذاعة .

٧ / ١٠ / ١٩٧٤

أصوات الغناء ستكون عالية

٦ تشرين ليس مناسبة جامدة من تلك التي اعتدنا الاحتفال بها سنوياً في مواعيد محددة ... نصدر الاعداد الخاصة بها .. وننظم القصائد في مدحها .. ونستمع من الإذاعات الى الأناشيد والمدائح فيها ...

الاحتفال بـ ٦ تشرين يُستمد من روح ٦ تشرين نفسها ... انه بالتالي لا يمكن أن يكون مهرجاناً فحسب ، وإنما ممارسة ديناميكية مستمرة ... انه ليس احتفالا في يوم معيّن فحسب ، وانما هو سلوك نمارسه باستمرار في كل أيام السنة ...

٦ تشرين هو الخطوة الاولى الصحيحة في درب المئة الف ميل، درب التحرر والكرامة والفرح للجماهير العربية كلها .

ومن هنا فإن من واجب الأصوات التي سترتفع بهذه المناسبة أن تبتعد تماماً عن الخطابية اللفظية والمتاجرة بمشاعر الجماهير ، لتحل محلها لغة مباشرة موضوعية وصريحة في مواجهة الحقائق....

٦ تشرين ليس مناسبة انقضت وبقي نحت التماثيل لها وتنصيبها وثناً في حياتنا السياسية .

٦ تشرين روح عمل ، وروح تفاؤل . فليواجه كل منا ذاته وليصارحها : الى أي مدى تسرّبت روح ٦ تشرين الى الخلايا النفسية لوجوده ، والى أي مدى أثرت في سلوكه اليومي ومعايشاته ومواقعه الفكرية ؟ .

وإذا كنا قد سقطنا بعد ٥ حزيران في مناخ هزيمة مضخمة ، فمن الخطر أن نسقط اليوم أيضاً في مناخ نصر مضخم ...

٦ تشرين ليس انتصاراً ستاتيكياً جامداً ، وإنما هو روح ديناميكية تقع على الأقلام مسؤولية إبراز ضرورة استمراريتها وضرورة النظر اليها ضمن اطارها الحي كحلقة مضيئة في سلسلة المراحل التي لا بد أن تمر بها أمتنا العربية في دربها الى تحقيق

أهدافها الإنسانية العادلة ...

ومفهوم « التفاؤل » التشريني ، يجب ألا يتحول الى يقين طوباوي بالنصر ، بل من الضروري التأكيد على أن « التفاؤل » مرادف « للعمل » وإن الأمل هو « حالة من الوجود . إنه حيوية داخلية ، حيوية الفعالية ... والانتظار السلبي هو شكل مموّه لليأس والعجز » (إريك فروم) ... وهكذا ف ٦ تشرين هو عيد العمل من أجل الأمل ، وليس للعمل مناسبات ولا أعياد لأنه ممارسة يومية حياتية ...

في ٦ تشرين يجب التحذير من سوء فهم حكاية الأمل والتفاؤل ... فالأمل السلبي هو اعتماد الإنسان على المستقبل بشكل مطلق . « فما من شيء يفترض حدوثه الآن ، وإنما بعد ذلك ، في اليوم التالي أو العام القادم وفي عالم آخر .. فوراء هذا الاعتقاد وثنية الـ « مستقبل » و « التاريخ» و « الأجيال القادمة » — (من ثورة الأمل لاريك فروم) . إن شيئاً لن يحدث إذا اكتفينا بـ ٦ تشرين ثم الاحتفالات السنوية به .

إن إرادة العمل لدينا وممارسته هي وحدها التي تمنحنا الحق بالتفاؤل .. وكما يقول مفكر عربي كبير (الإرادة إذن لا « الحلم » ، ولا « انتظار تحقق الحلم » ، هي الأساس الموضوعي لبناء المستقبل والتوجه نحو الأهداف القريبة والبعيدة) ...

لا أريد أن أبدو في كلمتي هذه كئيبة كعرّافات دلفي ، ولكنني أعرف أن أصوات الغناء ستكون عالية (كما كانت أصوات الندب في ٥ حزيران عالية) ، ولم يعد في حنجرتي غير صوت الصحو .

١٦ / ١٢ / ١٩٧٤

قراءة بيضاء

أغرب مجلة تلقيتها في حياتي مجلة اسمها ، كما يقول غلافها ، « الفجر » ، وكل صفحاتها بيضاء بيضاء لا نقطة فيها ولا سطر ولا لون ! ..

للوهلة الأولى خيّل الي أنها دعابة ، وأن هنالك ثرياً ما يحاول أن يعلن عن وجهة نظر ساخرة ولو بأسلوب باهظ التكاليف ، كأنه مثلاً يود أن يقول حين طبع مجلة بيضاء ! : « لم يبق ما يقال ! فما أرى ما نقول إلا مكروراً أو معاداً . »

أو : « في فمي ماء ! » .

أو : « السكوت من ذهب ! » .

أو : « اهترأت اللغة وما زال البؤس يحتل العالم ! » .

أو : « افتح الصفحات البيضاء واقرأ ما في نفسك ! » .

أو : « كفّ عن قراءة الآخرين وواجه مواقفك أنت ! » .

أو أي فكرة أخرى يمكن أن تخطر ببالك إذا فتحت مجلتك ذات يوم ووجدت كل صفحاتها بيضاء تماماً ! .

قراءة أخرى لغلاف المجلة العجيبة تكشف أنها « تصدر عن المكتب الاقليمي للجنة الشرق الأوسط لشؤون المكفوفين » .

نظرة أخرى الى صفحاتها تجعلك تلحظ أنها ليست بيضاء من دون أي شيء تماماً . ففي الصفحات نتوءات ، وفيها حفر . وفهمت أنها مكتوبة بطريقة « برايل » . انها مجلة للمكفوفين ، وحواسنا نحن مكفوفة عن قراءتها .

أغمضت عيني وتحسست السطور بأصابعي ، وحاولت أن أقرأ ، فشعرت بالعجز التام ، كعجزك عن قراءة وجه إنسان غريب ! عجزت عن القراءة لأن أصابعي عمياء . فالحاسة التي تضيع لدى المكفوف تجد تعويضاً لها في تنشيط حواس أخرى في النفس والجسد .

هذه المجلة عمل إنساني عظيم سيدخل النور الى المكفوفين وينقذ طاقاتهم المعطّلة .

وفكرت في المئة والأربعين مليون عربي التائهين بين « الماء والماء » ، وأكثرهم مصاب بعمى الألوان السياسي ، والحول الفكري ، وازدواج الرؤية ! متى تصدر منشوراتهم الحقيقية ؟ وإذا صدرت فهل يسمح لها بحرية التجول أم أنها ستصطدم ، كالعادة ، بالضوء الأحمر للموانع التقليدية ؟ ! .

كلنا مكفوف ما دامت حرية الفكر شبه ممنوعة من التجول في العالم العربي !

متى يطلع الفجر الحقيقي ؟ ! .

* * *

١٨ / ٢ / ١٩٧٤

قراءة أولى في جريدة صباحية !

هل تعرفون ما هي أشد الأشياء إثارة للرعب والقلق في زمننا الرديء ؟

إنه جريدة الصباح !

تقرؤها فتحمل اليك دفعة واحدة بشاعة عالمنا المعاصر ... والذنب ليس ذنب الجريدة إلا بقدر ذنب المرآة في عكس صورة وجه بشع ! .

فجريدة الصباح تحاصرك وأنت لما تصحو بعد من نومك جيداً ، أي أنها تخترقك في لحظة من لحظات العري النفسي ، قبل أن تباشر بارتداء أقنعتك ، وقبل أن تلفّ حولك دروع همومك اليومية الصغيرة ، تلك الهموم الشخصية التي تتعبنا لكنها تقينا فظاعة الهموم الإنسانية الأكبر والأشمل ... كأن الزواج وإنجاب الأولاد والروتين ، كل هذه المشاغل الصغيرة هي لقاح ضد الوعي بالأوبئة المروعة التي تحصد إنسانية عالمنا المعاصر ...

* * *

تعالوا نقرأ جريدة الصباح معاً ... إن مجرد تأمل الصور يكفي لتبدأ يوماً تاعساً — « تاعساً » ليست هي العبارة — لنقل يوماً مليئاً بالحقد الإيجابي أي ، الرغبة في التبديل ...

* * *

في الصفحة الأولى صور رؤوس مقطوعة ... لا رؤوس خرفان ، بل رؤوس شبان كانوا قبل أيام ينبضون حياةً وجمالاً مثل جياد برية تركض في سهول الوجود ..

الخناجر تقطر دماً ... والرؤوس المربوطة الى العصي تقطر دماً ... والصورة ليست تاريخية عن غزوات هولاكو وفظاعات تيمورلنك، وإنما هي صورة «معاصرة»، صورة من صور الحرب في كمبوديا ... الرؤوس المقطوعة هي طبعاً رؤوس الثوار ... والقتل تم على الطريقة الأميركية وبإشراف خبرائها وزبانيتها ، وخناجرها وأسلحتها ...

ومع ذلك لا تخجل السينما الأميركية من عرض الأفلام التي تصوّر « وحشية » الهنود الحمر لمجرد انهم كانوا يسلخون فروة رأس « العدو » مكتفين بها على سبيل « السوفينير » أي التذكار ... أما أميركا التي رفعت علمها على القمر دلالة على ربح سباق الحضارة ، (ربما بكت يومها المجرة بدموع من ضوء حزين) ، فقد فضلت العودة الى التراث ، وقامت « برينيسانس » بإحياء أساليب هولاكو لتثبت انها حريصة وأمينة على التاريخ ، ومارست ذلك بصفة عملية في فيتنام ، باسلوب تعانق فيه « تراث الماضي » وأساليب العلم المتطور والتكنولوجيا ، ويبدو انها نقلت ذلك كله اليوم لتتابع نشاطها في كمبوديا ...

إنك حين ترى الرؤوس المقطّعة المتدلية من العصي كثمرة الخطيئة ، تدهشك الإعلانات عن الطائرات والكومبيوترات في الصحيفة نفسها ، إعلانات تدل كلها على اننا في القرن العشرين ، فتصاب بالذهول ، والقرف ، والحقد المضيء . إن كل ثائر لا يمكن أن يكون لامبالياً بمصير الثوار في كل مكان ... وتقلب الصفحة !

* * *

هذه صورة حسن البرقاوي ، شيخ فلسطيني عمره ١٠٣ سنوات . وجهه مليء بالقهر ، وتجاعيده حكاية عذاب طويلة ، وفي يده عصاه وخبر عن طرد السلطات الاسرائيلية له من بيته ...

الخبر لم يثر إشفاقي على الشيخ ، بل على الدولة « الاسرائيلية » .. فقد يكون سهلاً إخراج رجل عجوز في الثالثة بعد المئة من عمره ، ولكن عمر الفلسطيني في فلسطين ليس ١٠٣ أعوام فقط . عمره هو عمر التاريخ .

وهي لن تقدر أبداً على طرد هذا الوجود . إن معركة « اسرائيل » مع العرب ليست مجرد معركة مع أشخاص وبيوت وإنما هي أيضاً معركة مع التاريخ كله .

و «اسرائيل» هي كمن يحاول إفراغ بحر التاريخ والحقيقة بصدَفة صغيرة اسمها « الأمر الواقع » !

ولكن الفجيعة الحقيقية هي حين يصير « الأمر الواقع » أقوى من « الحقيقة » ، وحين تصير الصدَفة أكبر من البحر . وإذا استمرّينا في ما نحن عليه ، فهل يمكن للصدَفة أن تصير أكبر من البحر ؟ ..

لنقلب الصفحة ! ..

* * *

هذه صورة تمثل بعض الممثلات والنساء المتهمات بما يدعى بفضيحة الرقيق الأبيض ، وبممارسة أقدم مهنة في التاريخ ! ..

تشعر باللامبالاة ! ..

كلنا صرنا نعرف أن العهر لا يمارس في هذا المجال وحده ، وأن عالمنا العربي غارق في فضائح العهر الفكري والسياسي والاجتماعي ...

تشعر بالغضب ! ..

لم يعد مهمّاً في عالمنا العربي من نام في منزل من، الأهم هو أن لا تُسحب الأرض من تحت المنازل كلها . و«إسرائيل»، ومن ورائها أميركا، جاهدة في هذا المجال، وإذا ظللنا لاهين عن هذه الحقيقة المروعة ، نائمين على وسائد السلام ، سيأتي يوم يصير فيه الشعب العربي بأكمله رقيقاً أبيض .

تشعر بالأسف ! ..

فلنقلب الصفحة ! ..

* * *

نقلبها ؟

لا ...

ذلك يكفي لهذا الصباح !

٤ / ٣ / ١٩٧٤

من خطف الطائرات إلى خطف اللوحات

الفتاة جميلة وشفافة . تعزف على الغيتار منذ زمن بعيد . تعزف باستمرار ليلَ نهار منذ القرن السابع عشر . لا تتعب . لا تنام . شاهدتها ذات يوم في متحف « كينوود » في بريطانيا . أنصت الى عزفها ومن يومها لم أنسها ..

تعزف منذ مئات السنين ، منذ رسمها الفنان الهولندي جان فيرمير وأبدع في تصويرها بلوحته الشهيرة « عازفة الغيتار » التي تعتبر من روائع الفن العالمي ويقدر ثمنها اليوم بملايين الدولارات .

ومنذ أيام سُرقت اللوحة .

اختفت من ركنها في المتحف وصمت العزف . أدهشني خبر السرقة لأن بيع مثل هذه اللوحات مستحيل بسبب شهرتها الفائقة ، وهكذا فان سارقها لن يحظى بأي ربح مادي . وفكرت : تراه مهووساً ، عشق اللوحة فقرر اختطافها وسجنها والاستئثار بعزف الجميلة وحده من دون الناس جميعاً ؟ ! . تراه جامع تحف مجنوناً قرر أن يقيم لنفسه سراً متحفه الخاص ؟ وأين ؟ في غواصة مثلاً ؟ أم تراه يتولى تهريبها الى القمر حيث الزحام أقل ؟

وشعرت بالغضب من السارق . وقررت انه رجل مؤذٍ لأنه لا يفرّق بين عاطفتيّ « الحب » و « حب الامتلاك » . إن التطابق بين « الحب » و « حب الامتلاك » قد يكون مقبولاً في حالات الحب الفردية (بين رجل وامرأة مثلاً إذا تم بقبول الطرفين) ، أما بين رجل ولوحة فنية فتلك أنانية لا تطاق . تصوروا مثلاً لو أن كلاً منا أراد أن يمتلك كل ما يحب في هذا الكون المزروع بالجمال والسحر ، وأن يحبسه ويحرم الباقين منه ! انا مثلاً أحب الشمس والنجوم والبحر والأطفال والغابات والمطر ، فمـاذا يتبقى للدنيا لو سرقتها وهربت بها الى كوكب آخر مثلاً ؟ ! وأية كارثة تكون لو أن كل سائح يقوم بسرقة أية لوحة تفتنه أو تمثال يحبه ؟ .. وماذا

لو أقدم الميلياردير أوناسيس ، مثلاً ، على سرقة أبو الهول ، ولو قام كل معجب بسرقة ما يحب وفقاً لامكاناته المادية والجسدية ؟ ماذا يتبقى في متاحف العالم غير لافتات في موضع اللوحات تقول مثلاً : « هنا كانت لوحة فان غوخ : الحصاد . تمّت سرقتها يوم كذا ... يرجح أن السارق هو فلان واليكم العنوان لمراجعته » ! أليست المتاحف في النتيجة أول تجسيد عملي جماعي لاشتراكية الحب الذي لا تفسده الأنانية أو حب الاستئثار ؟ .. أليست المتاحف أول تعبير حقيقي في التاريخ للفصل بين « الحب السامي » و « حب الامتلاك » ؟ ..

هذا ما أحسسته للوهلة الأولى ... وتخيّلت سارق اللوحة في قبو بيته يتأملها وينصت الى عزف جميلتها مستأثراً بها حارماً الدنيا من إبداع راسمها . وحقدت عليه ! ..

ثم فوجئت بالسر الكامن وراء السرقة ! فقد قرأت أمس في صحيفة « الغارديان » أنها تلقت مخابرة هاتفية من سارق اللوحة . إنه يطالب الحكومة البريطانية بتوزيع ما يوازي مليون دولار وربع من الأغذية على الفقراء في وطنه (جزيرة غرينادا) مقابل إعادة اللوحة . فجزيرة غرينادا كانت تابعة لبريطانيا ، وقد استقلت مؤخراً بعد أن خلّف فيها الاستعمار ما يخلّفه عادة في كل وطن من بؤس وجوع ومرض ! .

إذن نحن أمام ثائر من أجل وطنه لا أمام سارق عادي .

لقد اختطف فتاة اللوحة الغالية على قلب أمها، بريطانيا ، وهو مستعد لإطلاق سراحها مقابل فدية ، والفدية هي اطعام الجياع في بلده . وانه لم يكن يريد الاستماع الى عزف قيثارة اللوحة ، وإنما كان يستمع الى صراخ الأطفال الجياع في وطنه حين قام باختطافها .

انها لفكرة مثيرة ! ..

الانتقال من خطف الطائرات الى خطف اللوحات ! ..

الانتقال من خطف الفتيات البشريات الى اختطاف الفتيات الخالدات في اللوحات . الانتقال من اختطاف الجسد الى اختطاف القيمة الفنية . الانتقال من حرمان أسرة واحدة من ابنها أو ابنتها الى اختطاف ابنة روحية للشعب البريطاني الذي يجده الخاطف مسؤولاً عن جوع كل ابناء شعبه ! فإن دُفعت الفدية أعيدت فتاة اللوحة سالمةً مع قيثارتها وألحانها ، وإن لا ، تم قتلها وإبادتها كما يتم قتل أي مخطوف ! ذلك الثائر من غرينادا طوّر عملية الخطف بذكاء . فبدلاً من خطف فتاة خطف لوحة

هي ابنة الوطن كله ، ثم أن خطف اللوحة أكثر سهولة لأن « فتاة الغيتار » لن تقاوم خاطفها ولن تصرخ ولن تخدشه بأظافرها ، وهو ليس في حاجة الى كم فمها أو تخديرها ولن يضطر الى حراستها لأنها ستظل في مكانها داخل إطار اللوحة تغني وتعزف بهدوء وصمت ! وحتى إذا لم تدفع الفدية ، فإن عملية قتلها ستكون أكثر سهولة لأنها لن تبكي أو تتوسل أو تقاوم وانما ستموت بهدوء ! (عملية قتلها أسهل ؟ لا أدري !) .

هل اغتيال اعمال بيتهوفن كلها مثلاً ، أي الرمي بها الى النار نهائياً ، أسهل من عملية اغتيال انسان ؟ ! .

لا أدري ! ..

كل ما أدريه هو أن هذا العالم المليء بالظلم والقهر لن يعرف السلام إذا لم تتحقق فيه العدالة . وإن الثوار لن يعدموا وسيلة لاستنزاف العالم (المتمدن ، الذي مدنيته قناع مزيف) .

وما دام الظلم يملأ العالم والشعوب المضطهدة تقاسي ، فإن أحداً لن يجد سلاماً أو ملجأ أو مفراً ، خارج اللوحات أو داخلها ، فكلنا مسؤول ... وكلنا داخل اللعبة .

١٥ / ٤ / ١٩٧٤

.. وفي صدري وطن يبكي !

تعذيب أن تمرض ، أن تدخل المستشفى ... لكن التعذيب الأكبر هو حين تدخل المستشفى دون أن تكون مريضاً ، كما حدث لي هذا الصباح .

رافقت صديقي المريض لالتقاط بعض الصور الشعاعية لرئتيه وجهازه الهضمي وبقية أجهزة جسده التي أعلنت « العصيان » مؤخراً ! ..

رافقته لأواسيه ، لأسليه ، لأغسله بالمحبة التي تجعل كل ما في الحياة أقل إيلاماً وأقرب الى النكتة منها الى الدراما .

وسهى عني وعنه انه لن يسمح لي بالدخول معه الى غرفة التصوير المظلمة ! ..

وهكذا ، كان لا بد من جلوسي لمدة ساعة ونصف أنتظره في دهليز واسع معد للانتظار ، يقع مقابل مكتب موظفي ذلك القسم ، ويتيح لي مشاهدة قافلة معذبي الأرض القادمين ذلك الصباح ، ورصد أوجاعهم ... وشعرت انني متفرجة في « جحيم دانتي » وأنا أشاهد عشرات الوجوه الذابلة المتألمة ، وقفز أمام عيني أطفال مشوهو السيقان جيء بهم تمهيداً لتصليح عظامهم . وزحفت على البلاط العاري أمامي محفة تمدد فوقها رجل مخدر ، وكان لعجلاتها صوت صرخة الاستغاثة التي عجزت حنجرة المخدر عن إطلاقها ، وبدا لي وجهه لوحة عن الألم البشري الأزلي أمام المرض ...

كل ذلك كان يمكن احتماله لولا مشاهد الفقر والإذلال . بدوي وبدوية جاءا ، أحدهما مريض أو كلاهما . لم يكن الإنسان في حاجة الى أكثر من نظرة ليعرف انهما فقيران ومريضان . أمسكا بأوراق طلب التصوير ووقفا امام المكتب مصرين على عدم الدفع لأنهما لا يملكان نقوداً . الموظف قال لهما بتهذيب مستورد بارد : « الدفع على الصندوق . نحن لا علاقة لنا بالدفع . » قالها بقسوة . وأصر الفقيران على التصوير مجاناً ، وكانا على حق. وأصر الموظف على أنه لا يستطيع السماح بذلك، وكان هو

أيضاً على حق — هو ، لا مؤسسته — وكان يفسر لهما بحدة قوانين المستشفيات ، وكانا يمسكان بالأوراق الرسمية « بالمقلوب » لأنهما طبعاً لا يعرفان قراءتها ولا يعرفان «كومبينات» المسؤولين والمستشفيات. فكل ما يعرفانه هو انهما يتألمان،وأن ذلك يحول دون أيديهما الخشنة والعمل ، وانهما لا يستطيعان الموت جوعاً دون أن يطلقا ولو صرخة احتجاج واحدة ... المهم ، لا أدري كيف تم « تصريفهما » كي لا يخدشا عيون القادرين على الدفع . ولم يكادا يختفيان ، ودخان لفافتي يستقر باتقان في رئتي ، حتى بدا لعيني مشهد آخر صامت لكنه أشد تعذيباً . ربما لأنه صامت مر أمام عيني كالكوابيس المخنوقة الانتحاب . زوجان وطفل مشوه الساقين ، (ربما ولد كذلك ، وربمـــا صنع الفقر وسوء التغذيـــة ذلك) ... كان بؤس الأسرة واضحـــاً ، وصامتاً . وقف الأب امام الصندوق صاغراً ، واخرج من صرة مبلغاً كبيراً بالنسبة الى فقير مثله ، ودفع المبلغ « مكسور الخاطر » ، ثم التفت الى زوجته وفي عينيه نظرة قرأتها في الحال « لن يكون في وسعنا أن نأكل بقية هذا الشهر ! » دفعا وسارا بابنهما المشوه ، وكانا هيكلين مهترئين من الرماد لن يدهشك سقوطهما فجأة على الأرض كومتين لم يبق فيهما ما يحترق !

وخنقني البؤس .

حين تكون مريضاً ، تسقط في بئر أوجاعك الذاتية ، تتلهى بها فتعزلك وتشغلك عما حولك من آلام . حين لا تكون مريضاً ، تكون حواسك كلها متنبهة ومعافاة ، وتصير معرضاً لالتقاط كهارب البؤس البشري حولك ، وما أكثرها ! ..

تلك الاسرة الفقيرة البائسة ، التي تحركت أمامي الساعة الثامنة والربع في دهليز المستشفى ، ليست مكونة من ثلاثة أشخاص ... انها مكونة من ملايين المعذبين العرب في لبنان وغيره ... اسرة من ملايين الكادحين والطيبين والبسطاء الذين يسحلهم المرض دونما ضمانات صحية ودونما أية مبالاة على الصعيد الرسمي ! ..

أحسست بكراهية حقيقية لأكثر رجال السياسة في لبنان،الذين يحترفون المهاترات والمزايدات والحرتقات لأجل مصالحهم الخاصة ، ويمارسون الرقص في حفلات المجتمع (تجدون صورهم في الصفحات الخاصة بذلك) وعلى حبال صفقاتهم باسم الشعب المسكين ، وهم لا يعرفون عنه شيئاً ! ... وحتى حين يمرضون ، فان أحداً منهم ليس مضطراً الى الجلوس في غرفة انتظار . وإذا فعل ، فان إدارة المستشفى قد خصصت لهم غرفة انتظار خاصة في مكان بارز (تسللت اليها ، فوجدتها أنيقة

المقاعد والرياش ، ومزودة بباب كي يتم اغلاقه بينهم وبين مناظر البؤس في الخارج).
أتساءل : هل يعرف حكام لبنان كيف يعيش الشعب ؟ أعني ، كيف يعيش الناس حقاً ؟ وكيف يعرفون ، والانفصام بينهم وبين أبناء الشعب بلا حدود ؟ ! .
لطبقة الحكام مجتمعاتهم المغلقة مثل (المحافل السرية الشريرة في العصور الوسطى) .
إنهم يتحركون داخلها وهم لايعرفون أي شيء عن الشعب. وحتى شوارعهم هي غير شوارعنا إذ تتقدم سياراتهم موتوسيكلات الشرطة لتجنبهم مأساة السير عندنا ، ولهم متزلفوهم الذين يرسمون لهم صورة غير حقيقية عما يدور خارج غرفهم المخملية ...
وليس لديهم الحس بالمسؤولية الذي كان لدى خلفاء العرب أيام مجد العرب ، أولئك الذين كانوا يتنكرون ويندسون بين صفوف الشعب ليعرفوا حقيقة بؤسه عن كثب ...
كان الحاكم فيما مضى يتجسس لمصلحة الشعب ، واليوم صار الحاكم يتجسس ضد الشعب ، وصارت له أجهزة هائلة ترصد حركات الرفض الشعبي لضربها بدلاً من إزالة أسباب الرفض والنقمة... أليس مروعاً انه لايوجد في لبنان،وطن«الاشعاع»، أي ضمان صحي حقيقي ، وليس فيه غير مستقبل مظلم مروع ينتظر كل مواطن شريف كادح ؟ ! . ألا ينطبق هذا الكلام على الكادحين في أكثر الأقطار العربية ؟ ..
إن « جراثيم المرض » التي أوجدتها الطبيعة تفتك بنا أقل من فتك « جراثيم الاهمال » التي تتكاثر بفضل همة أكثر مسؤولينا الفاقدين كل شعور بالمسؤولية ... ان الهاوية بين السلطة والشعوب العربية قائمة في أكثر من بلد عربي، والتاريخ يقول لنا ان هذه الهاوية بالذات هي دوماً مصير الحاكم الذي لا يعرف كيف يلتحم بالشعب ويكون تعبيراً حقيقياً عنه وانبثاقاً عفوياً من تربته .

هذه الأفكار كلها انفجرت في رأسي ، وأحسست بالغثيان . حين تمرض تتألم لأجل نفسك وحين لا تكون مريضاً تتألم فتمرض بالجميع ! حين خرج صديقي من غرفة التصوير بالأشعة وجدني في مقعدي شاحبة ، وفي صدري تنهدات كل المعذبين والمقهورين امام المرض حين يتحالف مع الفقر ...

وحينما غادرنا المستشفى كنت أبدو أنا المريضة ، وصديقي في حال أفضل ، لأن رجل المصعد تأملنا قليلاً ثم اختارني أنا ليقول لي : سلامتك يا مدام (على اعتبار انني أنا المريضة) ! ..

وفعلاً كنت مريضة بالحياة . مريضة بفظاعة ما يدور . ولو أدخلوني غرفة الأشعة والتقطوا صورة لصدري لوجدوا فيه وطناً يبكي ! .

٣٠ / ٩ / ١٩٧٤

أما من عينين جديدتين تنبضان احتجاجاً ؟!

ليل وشريط مسجل لأغانٍ عربية مختلفة ، وبعض أصدقائي الأجانب ينصتون الى موسيقانا الحزينة .

طلب مني أحدهم ترجمة ما يقوله المطرب العاطفي . ترجمت له « بسبع أمواس قلبي قطعته » .

قال ساخراً : وهل الحبيب عندكم تمساح ؟

ترجمت المزيد : « ويلي من حبهم ويلي » ...

قال : وهل الحبيب المركيز دو ساد ؟ ..

ترجمت : « نار يا حبيبي نار » .

قال : إرهابي ونيروني أيضاً ! .. ترجمت المزيد . سألوني : لماذا الحب لديكم قمعي وبائس ونواحي وسادي و .. و ...

قلت لهم : الشريط الذي سمعتموه لا يمثلنا تماماً .

ثم ان الحب لديكم هو أحياناً مشبع بالنواح والسلبية والخذلان على طريقة « شيرلي باسي » الندابة « أنا التي لا أملك شيئاً .. أنا التي لا أملك أحداً .. أعبدك...» الى آخر المناحة ...

قالوا : حسناً . اسمعينا نماذج من «أغنية الاحتجاج» Protest Song لديكم .

قلت : لا شريط الآن لدي .

* * *

ولم أقل لهم ان أغنية الاحتجاج غير موجودة في وطننا العربي — حتى اشعار آخر — وان هذه الرقعة من الأرض الممدودة بجسدها من المحيط الى الخليج تعاني مخاض الثورة ، لا تصدر عنها أغنية احتجاج حقيقية واحدة ...

الوطن العربي في زلزال ، والمطرب العربي ما يزال يكرر أغاني عصور الانحطاط

ومعانيها ، بل وما تزال أفكاره عن الحياة موروثة من مسرحيات أواخر القرن الثامن عشر (موسيقار الشرق عبد الوهاب مثلاً صرح دون أن يرف له جفن « إن الرجل يفني نفسه من أجل قضية، أما المرأة فمن أجل فستان» . طبعاً ليس من المطلوب من الفنان أن يكون منظّراً ايديولوجياً ، لكنه مطالب بحد أدنى من الوعي الجماهيري والفكري والمعاصرة خصوصاً إذا كان قد نال قبلها باسبوع وسام دولة ثورية اشتراكية من مبادئها الأولى تنظيم المرأة العاملة وتهيئتها للنضال القومي ، والمرأة فيها عضو فعال على المستوى الحزبي والسياسي والعملي) ..

أيها العرب ، أين أغنية الاحتجاج ؟ ..

الاحتجاج يفور في دم الجيل العربي الصاعد ... الاحتجاج كهارب يطلقها من صوته ومشيته ، ومع ذلك فالأغنية العربية ما تزال تعيش مرحلة الجواري والخصيان ...

* * *

يغني عامل منجم فحم عندهم منذ أوائل الخمسينات :

(١٦ طن كل يوم ، وماذا أجني ؟ أكبر يوماً ، وديوني تكبر . قديس بطرس لا تناديني ، فأنا مدين بروحي لمحاسب المؤسسة !) ...

* * *

تغني إحداهن من عندهم :

(ذات صباح شتائي ، صديق وأنا ، ذهبنا بالسيارة ، نتنزه خارج العاصمة ، وكنت سعيدة لأنني أحيا) ...

هكذا ، صرخة احتجاج ناعمة نفاذة ضد أن نعيش دون أن نحيا ، صرخة ضد تبلد حواس الراكضين خلف (المجد الاجتماعي) ...

* * *

سيدتي رابندفيل .
لمَ شفتاك باردتان هكذا ؟..
سيدتي رابندفيل .
لماذا تتنفسين ببطء هكذا ؟..
الى أن يقول :
وزهرتنا لن تذبل أبداً ...

المطرب هنا (كاتس ستيفنس) يغني حبيبته الميتة دون أن يبكيها .. إنها أغنية

احتجاج على النواح التقليدي في مواجهة الموت ... إنه يقول لنا ببساطة : ليس المهم الحبيب بالذات ، أي نظرية « أنت وبس اللي حبيبي » عند العرب ، المهم هو أن لا يفقد الإنسان طاقاته على الحب ، فالناس عابرون ، والعشاق يتبدلون ، المهم هو أن نحب حقاً وباستمرار ...

* * *

يغني مارفن جاي محتجاً على المجتمع الاستهلاكي الآلي :

(أريد أن أسأل سؤالاً . أليس هنالك من يبالي حقاً ، بانقاذ عالم بائس ؟ سيأتي يوم تنسى فيه الأرض الغناء . والأزهار لن تكبر . الأجراس لن تقرع ... يا له من عار .. يا لأسلوبنا المخزي في الحياة ... عش حقاً . عش لأجل الحياة ودع غيرك يحيا .. الى آخره ..) .

* * *

يصرخ مارفن جاي محتجاً على حرب فيتنام :

(لا حاجة بنا لتصعيد الحرب. الحب وحده يستطيع هزيمة الكراهية. لا تعاقبني بوحشية . تعال ، حاورني لتفهم ما يدور . من هم أولئك الذين يدينوننا ، لمجرد أن شعرنا طويل ؟) .

* * *

ولكن ، لماذا سرد النماذج وهي لا تنتهي ، وفي أميركا وحدها أكثر من الف « مطرب احتجاج » غير نجومهم الذين نسمع بهم (بوب ديلان . مارفن جاي . ماريان ماكيبــا .) ومغمورهم أفضل من مشاهيرهم (ربما كما عندنا وكما في كل مكان !) ... ومن الطبيعي أن ينبع احتجاجهم من واقع مشكلاتهم وحياتهم وبالتالي فان استيراد « أغنية الاحتجاج » غير ممكن إلا جزئياً ... ولكن استلهامها أكثر من ضرورة ... وتجب ملاحظة ان أغنية الاحتجاج ليست مجرد الفاظ شعرية غاضبة ، هنالك صوت المغني الغاضب وهو غالباً هادىء النبرة حنونها ، وهنالك الموسيقى الجديدة وولادتها منوطة بولادة أفكار جديدة وحاجات جديدة ...

أي أن أغنية الاحتجاج هي ثورة في المضمون والشكل معاً . انك لا تستطيع أن تلصق الفاظ أغنية احتجاج على لحن ما إذا كان اللحن نفسه غير جديد وليس في طريقة ادائه نبرة الاحتجاج وانما هو مجرد امتداد لنواح سلفي . أغنية الاحتجاج هي ثورة متكاملة في المضمون والشكل ونبرة المغني وحتى حركات جسده ... أين هي في

وطننا الممتلىء قرفاً واحتجاجاً ؟ ..

* * *

في وطننا العربي وعي « بأغنية الاحتجاج » وشبه بدايات ...

لكنها ما تزال صرخات افرادية في مستنقع التفاهات الذي تعوم فيه الأغنية العربية ...

* * *

حتّى الجيل الجديد من المطربين الناشئين يتم افساده قبل أن يتفتح ...

هدف المطرب الناشىء : الخلافة ..

خلافة أم كلثوم . خلافة عبد الحليم . خلافة عبد الوهاب . من قال اننا بحاجة لخليفة لأم كلثوم أو عبد الوهاب أو فريد الأطرش أوسواهم؟.. لقد جاؤوا وأدوا رسالتهم مشكورين من عصرهم وانتهينا ...

اننا بحاجة الى صرخة جديدة ...

الى صوت جديد . رؤيا جديدة . المطربة الجامعية لدينا تغني ما تغنيه الأمّيّة بسبب سقوطها في فخ (الخلافة) الفنية لدينا ...

لماذا كل فنان ناشىء يريد أن يخلف فناناً آخر ؟ ألا يريد أحـــد أن يكون نفسه ؟ ألا يريد أحد أن يكون جديداً ؟ أليس هنالك من يحس بالحاجات الجديدة لمجتمعنا ، بالصرخات العصرية والتطلعات الشعبية الجديدة ...

لماذا لا نقرأ تصريحاً لمطربة جديدة ترفض فيها أن تكون خليفة أحد ، وتصر على أن تكوّن عصرها ونفسها وشخصيتها ؟ .

لماذا الكل ساقط تحت سطوة الأسماء القديمة وبريق النجوم ...

أما من عينين جديدتين لمطرب شاب يبصر نفسه ويصرخ أنا ...

ويرفض ويرفض ويحتج ...

يحتج يحتج يحتج ...

٣٠ / ١٢ / ١٩٧٤

حذار من السياحة فوق الجرح العربي !

الثوار الفلسطينيون الذين أطلقوا النار في القدس على باص السياح الأميركيين وجرحوا فتاة أو أكثر ليسوا غير عادلين . كل ما فعلوه هو تذكير العالم ببداهة يكاد ينساها الفرد الأميركي ، ألا وهي ان السياحة على فوهة بركان ليست مأمونة العواقب ، وان القدس لم تهوّد ولم تدجن ولم ... ولن ... وأن البركان لا يزال يغلي ... وأن السياحة فوق الجرح العربي لن تكون أبداً نزهة الى شلالات نياجارا بل تورط في الدخول تحت شلال الدم والنار العربي ...

سيقولون : ما ذنب السياح الأبرياء ؟ ! . أقول لكم : في هذا العالم الملوث لا أحد يستطيع أن يدّعي البراءة . لا أحد يستطيع أن يكون غير مسؤول عما يدور في هذا العالم المزدحم بالبؤس ، لا أحد يستطيع أن يدّعي أنه لم يكن يدري . حتّى الجهل بأنه متواطىء في الجريمة جريمة يجب عقابه عليها . في أرض محتلة بالظلم والقهر ، كفلسطين ، لا أحد يستطيع أن يكون سائحاً ولو شرّفنا بقدومه من ولاية فلوريدا في أميركا حاملاً جواز سفر من أقوى دول العالم (حالياً). ان مجرد التفكير في السياحة في أرض أهلها محرومون من الحياة فيها هي جريمة . (يقول لابروييير في كتابه «الطبائع» : « عار أن نكون سعداء أمام بؤس الآخرين ! ») .

وأقول : جريمة ألا نبالي ببؤس الآخرين ، خصوصاً حينما نكون نحن أول المسؤولين عنه ... والشعب الأميركي مسؤول عن البؤس الفلسطيني . فمن أمواله التي يدفعها ضرائب ، يتم شراء أسلحة الدمار وتزويد الصهيونية بها لإبادة الشعب الفلسطيني . وإذا كان المكلف الأميركي يجهل ذلك فمن الضروري إبلاغه هذه الحقيقة بأي وسيلة وأي ثمن كي يحاسب مسؤوليه على ضوئها أو يشاركهم الجريمة ودفع الثمن أيضاً ! ..

سيقولون : أين « العدالة » في اطلاق النار على باص للسياح ؟ ! .

أقول لكم : لماذا يكون مطلوباً من الفلسطيني وحده أن يموت بصمت من أجل تحقيق « العدالة الشعرية » و« العدالة المطلقة » ؟ .. هل كان « عدلاً » أن يُطرد من أرضه ويشرد ويعذب ويقهر؟.. لماذا يكون مطلوباً منه وحده أن يكون «عادلاً» بعد أن مارس عليه العالم أقصى ظلم ممكن طيلة ما يقارب نصف قرن ؟ .. أليس من حق الفلسطيني أن يبلغ الشعب الأميركي ــ الذي باسمه يمارس مسؤولوه انحيازهم الاجرامي نحو الصهيونية ــ حقيقة ما يدور ، ولو كتب رسالته بالنار على مشط قدم تلك السائحة الجريح الراقدة في المستشفى الآن ؟ فربما كانت الرصاصة المرصودة لقلب الفدائي ، الذي أطلق النار على الباص السياحي الأميركي ، مدفوع ثمنها من الضريبة التي تقدمها هذه الفتاة نفسها لحكومتها المنحازة للصهيونية ، ومن الواجب إذن ابلاغها ذلك ولو برسالة من نار على جسدها ! فتلك هي اللغة الوحيدة المتبقية التي فرضها العالم المتوحش على الفلسطيني المناضل . وإن عالماً « عدالته » احراقنا باغصان الزيتون لا يستحق منا غير « عدالة » لغة القنبلة ! ..

١ / ٤ / ١٩٧٤

القدس ، لا أورشليم

بينما تنام أقلية على وسائد السلم المزعوم مع «اسرائيل»، دون أن تدري أن وسائد السلم غير العادل محشوة أبداً بالمتفجرات التي لا بد ان تفجرها الشعوب بكل من يغفو فوقها ، وبينما بدأ شخير الخدر عن جوهر القضية الفلسطينية تتردد أصداؤه في بعض أنحاء الوطن العربي ، مقطعاً بهذيان عن « سلم » هو في جوهره انحسار عن روح ٦ أكتوبر الثورية ، لا يزال القلب العربي يلتهب ...

لا تزال الاشتباكات على حدودنا المتاخمة لـ «اسرائيل» تدور... ليست حرباً لكنها مثل فوهة البركان الملتهب الذي ينم عما في جوفه من حمم ونيران مضغوطة وخبيئة ...

الاشتباكات اليومية هي إيقاع جو الحرب الذي لا يمكن أن يتوقف دون التوصل الى سلام عادل ترضاه الشعوب العربية ...

* * *

الى الصديقة التي لا أجرؤ على ذكر اسمها خوفاً عليها من سلطات الاحتلال في فلسطين ، الى التي كانت رفيقتي في الجامعة الأميركية ثم عادت الى القدس ، وسقطت في فخ الاحتلال حين سقطت القدس ... وصلتني رسالتك عن طريق خالك في اسبانيا . وقد سافرت أكثر من مرة، وكتبت لك أكثر من مرة، ولكنني عجزت عن ايداع رسالتي اليك في صندوق البريد ... اغفري لي ، فيدي ما زالت عاجزة عن كتابة عنوانك على الظرف ! .

يدي ما زالت عاجزة عن كتابة عبارة : « أورشليم — إسرائيل » بدلاً من : القدس — فلسطين ! .

٢٥ / ٢ / ١٩٧٤

مسافر إلى سيرك الغرب !

وأنا أتأمل صور سولجنتسين بعد خروجه من وطنه روسيا ، وأنا أتأمله يتناول طاقات الزهور المقدمة اليه في ألمانيا الغربية ، وشوك الحزن يغزو وجهه، ثم يرحل الى سويسرا وفي عينيه ينمو حزن عميق ، والناس والصحافيون يحيطون به كأنه دب قادم من روسيا الى سيرك العالم الغربي ، لا أدري لماذا تلح علي أبيات قصيدة شاعر يوناني اسمه كافافي يقول فيها :

وتقول لنفسك ، سوف أرحل .
الى بلاد أخرى ، الى بحار أخرى ،
الى مدينة أجمل من مدينتي هذه .
لا أرض جديدة يا صديقي هناك .
ولا بحر جديداً : فالمدينة سوف تتبعك .
وفي الشوارع نفسها سوف تهيم الى الأبد !
وفي البيت نفسه سوف تشيخ وتموت !
لا سفن هناك تجليك عن نفسك .
آه ! ألا ترى انك يوم دمرت حياتك
في هذا المكان ،
دمرت قيمة حياتك ،
في كل مكان آخر على وجه الأرض ؟ ! .

* * *

أليس هذا ما تقوله عينا سولجنتسين في صور ما بعد الخروج من وطنه روسيا ؟ ..

٥ / ٥ / ١٩٧٥

القتل الصامت

النجم الذي بدأ يسطع في سماء اميركا المسرحية اسمه ويليام كالي .

شكسبير الاميركي هذا ، لم يكتب مسرحية خالدة ، وليس ممثلاً مبدعاً ، وليس وسيماً ، وليس مثقفاً خارقاً ، لكنه بدأ يظهر على أغلفة المجلات هناك ، (مجلة روك أوفر) ، ويبعث من اسطواناته التي يروي فيها حكايا مغامراته مئات الالوف ، وقد جمع حتى الآن ثروة صغيرة وينتظر أن يصبح قريباً من أصحاب الملايين ... فماذا فعل ويليام كالي ؟ (هل بينكم من يذكر هذا الاسم ؟) ... وما هي عبقريته التي قذفت به في غضون شهور إلى مصاف نجوم اميركا ؟

عبقريته هي انه قتل ٤٠٠ امرأة وطفل ورجل مدني !

يوم ٦ آذار (مارس) ١٩٦٨ دخل الملازم ويليام كالي (النجم حالياً) ورفاقه من الجنود الاميركيين قرية ماي لاي بفيتنام الجنوبية ، وهناك أبدى نشاطاً فائقاً على صعيد المذبحة ، فتمّ في ليلة واحدة ابادة ٤٠٠ شخص مدني من سكان القرية ...

ويومها ثارت شبيبة اميركا ، وكل محب للسلام والانسانية لم يخدر النظام ضميره ، واصبحت قرية (ماي لاي) رمزاً لبشاعة ما اقترفته بلادهم بحق شعب فيتنام وبقية شعوب الارض الاخرى ...

ومثّل يومئذ الملازم ويليام كالي أمام محكمة عسكرية وجهت اليه تهمة قتل ٢٢ شخصاً على الأقل وحكم عليه بالسجن المؤبد وذلك عام ١٩٧١ .

ولكن الحكم لم يكن سوى عملية تخدير لضمير الأمة على الطريقة الاميركية ...

وبكوكتيل من الألاعيب القانونية (في البداية اوقف نيكسون تنفيذ الحكم ثم خفض مدته إلى ٢٠ سنة ثم إلى ١٠ سنوات ثم جاءت محكمة جديدة طعنت في حكم المحكمة الاولى إلى آخره ...) ، المهم ، تم إطلاق سراحه ... وانطلق يتمتع بحماية اليمينيين في اميركا ، وتحول إلى نجم يعتاش من سرد مغامراته في فيتنام بعد ان تبنته

وسائل إعلامهم ، وأبرزته في احاديث صحفية واحاطته بفرقة مسرحية .

وصار السفاح نجماً ، يقف كل ليلة على المسرح ليروي للناس فظائعه في فيتنام ، ويغني حرب اميركا البشعة كما كان هوميروس الشاعر العبقري يغني حروب طروادة.. ولكن « الالياذة الاميركية » مليئة بالمخازي ، وأبشع ما فيها ان راويها هو سفاحها الذي يعتاش من عرض يديه الملوثتين بالدماء على الجمهور ... وان « هوميروس عصر الفضاء الاميركي » هو وحش بشري صنعه النظام الأميركي وتبناه .

وهكذا نجد ان الجريمة في عصرنا هي المهنة الاولى الرابحة ... ومن يدري ، فقد يتم إصدار جوازات سفر تفوق بأهميتها جوازات السفر الديبلوماسية ، تدعى « جوازات سفر سفاحية » وتكون خاصة بالذين يمتهنون « المجازر الرسمية » .. ويوضع فيها إلى جانب صورة حاملها والاسم والمهنة وطول القامة ولون العيون ، عدد الذين استطاع السفاح إنجاز مهمة قتلهم بنجاح ... ومن يدري ، فقد تستحدث اميركا وساماً خاصاً تدعوه وسام « المجزرة » ، مقابلاً « لوسام الفرسان » في البلدان الاخرى ، ويرصع الوسام بنجوم ماسية ، وتُعطى لحامله نجمة عن كل جثة ! ..

* * *

في العدد الأخير من مجلة « شتيرن » الألمانية تحقيق مصور عن فرقة خاصة من فرق الجيش الاميركي هي فرقة « القتل الصامت » التي تتدرب في « شاطىء الشياطين » في باناما . وكل دورة تتألف من ٨٠٠٠ انسان بريء (وكل الناس يولدون ابرياء) يتم تحويلهم في « قلعة شيرما » إلى ٨٠٠٠ فرانكشتاين بعد دورة تستغرق أسابيع عديدة ... ويتم خلال هذه الدورة غسل دماغ الفتيان من القيم الانسانية ، وتنمية الغرائز الوحشية والحيوانية فيهم بحيث يصيرون مهيئين للقيام بمذبحة في أية قرية يحتلونها في المستقبل ... ومما لا شك فيه ان السفاح النجم ويليام كالي قد خضع ذات يوم لتدريبات من هذا النوع شعارها « لا تفكر . نفذ ثم مت » . والمأساة ان الذين يفكرون ويخططون لأدوات الدمار البشرية تلك هم ساسة ماتت ضمائرهم ونبتت مخالبهم المخبأة جيداً خلف قفازاتهم البيض ... ان قلعة شيرما هي قلعة الطبيب المجنون الذي صنع الوحش البشري فرانكشتاين والتي طالما شاهدناها في افلام الرعب .. والفرق الوحيد هو أن مجنون الأدب والسينما أنجز وحشاً واحداً روّع قريته ، اما مجانين السياسة الاميركيين فإنهم يخرّجون اجيالاً من فرانكشتاين باسم الوطن ، ويطلقونهم في أوطان الشعوب الآمنة ليصنعوا أكثر من مذبحة وأكثر من « ماي لاي » ... ويخلّفوا جثث الاطفال معلقة

فوق الاشجار في الحقول ثماراً دامية للعنة هذا العصر البشع ...

لقد قال ويليام كالي في اثناء محاكمته : « لقد دربوني لكي أبيد الناس . دربوني لأقتل . لقد أفهموني بصورة لا تقبل الشك ان الابادة والقتل لا يشكلان خرقاً لقانون الاخلاق . فماذا فعلت سوى انني أديت واجبي ؟ » ..

* * *

فرقة « القتل الصامت » ... تأملت صور افرادها جيداً ... فمن يدري .. قد تكون وجهتهم المقبلة فلسطين لتعزيز اغتصاب «اسرائيل» لها ومساعدتها على تحقيق أطماعها التوسعية في الوطن العربي ..

تأملوا صورهم مثلي إذا وقعت في أيديكم مجلة « شتيرن » ... فقد يكون موتي أو موتك أيها القارىء على يدي واحد منهم ...

وقد يلمع أحدهم بعد أعوام كنجم اميركا السينمائي الاول ... كما حدث للملازم كالي ... فرانكشتاين عصر الفضاء !

٨ / ١٠ / ١٩٧٣

عودة بشعة للأميركي «الجميل» !

الليلة ، شعرت للمرة الاولى ، وأنا اشاهد فيلماً ، بالحاجة إلى الصفير واطلاق بعض العيارات النارية على الشاشة من مسدسي « غير المرخّص » ، بل حمل مقص أطعن به صور الممثلين ، والقاء بعض قنابل الروائح الكريهة في صالة السينما لان أية رائحة لن تكون أشد قبحاً من رائحة الفيلم المعروض !

فـ « السفالة » السينمائية السياسية تحرض الانسان أحياناً على معاملتها بالمثل ! ..

وتزييف التاريخ وتمجيد « فضائل واخلاق » بعض الشعوب الاستعمارية على حساب الشعوب الطيبة النامية أمر أشد فظاعة ، في نظري ، من الافلام الجنسية التي تسارع رقابتنا إلى منعها ، بغض النظر عن قيمتها الفنية ، كما لو أن جسد امرأة عارية أشد خطراً على أمتنا من الافكار السياسية الهدّامة !

اسم هذا الفيلم الذي عرضته احدى صالات بيروت ، خلال أسبوعين متواصلين ، « الشارة ٣٧٣ » .

وهو يروي حكاية ضابط شرطة أميركي ، يلاحق مدمني المخدرات القادمين من بورتوريكو . والبورتوريكيون في أميركا هم من البروليتاريا الرثّة والاقليات البائسة ، ويلقون — كزنوجها — معاملة غير انسانية ! وفي احدى هذه الجولات البوليسية يحاول مدمن بورتوريكي الهرب فيلقي بنفسه من على السطح فيقتل ويُعتبر الشرطي الاميركي « البريء » ، ذو الرقم ٣٧٣ ، مسؤولا عن قتله . وتتدخل «العدالة» الاميركية ، ويتم توقيف الشرطي عن عمله ريثما تُشكل لجنة تحقيق تبت في أمره ، خصوصاً ان هياج البورتوريكيين بلغ ذروته . وبعدها بأيام يجدون صديق الشرطي (وهو أيضاً من رجال الشرطة البيض) مذبوحاً بوحشية . وهنا يثور الشرطي ٣٧٣ ويعمل لكشف الجريمة رغم كونه خارج سلك الشرطة . ورغم كل ما يتعرض له من ضرب وتعذيب على يد الاقلية البورتوريكية « المنحطة » ، نجده ينتصر في النهاية

ويكشف « مؤامرة » ضد اميركا ، وصفقة سلاح يحاولون شحنها إلى بلادهم في بورتوريكو للقيام بالثورة وتحرير الارض . الفيلم يرسم لنا صورة الشرطي الاميركي النزيه الاخلاقي في مواجهة « الثوار البورتوريكيين » الذين يقدمهم لنا في أبشع صورة . ففي هذا الفيلم نجد الثائر « مجنون عظمة » ورفاقه مهووسين بالجنس والمخدرات وفكرة الثورة « صبيانية » وهو يصوّر عذاباتهم بصورة كاريكاتورية ساخرة ...

وعلى طريقة أفلام الهنود الحمر ورعاة البقر ، نجد الآن راعي البقر الاميركي متقمصاً صورة عصرية هي الشرطي النيويوركي ، ونجد « الهنود الحمر » ، الاقلية ، في صورة الاقلية البورتوريكية ، وطبعاً يتم حصدهم بالرشاشات على يد الشرطي المغوار كما لو كانوا سرباً من الذباب ، تماماً كما كانت تتم إبادة الهنود الحمر في الافلام التقليدية العتيقة ! .. جميع السود في الفيلم اشرار . وجميع البيض في الفيلم أبطال يتمتعون بكل مزايا أسطورة عبقرية الفرد الاميركي وتفوّقه على شعوب الارض كلها ! .. حتّى رجل الشرطة الاسود ، ذو الاصل البورتوريكي ، يجعل منه الفيلم قاتلاً لصديقه رجـــل الشرطة الابيض . هذا التمييز الفاشي العنصري نجده حتّى على صعيد الغواني ! فالاميركية البيضاء نجدها في الفيلم تتحول إلى سيدة فاضلة تستشهد دفاعاً عن اميركا « العظيمة » ، اما المومس التّي تموت غارقة في أفيونها وعارها فهي سمراء ملونة من أصل غير جرماني ! كل البيض في الفيلم نبلاء يحبون أولادهم ويحرصون على سعادتهم ، وحتّى الابيض الوحيد في الفيلم الذي « يزل » ويغرر به السود ، انما يفعل ذلك من اجل اعالة أسرته ، ويدفع حياته ثمناً لخطيئته الزوجيـــة والمسلكية (وربما يفعل ذلك لانقاذ ما يمكن انقاذه من تحامل الفيلم على السود !) ولكن الفيلم لا يفسر لنا سبب ضائقته المالية ، خصوصاً ان زميله الشرطي (من المفروض ان راتبهما واحد) يمتلك سيارة أميركية فخمة هائلة الضخامة حرص المخرج على استعراضها في كل لقطات الفيلم دلالةً على « عظمة » الصناعة الاميركية أيضاً ! ..

منذ أعوام أغرقتنا السينما الاميركية بأفلام تتحدث عن « المجد الاميركي ، العظمة الاميركية ، التفوق ... الخ ، الاسطوانة اياها » في اطار أفلام « الهنود الحمر » ، تسوّغ الابادة الجماعية لذلك الشعب الآمن ... وتربينا ونحن نشاهد هذه الافلام المزوّرة للتاريخ . واليوم تبدأ أميركا باصدار دفعة جديدة عصرية من الافلام تؤدي اللعبة القديمة نفسها . ولأن لعبة الهندي الاحمر « البشع » انكشفت للعالم ، لجأت هوليوود إلى لعبة جديدة تتلاءم وأحداث العصر ، فعادت تعرض لنا صورة « الاميركي

الجميل » الذي يحارب « الثوار البشعين » وشعوب العالم النامية ، وينتصر عليهم ويبيدهم مصورةً هذه الابادة كما لو كانت عملا أخلاقياً له مبرراته « الانسانية » ، وذلك في سلسلة أفلام جديدة شاهدت بعضها مؤخراً — وكلها تسخر من ثورات العالم الثالث وثواره — وكثرتها تدل على أن الامر قد لا يكون مصادفة وانما نتيجة سياسة اعلامية مدبّرة ... واذا كان اختراع السيتما انتصاراً علمياً كبيراً ، فانه من المؤسف توظيف الحضارة في خدمة الحقارة ، وفي محاولة لتسويغ اضطهاد أميركا للأقليات ، والسخرية من الثورة والثوار والحرية وحق الناس في أرضهم ...

لقد كنت دائماً ضد فكرة « منع » أي فيلم أو كتاب أو منشور ... كنت دوماً أؤمن بأن مساوىء اطلاق الحرية أقل من مساوىء كبتها ولجمها ...

ولكنني اقترح « مقاطعة » هذا النوع من الافلام الاميركية ، وأن يتم ذلك بناء على موقف واعٍ للمستوردين ولو كلّفهم الامر بعض الخسارة المادية ، لأن عرض هذه الافلام الدعائية الاعلامية المضلِلة جزء من الحرب ضدنا ، وبالتالي فان في عرضها خدمة لاميركا ، ولأنه في حال تحقيق هذه المطامع لن يبقى لأحد منا أرض أو نقود ... ولأننا جميعاً مرشحون — مع شعب فلسطين — لنكون « الهنود الحمر » في الارض العربية ! ...

١٢ / ١١ / ١٩٧٣

إنه ثمن رصاص لرؤوسنا !

وجسر النار ممدود بين اميركا واسرائيل ، جسر من العداء للعرب تعبر عليه كل يوم آلاف الاطنان من ادوات الدمار المعدّة لقتلنا ... وفي كل يوم ، كل يوم تقلع أكثر من طائرة تحمل آخر مبتكرات الاسلحة الاميركية للابادة ، هذا بينما نكون نحن منكبّين على شراء آخر مبتكرات السيارات الاميركية وغيرها من المنتجات ، كأننا ندفع ثمن صناعة الاسلحة المشحونة لقتلنا !

أتساءل ، والولايات المتحدة الاميركية اليوم عدونا المباشر ، حتامَ نساهم في بناء اقتصادها الذي صار مكرّساً لتدمير وجودنا ؟ ! .

هل نستطيع بعد اليوم ان نرى سيارة اميركية الصنع دون ان نتذكر الدبابات الاميركية الزاحفة في سيناء والجولان تحاول تدميرنا ؟ !

هل نستطيع ان ندخن لفافة تبغ اميركية دون ان نحسها وقد استحالت فجأة بين أصابعنا اصبع ديناميت يفجر تسامحنا امام مصنوعات عدو بلادنا ؟ ! .

هل نستطيع ان نرشف بعد اليوم قطرة خمرة اميركية الصنع دون ان نحس بدوار بائس كالدوار الذي يعانيه العرب حين تنفجر قنابل الغاز الاميركية الصنع في غرف اطفالهم ؟! .

هل نستطيع ان نشتري دمية لأولادنا من صنع اميركي دون ان نتذكر القنابل الاميركية المصنوعة على شكل دمى والتي كانت الطائرات الاسرائيلية تمطر بها اطفال المدن السورية والمصرية هدية من « بابا نويل » الاميركي ، وما يكاد الطفل يهرع اليها فرحاً حتى يموت وقد تحجرت على فمه صرخة زرقاء محترقة تشبه الابتسامة ... انها الابتسامات التي يرسمها « بابا نويل الاميركي » على شفاهنا ؟ ! .

وحينما نمسك بآلة كاميرا من صنع اميركي ، نضعها على عيننا في محاولة لالقاء القبض على لحظة سعادة ، هل نملك بعد اليوم إلا ان نتذكر عشرات العيون الاسرائيلية

الملتصقة بعدسات اميركية الصنع على المدافع والبنادق المعدّة خصيصاً لإطلاق النار على لحظات السعادة لكل عربي ؟ ! .

هل نستطيع ان نلتهم بعد اليوم المعلبات الاميركية دون ان تسقط في احشائنا كالسم ، وتنفجر بين أيدينا كاللعنة ، لان صانعي هذه « الأطايب » يحصدون ثمن معاملهم من جوع الفقير العربي ؟ !

٧ / ١١ / ١٩٧٣

جائزة نوبل للسلام لطائرة فانتوم العدوان !!

بينما كانت مئات الطائرات الاميركية تنقل أسلحة الموت والدمار إلى «اسرائيل» كي تتابع افتراسها للشعوب العربية ، وبينما كان الرئيس نيكسون يعلن الحرب على العرب بلغة دبلوسية تكتفي مفرداتها بالتحدث عن حماية اسرائيل التي « وجدت لتبقى » ... إلى آخر المعزوفة الاميركية العدوانية ، وبينما شعوب العالم الحر تستنكر ذلك كله ، وبينما الاميركيون المقيمون في الشرق الاوسط ينطلقون صوب سفارتهم في بيروت في مسيرة رفض لسياسة جلادي بلادهم ، وقد حملوا اللافتات : «واشنطن لقد ابتاعك الاسرائيليون» — « هنري كيسنجر ، مارس الحب لا الحروب » — « العرب لهم الحق في أراضيهم » ... وبينما الحرب العدوانية التوسعية الاسرائيلأميركية تقوم بمزيد من غارات اغتيال الطفولة والانسانية والعدالة ، بينما ذلك كله يدور على مرأى ومسمع من العالم ، طلعت علينا وكالات الانباء بالخبر التالي : مُنح الدكتور هنري كيسنجر وزير الخارجية الاميركية جائزة نوبل للسلام !!! أجل للسلام !!!

للوهلة الاولى يبدو الخبر شبيهاً بنكتة سمجة على الطريقة الاميركية (براكتيكل جوك) ... نكتة ؟ بل مهزلة ! انها لمهزلة ان تمنح جائزة نوبل للسلام إلى برميل من الديناميت !!! فالمعروف أن العالم نوبل ، الـــذي اخترع الديناميت T. N. T ذات يوم ، قرر أن يكرس كل ما يملك تكفيراً عن خطيئة إمكانية استعمال الديناميت ضد الانسانية ... وقرر انفاق كل الاموال التي كسبها من اختراع الديناميت على كل ما من شأنه تعزيز السلام والعدالة ، ومن هنا كانت جائزة نوبل للسلام . وبعد حرب (حزيران ٦٧) بأشهر ، تم منح جائزة نوبل للكاتب الاسرائيلي اجنون ! وكانت صدمة للعالم الحر ، فقد كانت لجائزة نوبل يومئذ هالتها كقيمة إنسانية ... وطرحت يومها تساؤلات كثيرة عن الاعتبارات (غير الانسانية) التي لعبت دورها كي تمنح جائزة نوبل لبرميل من الديناميت !!!

وظلت هناك فئة من حسني النية أشادت « بالأسلوب الادبي الجميل » لأجنون ، ورغم يقيننا بان الأسلوب امتداد للفكر ووعاء له ، وبالتالي ليس هنالك أساوب جميل إذا كان المضمون عدوانياً ولاانسانياً ، مع ذلك سكتنا ، بل كدنا ننسى لأننا بدلاً من مقاطعة جائزة نوبل عدنا نتحدث منذ أشهر عن ترشيح كتّاب عرب « للفوز » بها ...

اما الآن ، فما هو المبرر لمنح وزير خارجية اميركا ، أي المنفّذ لسياستها العدوانية المغتصبة ، جائزة السلام ؟ ؟

صحيح أن الجائزة منحت مناصفةً بينه وبين لي دوك ثو ، الثوري المناضل المقاتل الذي أجرى وإياه محادثات أدّت إلى اقرار السلام في فيتنام ، ولكن هل يشفع ذلك لكيسنجر الذي أغلق فيتناماً ليفتح في أرضنا فيتناماً أخرى ؟ كيسنجر يصافح لي دوك ثو بيد ويعطي الإشارة للطائرات الاميركية الألف ، المحملة بالموت ، للطيران إلى شرقنا الأوسط والبدء بحرب عدوانية جديدة ! انه «دكتور جيكل ومستر هايد» السياسة الاميركية ، في يده غصن الزيتون ، وفي الأخرى خنجر يقطر بدم العرب ، فكيف يمنح جائزة نوبل للسلام في اليوم ذاته الذي يبدأ فيه مذبحة « ماي لاي» جديدة ؟ !

لو قدّم كيسنجر استقالته احتجاجاً على شحن الأسلحة إلى اسرائيل لاستطعنا ان نجد مسوّغاً لمنحه جائزة السلام ... ولكن !

ولكن ، اين تعيش اللجنة القيمة على جائزة نوبل ؟ ! هل تعيش في محجر فكري ولا تعرف شيئاً عما يدور على وجه الكرة الارضية ، الذي جرحته عدوانية اميركا في أكثر من موضع ، وتركت فيه ندباً لا تندمل آثارها أبداً ؟ ! .

ألا يقرأ افرادها الصحف ؟ ألا يستمعون إلى الاذاعات ؟ ألم يشاهد أحدهم قط صورة طفل أحرقه النابالم الاميركي في فيتنام أو فلسطين أو سورية أو مصر ؟ هل يظنون ان كيسنجر يشحن على الطائرات الشوكولاته و « البونبون » والدمى لاطفال الشرق الاوسط ، والحمام الابيض وغرسات الزيتون لاهله ؟ ! . — بلى ... كان يشحن لنا الدمى : أميركا تصنع لاسرائيل قنابل على شكل دمى الاطفال : ترمي بها طائراتها ويحترق بها أطفالنا حين يحاولون اللعب بها — . (معلومات من تقرير الاطباء الموفدين إلى سورية) .

* * *

في نطاق اسبوع الاغتراب اللبناني تنظم جامعة اللبنانيين في العالم مهرجاناً لالقاء

الشعر بين الطلاب الثانويين والجامعيين . نعم ! مهرجان لالقاء الشعر ! .. كأن ما يدور بيننا وبين «اسرائيل» هو « مساجلة شعرية » لا حرب بـ « الفانتوم » ! كأننا في سوق عكاظ لا في ساحة حرب ! هذا بينما ينشط يهود العالم لجمع التبرعات وقد جمعوا مئات ملايين الدولارات في أيام ، وأيام اخرى وتتحول الملايين إلى طائرات وقنابل تمطر فوق سمائنا ، وقد تسقط واحدة منها فوق مهرجان الخطباء ! ما أشد اغتراب المغتربين عن لبنان ! بل ما أشد اغتراب بعض اللبنانيين عن لبنان !

فبينما كان بعضهم مشغولاً في بيروت بانتخاب أجمل كلب وأرشق كلب ، كان عشرات اللبنانيين على بعد بضعة كيلومترات منهم يُحصدون في جنوبي لبنان بمنجل القنابل والموت والدمار ... وينامون وملء افواههم الدماء ...

المهم أن أجمل كلب نام ليلتها وفمه ملآن بالحلوى ! ..

۲٤ / ۹ / ۱۹۷۳

المازوشية العربية والسادية الإسرائيلية

«انني اتهم عباس محمود العقاد بالسرقة الادبية ! » ، قالها أديب معروف واسترخى في كرسيه متخماً بالرضى عن الذات والنوم ، وكأنه « ادى قسطه للعلى » ! واقبل بقية رفاق السهرة عليه مستفسرين . كيف ؟ وأين ؟ قال بطمأنينة : هل قرأتم رائعته « سارة » ؟ وهل قرأتم رواية « نهاية علاقة » لجراهام جرين ؟ ما رأيكم في هذه السرقة الأدبية المفضوحة ؟ ! وعدنا إلى دهاليز الذاكرة ، ولم يجد الذين قرأوا الكتابين (« سارة » للعقاد و « نهاية علاقة » لجراهام جرين) مفراً من الاعتراف بالتشابه الهائل بين القصتين ، واتخذ الجميع قراراً بالاجماع بإدانة عباس محمود العقاد بالسرقة الادبية وانفضت السهرة ، وذهب قضاة الادب ومحلفوه للنوم بضمائر أدبية قريرة العين ! ..

وعدت وسؤال واحد يعذبني : لماذا قررنا جميعاً ، دون أن يرف لنا هدب ، ان عباس محمود العقاد سرق قصته « سارة » من جراهام جرين ، دون أن يخطر ببال أحدنا احتمال آخر هو ان يكون جراهام جرين هو الذي سرق قصته من العقاد ؟ العقل العلمي الحيادي المتجرد يجب أن يفترض ، أمام حالة كهذه ، ثلاثة احتمالات ويحقق فيها :

۱ ــ أن يكون العقاد قد سرق « سارة » من جراهام جرين .
۲ ــ أن يكون جراهام جرين قد سرق « نهاية علاقة » من العقاد .
۳ ــ ان لا يكون أحدهما قد اطلع على نتاج الآخر ــ أي أن يكون هنالك توارد خواطر ــ أو أن يكون كلاهما استقى فكرة روايته من مصدر ثالث مشترك .

وعدنا إلى الكتابين ، فوجدنا أن العقاد كتب « سارة » قبل أن يكتبها جراهام جرين بعشرة أعوام ، وهذا معناه انه إذا كانت هنالك « جيمسبوندية أدبية » فبطلها هو الأخ جراهام !

المهم ليس التساؤل هل اطلع جرين على « سارة » للعقاد ، وهل هي مترجمة

للانكليزية أم لا ، وهل في الامر سرقة أم توارد خواطر .

لا ، المهم في نظري ظاهرة إدانة عباس محمود العقاد لمجرد أنه كاتب عربي ، ولمجرد ان جراهام جرين أجنبي !

المهم تلك البساطة التي تمّت بها ادانته من قِبل جمع المثقفين ، كما لو كان الامر بدهياً ولا يحتاج حتّى إلى نقاش !

المهم التنبيه إلى خطر السقوط فريسة عقدة النقص أمام الاجنبي ، وهي ظاهرة خطرة في مجال الادب ، وغير الادب .

بعد ٥ حزيران كان همنا نقد الذات كردّة فعل على نغمة تمجيد الذات الخطابية التي عشنا في خدر حشيشها بعد هزيمة ١٩٤٨ ... كانت ردة الفعل يومها خاطئة ، وعاش العربي في وهم العظمة ، ورقص أعواماً على ألحان « أمجاد يا عرب أمجاد » ، حتّى كانت هزيمة ١٩٦٧ ... ويومها صار شعارنا إحراق الاقنعة ، وكان ذلك ضرورياً . وصرنا نحاول كشف عورات الانسان العربي والحكم العربي ، وكان ذلك ضرورياً . ولكن يبدو اننا بالغنا في ذلك بقدر ما بالغنا قبل ١٩٦٧ بالحرب الخطابية ، حتّى كدنا نسقط بعد ١٩٦٧ في فخ هزيمة أخرى خطابية . وانتقلنا من موّال تمجيد الذات المبالغ به إلى موال تحقير الذات المبالغ به .

وعاماً بعد عام ، كاد يرسخ في أذهاننا ان التخلف العربي أمر بدهي لا يناقش — التخلف الأدبي والاقتصادي والعسكري — وترسخت في الأذهان أسطورة التفوق الاسرائيلي « الكومبيوتري » الذي لا يُقهر ...

لا . لا . لا .

اننا نتحدث عن عظمة بعض الادب الغربي كي نتعلم منه ونتفوق عليه ، لا لنصاب بعقدة نقص امامه .

اننا نتحدث عن عدونا الاسرائيلي واستعداداته العسكرية كي لا نكرر غلطة ما قبل ١٩٦٧ ، ولأن المبالغة في تقييم قوة الخصم خير من الاستخفاف الخاطىء به .

ولكن حذار من ان يتحول تقييمنا لقوة الخصم إلى أفيون أكثر خطورة من أفيون الاعتداد الخطابي بالذات ، وهو افيون التوهّم بأن العدو لا يقهر ، وبأن « الفانتوم » الاسرائيلية لا تُواجَه ، وبأن أي أديب غربي هو أفضل من أي عبقري عربي !

يبدو أن علينا أن نحذر من خطر الاسترسال في نغمة تقريع الذات وتحقيرها . فالمازوشية العربية ستجد السادية الاسرائيلية لها بالمرصاد .

٢٨ / ١ / ١٩٧٤

أعيدوا الشمس والفرح والحب إلى الثائر !

كاتب عربي ، ربع مشهور ، صرح لاحدى المجلات بأن دور النشر في بيروت رفضت نشر مخطوط رواية له لأنها « ثورية ! » . . .

أيتها الثورية ، كم من الجرائم الأدبية ترتكب باسمك !

فقد كان من سوء طالع الاديب انني اطلعت على مخطوط روايته لدى صديق مشترك ، وبالصدفة وأذكر بوضوح انني قلت يومئذ لذلك الصديق : « انها رواية تسيء في نظري إلى الثورية لما تتضمنه من سماجة وثقل دم ! »

... اجل ، سماجة . هذه هي الكلمة ، وما كنت لأكتب هذه السطور لو لم تكن هذه الملاحظة عامة أكثر منها خاصة تتعلق بكاتب معين .

... اريد ان اسوق هذه الملحوظة العامة التي خرجت بها بعد قراءة عشرات المخطوطات الروائية السياسية مؤخراً .

بعض كتابنا الجدد ، (حتى بعض أصحاب الاسماء المعروفة) ، الذين يتحدثون عن بطل « ثوري » ، يرسمونه على الوجه التالي : سمج . فاقد لروح النكتة . يحتقر المرأة الا في حالات التعاطف « من فوق » . لا يعتمد على رفيقته الثورية ، فهو إما أن يشتهيها أو يشفق عليها ! شخصيته المملة جنازة متحركة .

وبعض كتابنا الذين يدعون أن رواياتهم « ثورية » ، وأن دور النشر ترفضها لذلك ، هم في الواقع كتاب لصفحات مملة ، لا علاقة لها بالادب ، وانما هي مجرد محاضر ندوات سياسية وعقائدية ، ومحاضر كل حوار ممل دار بين المؤلف والمنكوبين بمعرفته .

أكثر هذه الروايات موالية تماماً للشعارات الثورية متضمنة لكل لافتاتها وكليشيهاتها ، ولكنها فاقدة لأية روح فنية ولأية شرارة ابداع . فالمنشور السياسي ، مهما كان نبيل الغاية والاتجاهات ، ليس فناً !

وهذه الكلمات أخطها لأحذّر شبابنا الطالعين من الخلط البشع بين البيانات والفن، بين النشرات السياسية والفن ، بين الشعارات والفن .

على انه من البدهيات ان السياسة ليست خارج الفن ، لان الفن ليس — ولا يمكن ان يكون — خارج الحياة . والنشرات السياسية ليست نشرات جوية عن حالة الطقس في استراليا في القرن الماضي ، وانما هي تعبير — أو بعض تعبير — عن واقعنا العربي المعاصر، ولكن نسخها بإتقان أو إدخالها على حنجرة بطل روائي ميّت روائياً لا يكفي لإبداع ذلك النسيج الحي الخالد المسمى فناً !

إنّ رفع شعارات الثورية ، وترديدها كالببغاوات في عمل روائي على لسان أبطال الرواية ، أمر يسيء إلى الثورية أكثر مما يسيء إلى الادب ! ومطلوب من الثوريين أن يحموا أنفسهم من طفولية الأدب الثوري أكثر مما هو مطلوب من الأدباء حماية ملكوتهم من الدخلاء تحت دروع الثورية !

* * *

فالفن العظيم ليس انعكاساً للواقع بقدر ما هو تبشير بالمستقبل. وليس مطلوباً من الجيل الأدبي المعاصر أن يكون مجرد مرآة عادية للأحداث المعاصرة بالضرورة ، بقدر ما هو مطلوب من روح كلماته ان تكون شبه نبوءة عن المستقبل وتحريض له ، كما هي زجاجة الساحرة الكروية الشفافة .

أجل ! ..

الأدب الثوري الشاب المعاصر — إلا في ما ندر — يزيّف الحياة وبالتالي يخسر الفن والسياسة معاً . إنه يصوّر الثوري في صورة غير جذابة إنسانياً . وأنا أرفض ان تحتكر البورجوازية كل الصفات المحببة ، مثل خفة الدم واللطف والعذوبة والرقة والقدرة على الحب والاستمتاع بالحياة والشمس والفرح ، وارفض كل الروايات التي تصور الثوري إنساناً راهباً متزهاً عن الحب والجنس والفرح والألم والبكاء ... وحتى لحظات الضعف والصلاة !

مطلوب من الرواية العربية ان « تؤنسن » الثائر وتكفّ عن رسمه داخل تلك الهالة اللاواقعية السمجة الغبية ، كما لو انه يقضي وقته كله في المقاهي بالجدل العقيم الممل ، والأحاجي الفكرية ، واتهام كل الناس البسطاء بالخيانة العظمى، بما في ذلك

احتقار والديه ، والتصرف تحت تأثير الاعجاب بشخصية «لامنتمي» كامو الذي يتميز بالذهاب إلى السينما ليلة وفاة والدته !

مطلوب من الأديب العربي إعادة الإنسانية إلى صورة الثائر . إعادة الدمع اليه ، والفرح ، والحب ، والجنون ! .. أي الشعر .

٦ / ١ / ١٩٧٥

نحن زرعنا الشوك !

كثيرة هي المقالات النقدية التي قامت بمراجعة لفن ٦ اكتوبر ، أي الاعمال الفنية التي تستوحي ذلك الحدث التاريخي المهم . وقد اطلعت على معظمها ، وكان القاسم المشترك الذي يجمع بين تقويم أكثر النقاد للنتاج العربي في هذا المجال ان فن ٦ اكتوبر كان على صعيد المسرح والسينما سيئاً وفاشلاً ، وأن حاله على صعيد الأدب لا يثير الحسد ! وكان كل ناقد يحصي العوامل العديدة التي سببت نكسة الفن في اكتوبر — وهم على حق في رأيهم وفي أكثر الملاحظات التي أبدوها — غير انهم جميعاً نسوا عاملاً مهماً واساسياً أسهم في الدرك الذي انحطت اليه الحالة الفنية ، ألا وهو مسؤوليتهم هم شخصياً عن هذا الحصاد الفني الرديء !

من الواجب تذكير النقّاد بالخطأ النقدي البالغ الذي ارتكبوه — وما زالوا — منذ هزيمة ١٩٦٧ ، ذلك الخطأ المسؤول في نظري — ولو جزئيـاً — عن تدهور الفن « الملتزم » ، وبالاحرى عن تحوّل الالتزام إلى هاوية خراب فني بدلاً من قمة عطاء...

ان من يتابع النقد الفني الذي يُكتب في الصحف والمجلات « الملتزمة » وغير الملتزمة يلحظ إلحاحاً من بعض الذين نسميهم — تجاوزاً — بالنقاد على امتداح الاعمال ذات « المضمون التقدمي » بغض النظر تماماً عن قيمتها الفنية . كان هناك باستمرار انحراف مؤسف نحو القبول بالتقريرية والمباشرة والخطابية ، ولو تم ذلك كله في اطار من الركاكة الفنية. ولما صدرت قصص هي أشبه بمحاضر الجلسات الحزبية صفقت لها جوقة نقاد « الالتزام » دون مراعاة الحد الأدنى من الاعتبارات الفنية التي يفترض توافرها في أي عمل فني .

وهكذا فسد جيل من الشبان الناشئين ، وصارت أنظارهم موجهة نحو تضمين أعمالهم أكبر عدد ممكن من الكليشيهات والشعارات المرضي عنها من قبل اولئك النقاد ، وكأن كل وطني هو فنان بالضرورة ، وكل تقدمي مخرج سينمائي ، وكل

حزبي مسرحي أو شاعر ! لقد تغاضى اولئك النقاد كثيراً عن المقاييس الفنية ، عن الموهبة ، عن الأصالة ، عن شرارة الابداع ، وصاروا يتحدثون عن الأدب كما لو كان خطبة في مؤتمر سياسي ! وشاعت مفاهيم كثيرة خاطئة . كان الخطأ الأساسي هو في سوء فهم معنى الالتزام ، وبالتالي العلاقة بين الأدب والحدث السياسي .

بعد ٥ حزيران ، صار كل فنان مطالباً بالتعبير عن ذلك الحدث الحربي ، ولو بشكل فجّ ومباشر ، وإلا اتهم بعدم الانفعال مع قضايا الجماهير . بعد ٦ اكتوبر تمت إدانة كل الذين « انفعلوا » مع القضايا الجماهير في هزيمة حزيران ، وصار مطلوباً منهم فوراً تبديل قناعهم الحزيراني بقناع اكتوبري . ولدت تسميات لا علاقة لها بالفهم الصحيح لروح الفن ومهمته . فالفنان ليس مجرد « كومبيوتر » نحشوه بالمعلومات « الهادفة الملتزمة » ونتلقى منه فوراً الاجوبة المطلوبة . وعملية الخلق الفني قد تستغرق أعواماً طوالاً . والالتزام لا يعني بالضرورة التسجيل الحرفي لأحداث العصر ، بل المهم في العمل الفني هو أن يكون عملاً فنياً أولاً . فكل عمل فني جيد هو بالنتيجة ملتزم بموقف إنساني ولكن على طريقة الكاتب الفذة الرافضة لكل الشروط المسبقة .

لنأخذ الكاتب الروسي العظيم نيقولاي غوغول مثلاً . ان كتابه « تراس بولبا » هو نموذج للأدب المقاوم الثائر ، المليء بالثورة على الاضطهاد والظلم وكل البشاعات التي تقف في وجه الحب والفرح والطفولة .

صدر الكتاب عام ١٨٤٣ ، وهو لا يروي حكاية « نكسة » أو « انتصار » حدث قبل صدور الكتاب بعامين أو خمسة أعوام ، بل اختار مؤلفه تصوير حقبة من تاريخ شعبه تعود إلى عام ١٥٦٩ (أي قبل ٣ قرون من ولادته) وقد وجد في نضال الشعب الروسي وفلاحيه الاوكرانيين ضد الاقطاع البولوني وتسلطه في ذلك الوقت الاطار الذي تدور فيه احداث قصته الهادفة ، دونما ارتزاق مدّعي الثورية ، ودونما استجداء لتصفيق عملاء السلطة أو بعض نقاد العصر القصيري النظر النقدي .

فالالتزام ليس إلزاماً بأحداث معينة وانما هو روح ثورية تفيض من العمل المبدع الذي يمكن ان يكون قصة حب أو حكاية قط (كما في كتاب « جيني » لبول جاليكو) أو حكاية طائر (كما في كتاب « جوناثان ليفنغستون النورس » لريتشارد باخ) ، وغيرها من الادب العالمي العذب الذي يستطيع حتى الاطفال قراءته والتأثر بروحه الثورية دونما قسر . والخطأ الاساسي الذي وقع فيه بعض النقاد الملتزمين هو التوهم

بأن من ضرورات الأدب الملتزم ما يلي :

١ ـ ان يكون البطل فدائياً أو مقاتلاً أو فرداً في حزب ثوري .

٢ ـ أن يتحاشى الابتسام أو الحب أو المزاح أو الضعف البشري ، حتى كاد يرسخ في أذهان القراء ان الثوري هو بالضرورة سمج وثقيل الدم وبليد العاطفة !

٣ ـ ان يكون حواره باستمرار خطباً وطنية ، ومن الضروري ان يلقي في المطبخ على زوجته باستمرار مواعظ فكرية عن استراتيجية المعركة وتكتيكاتها ومن الأفضل ان يباشر ذلك منذ ليلة العرس ! وفي اختصار ، وقع أكثر نقادنا في الخطأ الذي حذّر منه ارنولد ويسكر ، المسرحي البريطاني اليساري المعاصر ، حين قال : « الهزء والسخرية ، اللذان صبغ « الاشتراكيون » بهما دراسة الآلام الشخصية في الحقل الفني ، ساعدا على خلق صورة للثائر غير إنسانية تعوزها حرارة القلب . وقد يكون هذا هو السبب في ان الكثير من اليساريين يظهرون حيال الفن والفنانين الموقف الطهراني (البيوريتاني) ذاته الذي يقفه عدد لا يحصى من البورجوازيين الصغار الضيقي الأفق . »

وهكذا نجد ان أكثر نقادنا من « الملتزمين » صغّروا افق الفن الرحب ، ورسموا عليه إطاراً من الشعارات المسبقة بحيث ان كل ما يقع خارج هذا الاطار ليس فناً وكل ما يقع داخل هذا الاطار هو فن ، حتى ولو كان مجرد محاضر جلسات لنقاش فكري !

وها هم اليوم يصبّون جام غضبهم على مسرح وسينما اكتوبر وأدب حزيران والخطأ هو أصلاً في هذه التسمية أو حتى في المطالبة بوجود أدب حزيراني وأدب اكتوبري . هنالك إبداع أو لاإبداع ، وهذا هو الاصل وكل ما عداه يؤدي إلى نتيجة محتومة هي ذلك السيل من الافلام التافهة والمسرحيات المهلهلة « الاكتوبرية » .

وها هم يشكون من حصاد اليوم ، ناسين أن من يزرع الشوك يحصده ، وان بذور السطحية لا تنبت السنديان ! لقد خسرنا الفن ولم نربح السياسة . والسبب نلخصه ببساطة ماوتسي تونغ يوم قال : « الأعمال التي تنقصها القيمة الفنية ، حتى لو كانت ذات صبغة تقدمية ، تظل عديمة المفعول من وجهة النظر السياسية . »

المطلوب ان يعي بعض النقاد مسؤوليتهم عن انحدار « الفن الملتزم » ، وحين يتسلم أحدهم كتاباً ولد مشوّهاً من الناحية الفنية ، فليتذكر مسؤوليته كأب من آباء خطيئة تتفيه الفن العربي في هذه المرحلة !

٢٢ / ٧ / ١٩٧٤

أوجاع ... أدبية !!

الموضة الأدبية اليوم : الشعر الوطني ! ... وأبرز اخطاء المرحلة الأدبية التي نمرّ بها هو التوهم بأن كل وطني شاعر .. وفي مرحلة سابقة كان الخطأ هو التوهم بأن كل عاشق شاعر ...

وهكذا كان كل عاشق يظن ان حرارة انفاسه تكفي لتحول كتاباته من فحم إلى الماس ...

واليوم تتكرر المهزلة ضمن الموضة السائدة أي الوطنية ، وهكذا يتوهّم كل مناضل انه شاعر . (كأنه يكفي المرأة ان تكون مبتورة الذراع لتصير فينوس) ...

وهذا خطأ يشجع على التمادي فيه فئة من الشبان ذات الاتجاه الوطني السليم تكتب « نقداً » ... وهذه مهزلة أخرى ، لانه لا يكفي ان يكون المرء فرداً في حزب أو منظمة ليتم تسليمه باب النقد الأدبي في المنشورة التي تموّلها تلك المنظمة ...

نعود إلى الشعراء ...

الوطنية شيء عظيم . شيء رائع ومهم وضروري .. يستطيع كل وطني ان يكتب منشوراً ، أو خطبة ، أو يخطط للأجيال الصاعدة . ولكن ما كل وطني شاعر بالضرورة .

الشاعر يجب ان يكون موهوباً ، وحُسْنُ الاتجاه السياسي ليس بديلاً عن حسن الموهبة ...

والسؤال هو : من الذي يستفيد من كل هذه المطبوعات السياسية التي تحمل اسم «شعر» على غلافها زوراً وبهتاناً؟وهل التهاون في مجال القيم الشعرية لأجل القيم السياسية يفيد الجيل الذي يقرأ هذا الشعر ؟ ..

اقول لا . بل يساهم في « تتفيه وتضحيل » القضايا الوطنية .

* * *

ملاحظة أخرى ... أو لنقل وجعاً آخر ... لقد بدأت تسري في الآونة الاخيرة في عالم الشعر موضة جديدة وهي كتابة قصيدة غزل رديئة ثم تطعيم بعض سطورها بعبارات قومية وكلملت مثل (أرضي ، وطني . إلى آخره) والادعاء بأن الشاعر يقصد من ذلك إلى التعبير عن حالة شعورية يتحد فيها جسد الارض وجسد الحبيبة وبذلك (يغازل) الحبيبة دون ان يتورط بتهمة انه ليس شاعراً وطنياً ... وقد بدأت أعراض هذه المهزلة تسري مؤخراً .

وهذه الظاهرة أبشع من الاولى ... ففي الظاهرة الأولى هنالك شخص وطني تدفقت مشاعره وظن أن خصب المشاعر يعني انه « شاعر » ... اما في الحالة الثانية فلدينا طائفة من المستغلين الصغار ... إنهم يبيعوننا الوطن معبأ في علبة (كونسروة) الجسد ، ويدغدغون جوعنا الجنسي والوطني معاً ، ويمتصون دم براءتنا وحاجتنا إلى الاثنين : الوطن والجنس ...

إن تمازج جسد الوطن بجسد الحبيبة أمر يحتاج إلى موهبة حقيقية كبيرة كبيرة تتسع لوعي انصهار الاثنين معاً : الوطن والعشق ...

* * *

ومع ذلك ، يظلّ لأصحاب هذه الفئة الثانية عذرهم أيضاً ، فـ « النقاد » ايضاً مسؤولون عن ذلك بشكل غير مباشر .

النقّاد الذين يدعون الغربلة باسم الثورية ، والذين نصبوا صراطهم للأدب في يوم قيامة الثورة ، يبُدون هذه الايام استخفافاً شديداً بكل الاحزان الصغيرة الفردية التي يحس بها الانسان ... انهم يحتقرون الحب : حب رجل لامرأة ، ويقدّسون حب الرجل للارض مع ان الحب وحدة لا يتجزأ والذي لا يحب امرأة لن يحب أرضاً ولا قضية ... وهكذا صار الكتاب يمارسون عملية « اسقاط » سطحية لمشاعرهم ، وبدلاً من مغازلة ذراع الحبيب مباشرة نجد الشاعرة مثلا تتغزّل بذراع الشجرة ، وبدلاً من نقل الاحاسيس الفردية الصغيرة بصدق وأمانة ، صار يتّم تغليفها بأقنعة وطنية كبيرة ... وهكذا أيضاً نخسر الحب ولا نربح الوطن ولا الشعر . .

* * *

كلماتي هذه ليس المقصود منها جرح أحد ، وانمـا ايقاظ الجميع بحنانٍ قدر الامكان !

٢٩ / ٤ / ١٩٧٤

اقرأوا هذا الكتاب القذر !

ذلك المساء ، كان قلبي حزيناً . أكثر حزناً من ان ألجأ إلى الاصدقاء أو المقاهي أو حتى المناشير الاحتجاجية ! فلجأت إلى اول مكتبة بحثاً عن كتاب بوليسي يخدر أوجاعي السياسية وغيرها ريثما ألملم نفسي الممزّقة من على أرصفة الحلول السلمية غير العادلة ، والنظريات الكيسنجرية للقضية الفلسطينية ...

وفي رف الكتب البوليسية لفت انظاري هذا العنوان : « الوباء العربي (*) » !

هل كنت أملك إلا شراءه ، وعلى الغلاف ما يؤكد بأنه رواية بوليسية جاسوسية بيعت منها ٨ ملايين نسخة وتدور احداثها في بلاد العرب ؟ وحين دفعت ثمنه لم أكن أدري انني اشتريت مجموعة من أقذع الشتائم الموجهة لي كعربية .

الرواية باللغة الانكليزية . اسم مؤلفها غير موجود — كأنه خجل مما اقترفته يداه حين كتبها ! — والرواية جزء من سلسلة تصدرها دار نشر اميركية هي (اوورد بوكس) ، وهي مهداة إلى رجال المخابرات الاميركية ! واسم بطلها « نيك كارتر » ، وهو عميل اميركي سري على طريقة جيمس بوند .

وتنبهت حواسي كلها وانا أرى ، منذ الغلاف ، عدوانية هذا الكتاب تجاهي كعربية . فعلى الغلاف صورة أوربية عارية يهيمن عليها رجل في اللباس العربي التقليدي (أين المفر ، وكل ما حولنا استفزازي لعروبتنا ، وكل ما حولنا يحاصرنا بسوء فهمه لأمتنا ؟ !) .

اشتريت الكتاب ، وعدت به لأقضي ليلة مؤلمة ... إن نظرة الغربيين السطحية الخاطئة الينا موجعة . فان كانوا يدرون كم يسيئون إلينا بتلك الكتابات التي تسيء تصويرنا ، فتلك مصيبة . اما اذا كانوا لا يدرون ، فالمصيبة أعظم !

احداث الرواية تدور في إحدى العواصم العربية . والمفروض ان هذه العاصمة

(*) كتاب The Arab Plague من سلسلة العميل السري Nick Carter .

هي حالياً السوق الاولى لبيع الرقيق الابيض ، بل ومركز عالمي يتم استيراد الرقيق اليها من كل أنحاء العالم ! وفي هذه المدينة تتعانق التكنولوجيا مع نظريات العصور الوسطى ، وهكذا يتم شراء النساء وتطويعهن بوسائل تكنولوجية حديثة وآلات عصرية علمية لغسيل الدماغ ، ثم يجري استخدامهن في البغاء ، وبالتالي لأغراض التجسس ... كما لو ان كريستين كيلر عربية ، أو « ووتر – جيت » بدوية الموقع ! ..

ودونما خجل ، يسترسل المؤلف المجهول (وحسناً فعل حين خجل من ذكر اسمه) في ذكر « فظاعات » تلك العاصمة العربية المعاصرة ويشبّهها بهونغ كونغ من حيث الاتجار بالنساء والخمرة والمخدرات والجاسوسية ، مع العلم ان هذه العاصمة العربية تمثل مركزاً دينياً اسلامياً له حرمته لدى العرب . وأحد مشاهد المطاردة البوليسية يدور وسط موكب الحجاج المسلمين ، حيث يتنكر المجرم بزي حاج ، ويتنكر العميل الاميركي بزي امرأة محجبة ، ويتم التشنيع على الحجاج المؤمنين في فصل كامل يسخر من شعائر المسلمين الدينية . كما يرسم الكتاب صورة غير حقيقية لعالم الاتجار بالرقيق في وطننا العربي ، صورة وهمية لعالم الحريم والخصيان عندنا ، صورة تقليدية طالما شاهدناها في افلام هوليوود الرديئة لكنها لا تمت إلى واقع الشعب العربي المعاصر بصلة ! والأسوأ من ذلك هو ان المؤلف السري يحاول ان يصبغ الكتاب بصبغة الواقعية حيث يستعمل ألفاظاً عربية لأسماء الاماكن والالبسة والاعياد ، بالاضافة إلى بعض الابطال (الاشرار) امثال الأمير العربي الشيخ حازوق والشيخ الحبيب حبا والشيخ عبد الله الكفا وغيرهم ...

وهو في هذه الرواية يحاول ان يرسم العالم العربي كوريث لتخلف العصور الوسطى ، وكحريص على تراث الاستعباد ومدافع عنه ومنظّر عقائدي له ، بل ومستغل لوسائل التكنولوجيا المعاصرة لأجل تكريسه !

والنتيجة ...

صورة بشعة لحقيقة عالمنا العربي ، صورة بربرية همجية غير حقيقية ، ينجو منها البطل « الاميركي الجميل » وينقذ معه البطلة البريطانية وكل الاوروبيات « الراقيات البريئات » اللواتي كدن يذهبن ضحية ازدهار تجارة الرق والخصيان وتمركزها حالياً في العالم العربي !

والقارىء الاوروبي المحايد ، الذي لم تتح له معرفة العالم العربي عن كثب ، سيتأثر دون ريب بهذه الرواية البوليسية المسلية ، وستنغرس في لاوعيه صورة مفرطة

البشاعة عن انحطاط العرب في الشرق الاوسط ، وسيتعاطف بكل بساطة مع اخبار « اسرائيل المسكينة » التي تمثل الحضارة الغربية وقيمها وسط صحراء العرب القاحلة من كل القيم الانسانية والحضارية (على ذمة الكتاب) ! ..

وهذا النوع من الكتابات مؤذ أكثر من أية ذعاية مباشرة،لانه يؤثر في لاوعي القارىء الغربي ويجعله ينظر إلى العرب كما لو كانوا عرقاً مجبولاً على الضعة والخسة الانسانية .

وصحيح أن أمتنا العربية لا تخلو من امراض التخلف ، ولكن ذلك لا يرجع إلى خطيئة أصلية فيها منحدرة من أيام آدم وحواء ، وانما لتلك السقطات أسباب واضحة محددة المعالم تعود بمعظمها إلى آثار الاستعمار الغربي في بلادنا ، وفظاعات السياسة الاميركية الامبريالية وانعكاساتها على تطورنا ، وإعاقتها لهذا التطور الخلاق .

وهكذا يجيء الجلاد إلى بلادنا ليلعب دور الضحية والمخلص في روايات بوليسية رخيصة الاثارة ! وهكذا تتكاتف المؤامرة الاعلامية الصهيونية مع خطأ بعض الروائيين الأميركيين في نظرتهم إلى الشعوب النامية ! وهكذا تُرسم صورة غير حقيقية لنضال الشعب العربي من أجل الحرية والعدالة والقيم الإنسانية التي يكافح لأجلها الكادحون في انحاء العالم كله منذ عصور !

ان هذه الروايات تهدف إلى عزل كفاح الشعب العربي عن كفاح الكادحين العالمي (أم تراها أكثر غباء من هذا القصد ، وكل ما تبغيه هو اتخاذ عاصمة عربية كديكور لرواية جنسية بوليسية مثيرة ؟) . المهم ، ان النتيجة هي ، ببساطة ، تصوير العرب على انهم خارج إطار الشعوب النامية ومجرد عصابات للاتجار بالرقيق الابيض في الشرق الاوسط ، وبالتالي استدرار الشفقة على «اسرائيل»، مبعوثة اميركا والغرب « والآلهة » لنشر الحكمة والعدالة والمحبة في العالم العربي المظلم !

وفي المقابل ، فان الغياب الاعلامي العربي عن اوروبا ما يزال مثالياً ، ونومة أكثر المسؤولين عنه كنومة أهل الكهف .

هذه الرواية « الوباء العربي » ابتعتها من احدى المكتبات في بيروت ، وهي موجودة بكثرة في أكثر من مكتبة ، كما تحققت من ذلك ...

أطالب بمنعها ؟

لا

بل اطالب بترجمتها وتوزيعها في بقية العواصم العربية على المثقفين العرب —

مجاناً – كي يعرفوا شراسة العدو واساليبه الدعائية متعددة الوجوه ، التي نواجهها بغياب تام وفراغ كامل... انني اطالب أيضاً بالسماح لكل الكتب التي تشوه حقيقتنا بأن توزع في الاسواق العربية كي نرى جيداً مختلف الاسلحة الموجهة إلى صدورنا وإلى صدر حقيقتنا ووضعنا التاريخي الراهن . من السهل جداً ان نسقط في فخ الاعجاب الذاتي والتغني بفضائلنا ، لكن المهم هو إيصال حقيقتنا إلى العالم الخارجي .

فلنخرج من غرفنا المغلقة على عقدة العظمة لدينا ، ولنطلق صوتنا في العالم الخارجي ... في عالم الشعوب الأخرى وملايين البسطاء مثلنا وفي اقطار العالم كله ...

ان الأدب العربي والصحافة العربية تظل بلا جدوى – نسبياً – ما دامت محصورة داخل حدودنا العربية . وليس بيننا ، نحن العرب ، من هو غير واثق من حقه ومن عدالة قضيته . فلنطلق الصوت خارج الحدود إلى حيث شرنقتا اللامبالاة وسوء الفهم تترصداننا . والملايين التي ننفقها على الاعلام الداخلي فليتم توجيه أكثرها لأجل الاعلام الخارجي ...

ان صوتنا في الغرب والشرق ما زال مطموساً ... معظم الفنانين والادباء والشعراء لدينا ما زالوا يفضلون عروشهم المحلية على محاولة الدخول من الباب الضيق إلى الأدب العالمي ... والترجمات لدينا تتم باشراف « مؤسسات العلاقات العامة » التي تختار انتاج الذين يرتدون « السموكن » ويقدمون ولاءهم للمسؤولين (اولئك عادة ليسوا بمبدعين) ! ..

ان اعادة طرح قضية الاعلام العربي في الخارج ملحة واساسيه ...

كفانا رقصاً في سيرك مؤتمراتنا الأدبية المحلية ! فمسيرة الأدب العربي إلى العالم الخارجي يجب ان تبدأ . انها مسيرة عذاب في درب الزحف فوق الزجاج المهشم ، حيث لا تصفيق ولا غرور ، حيث المقاييس تختلف والغرام بالذات يسقط ...

متى نعي ضرورة البدء بهذه المسيرة ؟ . .

ومن يصمد من مثقفينا ، لتبدأ مرحلة العطاء الحقيقي دونما استعراضات ، ودونما طواويس ؟ :

۱۹ / ٥ / ۱۹۷٥

فضيحة البروفسور الذي أعاد كتابة القرآن على هواه !

حين أشتري كتاباً شهياً ، أشعر بما تحس به النساء عادة أمام الفراء والماس ، ويسيل لعابي الفكري كجائع أمام رغيفه .

اليوم ابتعت كتاباً بالانكليزية واسمه « صحارى (*)» ، جميل الطباعة والصور (ألبوم) ، يتحدث عن الصحراء الافريقية وما يقع منها في ليبيا والجزائر وتونس العربية . ثمنه يفوق عدد صفحاته التي تربو على المائة . وابتعت « ألبوماً » آخر واسمه « فانشينغ سبيشيز (**) »، من سلسلة « اللايف — التايم ». وحـين دفعت الثمن لم أكن أدري أنني أدفع ثمناً كي اقرأ الشتائم توجهها الي صفحات الكتابين .

* * *

ألبوم « صحارى » يتحدث عن « الظلام في بلاد الشمس » ، ويتحدث عن المسلمين الذين يقطنون الصحراء بطريقة قذرة . وأصر على كلمة قذرة ، لان المؤلف اختلق آيات قرآنية غير موجودة في القرآن ، وأحاديث شريفة مزيفة ، وافترى على العرب والمسلمين ناعتاً إياهم بصفات ليست حقيقية .

الروح العامة للكتاب تنعي بؤس المسلمين . في الصفحتين ۱۱ و ۱۲ يقول : « العقبة الأساسية هي في لامبالاة أولئك الناس الذين لا يقومون بأي محاولة لمحاربة الأمراض ، ومساعدتهم يجب أن تتم بالرغـم عنهم . انهم يعيشون في أحضـان الأقذار والوساخات التي لا توصف . المراحيض والحمامات غير معروفة لديهم » . والمؤلف يلقي اللوم في ذلك على الدين الاسلامي ! والسؤال الذي يجب أن يطرح عليه : ألم يسمع بالوضوء وبالاغتسال الاسلامي ؟

وبصفته أوروبياً فرنسياً ألم يزر قصر فرساي وبقية القصور حيث كان يعيش

(*) كتاب Sahara تأليف René Gardi .

(**) كتاب Vanishing Species (فصائل تنقرض) من سلسلة Time-Life Books .

ملوك فرنسا ويكتشف انها تخلو تماماً من الحمامات والمراحيض ، وكذلك قصر شون برن لاباطرة النمسا ؟ وان الغرب نقل الحمامات عن الشرق وكان يجهلها ؟ ..

* * *

ويتابع رينيه جاردي افتراءاته على روح الدين الاسلامي . ففي الصفحتين ١٥ و ١٦ نجده يقول : « ما لا يستطيع الغربي احتماله هو استسلام المسلم للأمر الواقع كقدر لا يرد ... المسلم يفتقر تماماً إلى استعمال الارادة والاوروبي يحس بالرغبة في صفع المسلم وهزه وإعلامه بأنه لا علاقة للرب بمرض الزهري أو البلهارسيا ، وان السبب يرجع إلى عيشهم في أماكن ملوثة بفضلاتهم وارتداء بعضهم ثياب بعض ، وعدم غسلها إلا نادراً » . ونجد المؤلف يتمادى في افترائه فيخترع آيات قدرية مزيفة توكيداً لكلامه ! ومن الواضح أنه لم يكلف نفسه عناء قراءة ترجمة للقرآن ليفهم المعنى الحقيقي للقدرية الاسلامية ، ولم يسمع « ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ، و « كل نفس بما كسبت رهينة » ، ولا قول الرسول للبدوي حول ناقته « اعقلها وتوكل » .

وهو يجد في حجر الرحى لطحن الدقيق في البيوت دليلاً على ان المسلمين ما زالوا يعيشون في العصر الحجري ! ويدعي ان هنالك طبقية اسلامية . وانه في « عين صالح » بالجزائر تحدث مع الناس بسهولة في حين عجز عن محاورة أي شخص من قبيلة « الزواعنة » الذين يتحدرون بنسلهم من الرسول !

* * *

والمؤلف لا يخجل من اختلاق آيات قرآنية لا وجود لها . ففي معرض حديثه عن الجمل (الصفحة ٢٩ إلى ٣٤) يدعي ان القرآن يقول « الجمل حيوان الله المفضل » و « أهم شيء للمسلم هو اقتناء قطيــع من الجمال » و « من يطعم جمله طعاماً نظيفاً وجيداً يسجل الله اسمه ويسجل له حسنات بعدد قشات التبن التي أطعمها لجمله ! » و « من يحرم جملاً وصاحبه من شربة ماء حُرم رحمة الله يوم القيامة » . ويتطاول أيضاً على الاحاديث النبوية فينسب إلى الرسول قوله « من حفر بئراً كوفىء عليها بعدد الجمال التي شربت منها » !

هذه أمثلة بسيطة من هذا الكتاب الذي يزيف الحقيقة . والغريب أن عدداً من الدكاترة شارك في تأليفه بينهم : دكتور كارل سوتر — دكتور هانز روترت — الكسندر واندلر — اولريخ شويتزر ... ترى أليس بينهم من قرأ ترجمة للقرآن وكلهم

يدعون العلم بالصحراء وسكانها والمسلمين وأحوالهم ؟ والمؤلف رينيه جاردي ، ألم يخطر بباله ان بين « المسلمين المتخلفين » من يقرأ لغة أجنبية وانه قد يحاسب حساباً عسيراً على أكاذيبه ؟ ثم كيف تسمح له البلاد العربية بالتجول فيها وهو الذي يشوهها عامداً مختلقاً (يحدثنا في مقدمة كتابه عن رحـــلاته المتعددة والمستمرة إلى شمالي افريقيا) ؟ ! .

* * *

أما كتاب « فانشينغ سبيشيز » لمحرري « اللايف – التايم » فنجده يقدم دعاية مجانية لاسرائيل اذ تقول الصفحة ١٢٠ منه – في معرض الحديث عن الغزلان وغيرها من الحيوانات العربية المهددة بالانقراض بسبب الصيد العشوائي : « عام ١٩٤٨ كانت حيوانات فلسطين في شبه حالة إبادة .

ومنذ تأسست «اسرائيل» استعادت هذه الفصائل الحيوانية النادرة عافيتها وعادت إلى التكاثر لان الدين اليهودي يحرم أكلها . وعام ١٩٦٩ قررت «اسرائيل» اعتبار النقب مكاناً محجوزاً للعناية بالحيوانات المذكورة في التوراة والتي حملها نوح في سفينته . ورغم ان كثيراً من هذه الحيوانات المذكورة في العهد القديم – والتي سبق لنوح انقاذها – موجودة في البلاد العربية المحيطة باسرائيل ، فان الاسرائيليين يأملون في انهم ذات يوم سينجحون في صنع سفينة نوح المعاصرة ... » !

(أي ان اسرائيل هي سفينة نوح المعاصرة لانقاذ حضارة المنطقة وكائناتها من البرابرة العرب !) .

هذا بعض ما جاء في أطلسين جميلين أنيقين يباعان في مكتبات بيروت ويوزعان في الغرب بملايين النسخ .

* * *

حذار من منع هذه الكتب . دعونا نعرف أعداءنا ، ونعرف مدى شراسة الاعلام الصهيوني وتغلغله في المجالات كافة ، حتى في مجال الحديث عن الغزلان !

الحل ؟

ان نقدم للسوق العالمية البديل . أن يقوم العرب بالكتابة عن بلادهم بانفسهم أو يشرفوا على ذلك اشرافاً مباشراً وواعياً ، وعدم السماح لأسطورة تفوق الأجنبي بالتحكم بنا ، وضرورة فضح الاعمال التي تشوه حقيقتنا كعرب ، ليس دفاعاً عن الدين بل دفاعاً عن الحقيقة التاريخية .

* * *

وطننا العربي الكبير ، حتام َ نترك تاريخه للمستشرقين و « البروفسورات » يشوهونه ويختلقون حوله ما شاؤوا من الحكايا ، ويبدلون سطور كتبه المقدسة وهم الذين يدعون الأمانة الفكرية والعلمية وحمايتها من « المسلمين البرابرة » ؟ ..

ومتى نتولى نحن اصدار « الالبومات » والكتابة عن أرضنا وتاريخنا ؟ وحتام َ ننفق الأموال على السلاح الحربي ناسين السلاح الفكري ؟

٢٣ / ٦ / ١٩٧٥

وفضيحة المخرج الذي شوّه روح القرآن ! !

يسود أوروبا حالياً جو من الرغبة في اعادة اكتشاف العرب . فبعد أزمة النفط ، وانتشار صيت ثراء العرب ، وقضية فلسطين وخطاب عرفات في الامم المتحدة ، بدأ الفرد الاوروبي يلحظ أن معلوماته عن العربي (كهمجي بدائي) ليست كافية لتفسير ظواهر كثيرة يُفاجأ بها ! .. والفرد الاوروبي اليوم مثل نشافة مستعدة لامتصاص أي معلومات جديدة عن العرب ...

في مثل هذا المناخ ، سرني أن أقرأ على باب إحدى دور السينما اللندنية الكبرى بساحة « لستر سكوير » ، اسم « الليالي العربية » إلى جانب اسم المخرج الجيد بازوليني. قلت لنفسي : مخرج كبازوليني لا بد أن ينصف العرب . ليس مطلوباً من أحد أن ينحاز إلينا . ولكنه كمبدع ، « خادم للحق » ، وبالتالي فإنه بحكم إبداعه مرغم على نقل صورة صادقة عنا .

كان الناس يُقبلون على الفيلم ، وبصعوبة استطعت الحصول على تذكرة ومقعد ... وصدمة !

فقد كان الفيلم اسوأ دعاية عنا ، وعرضه في هذا الوقت بالذات طعنة حاذقة في جنب العرب الذين لم يتعلموا بعد ضرورة الحزم مع « العباقرة » الغربيين !

فمن الواضح أن بازوليني قد لقي تسهيلات كبيرة من سلطات البلد العربي الذي تم تصوير الفيلم على أراضيه . من الواضح أن الفيلم قد تم تصويره (أو تصوير أجزاء كبيرة منه) في بلد عربي ما في شمالي افريقيا ، لا أدري أين ! ومن الواضح أن إمكانيات كبيرة وضعت تحت تصرف « العبقري » بازوليني . فماذا قدم بازوليني للملايين في الغرب عن الليالي العربية ؟

الهيكل العظمي للفيلم (الذي ظل هيكلاً عظمياً فقط لا غير) هو مجموعة حكايا حب ساذجة أبطالها من العرب وتدور في مناخ عربي ، وعلى طريقة « ألف ليلة وليلة » ؛

فان كل شخص يروي حكايته ، ومجمل الحكايا يسهم في رسم صورة عن الجو العربي العام . وحكايا الحب تلك تافهة ، قذرة ، سطحية ، يغلب عليها في استمرار عنصر الشذوذ (زعيم القبيلة يتزوج صبياً وزوجته تعاشر فتاة ويتم ذلك من نظرة استلطاف أثناء مرور القبيلة بواد ما . الصبيان مكرسون للشذوذ ويتم تدريبهم على ذلك على يدي استاذ اختصاصي في الحمام !) وعنصر الميلودراما المبتذلة (الحب من أول نظرة عبر النافذة يؤدي إلى انتحار الخطيبة المهجورة ومعاقبة العاشق بقطع النساء لعضو « مهم » من جسده كان سبب المصائب !) كما يبرز الفيلم عدم الوعي السياسي لدى العرب (يتم اختيار الزعيم وفقاً لطقوس اعتباطية منها تنصيب أول شخص يدخل المدينة بعد موت الملك ملكاً عليها !) ، وذلك يرجع إلى قدرية العرب التي شوهها الفيلم وركز عليها في الوقت ذاته . فالله هو الذي أرسل اليهم الغريب ليكون ملكاً عليهم (!) ولذا فهم يتوجون أول غريب! وفي الفيلم تبلغ المهزلة ذروتها. فـ « الغريب » هو جارية متنكرة في زي رجل ! وهكذا فالحكم لدى العرب عبث ومجون ، .وفكرة القدرية السلبية تتحكم بحياتهم . وكل المصائب التي يتسبب العرب في وقوعها يرمون بمسؤوليتها على الله طوال الفيلم . بل إن هنالك مشهداً حشره بازوليني حشراً ليزيد الاوروبي اشمئزازاً من قدرية العرب : فبينما كان أحد العشاق (عزيز) راكضاً في دروب القرية وقد جن حباً ، يطارده أطفالها بالحصى (في الفيلم أولاد العرب لا يتعلمون ومهمتهم الوحيدة هي الركض في الازقة كالكلاب ، وحصب العشاق ، أو ممارسة اللواط !) نجد أباً يلاحق عزيز طالباً منه أن يقرأ له رسالة استلمها من ابنه المسافر (اشارة إلى أمية أكثر العرب) ، ومضمون الرسالة هو حرفياً ما يلي : أبي العزيز . لم أجد عملاً . لا أكسب شيئاً ولا أفعل شيئاً لأنها ارادة الله !

شخصية النساء في الفيلم قبيحة ، بذيئة ، مخجلة . لا هم لهن سوى اغتصاب الصبيان جماعياً بعد اختطافهم والانتقام من الرجال الخائنين بطرق أخجل من تعدادها وأتركها لخيال القارىء !

أما شخصية الرجل العربي فقد رسمها بازوليني على الوجه التالي : مستسلمة للكسل والقدر والذباب الذي يغطي الوجوه (استرسلت الكاميرا في رصد العلاقة الحميمة بيننا وبين الذباب) واتكالية ترمي كل شيء على الله وترمي بنفسها في احضان البكاء وخدر الجنس .

في اختصار كانت « الليالي العربية » صورة لمجتمع يقضي نصف وقته عارياً تماماً

يمارس الجنس ، ونصفه الآخر يحيك المكائد، والفقر يفترسه والمرض يطارده .

ونحن كعرب لا نستطيع أن ننكر اخطاءنا ، لكننا لا نجد مبرراً لإبرازها فقط من دون الاشارة (ولو إشارة) إلى بقية جوانب الشخصية العربية . فالليل العربي ليس مأوى لجرائم الشهوة الرعناء فقط ، بل هو ايضاً ليل الكادحين وليل المفكرين وليل الطبيعة البشرية بكل سموها وسقطاتها ، ولكن الفيلم يرصد الشخصية العربية كما لو كانت فريدة في حقارتها وتفاهتها ورخصها الإنساني .

جريمة اخرى ارتكبها بازوليني بحق العرب والحقيقة ، وهي تشويه القرآن .

ففي الفيلم حكاية فتاة حبسها جني تحت الارض وحيدة في كهف لا ترى نوراً ولا إنساً . والجني يأتي إليها ليضاجعها مرة كل أسبوع . وحين تريد استحضار الجني لأمر ما ، فكل ما عليها ان تفعله هو أن تلمس اللوحة النحاسية العتيقة . وبينما هي تخون الجني مع شاب ، تنتقل الكاميرا عن المشهد الجنسي العاري للعاشقين في الفراش إلى اللوحة المعدنية ، والمتفرج العربي يستطيع أن يقرأ عليها بوضوح عبارة: بسم الله الرحمن الرحيم ، تليها آية قرآنية ! ويتم تدنيس مقدساتنا حينما ينهض العشيق عارياً تماماً (لا تعف الكاميرا عن نقل عريه كاملاً) ليلمس الآية القرآنية فيحضر الجني الشرير الذي ينتقم من المرأة شر انتقام بتقطيع جسدها بفأس قطعة قطعة تتناثر في وجه المتفرج !

ولا بد لي من الاشارة إلى أن جميع الذين يتحاملون على العرب يتحاملون على القرآن لا باستخدامه فولكلورياً فحسب بل بتحويره ، وهنا عدم الوفاء للحقيقة . وبازوليني في حكايته الرمزية هذه يعتدي على روح القرآن وعلى مدلول ذكر الله وصفات الله كما هي في القرآن .

وفي كتاب « فصائل تنقرض » ، الذي يتصدر واجهات المكتبات في لندن وهو من تأليف فريق « التايم — اللايف » ، نجد في الصفحة ١٢٦ العبارة التالية : « أسهمت القبائل المسلمة في انقراض الحمار الوحشي إذ إن القرآن يصف لحم الحمار كدواء يشفي من الامراض » ! .. هذا الكتاب الذي يتوخى الدقة العلمية في كل صفحاته نجده يتخلى عنها حين يتعلق الامر بالعرب والقرآن ، تماماً كما فعل بازوليني . فلماذا هذا الاستخفاف ؟ السبب ، في بساطة ، هو اعتماد الغربيين على إهمالنا لحقوقنا وعدم مطالبتنا بها . فلو عُوقب كل كاتب وسينمائي يتعرض لنا بغير حق لاضطروا إلى توخي

الدقة في ما يعرضونه من شؤوننا كما يتوخون الدقة في شؤونهم الاخرى، حتى التافه منها !

المطلوب : ١ ـ ارغام كل مخرج يأتينا أو كاتب يهرع إلينا لعمل ما ، على دخول دورة تثقيفية بشؤون العرب ، من أسسها الاولى اطلاعه على تاريخنا وعلى حياتنا المعاصرة ومختلف نواحيها ، لا الجنسية فقط .

٢ ـ ارغامه على استلام نسخة مترجمة للقرآن بحيث يعود إلى النص الاصلي إذا رغب في الاستشهاد به بدلاً من اعادة كتابة القرآن على هواه ومن دون رادع ، أو التعرض غير العادل لروح الدين سواء كتاريخ أو كفولكلور .

٣ ـ معاقبة أي « عبقري » يتعرض لنا من دون حق ، سواء تم ذلك عن حسن نية أو عن جهل أو عن سوء نية ، ما دامت الحصيلة واحدة . والمقاطعة تكون ضد انتاجه شخصياً وانتاج الشركة أو المؤسسة التي يتعامل واياها .

٤ ـ المطلوب عقد مؤتمر يبحث جدياً في قضية تشويه صورة العرب في الغرب وترصد له الاعتمادات اللازمة للقيام بحرب مضادة في حرب التشويه الناشطة ضدنا في حالة السلم والحرب معاً . وحبذا لو اهتمت مؤتمرات الادباء العرب بذلك !

وبعد ،

فان أمة لا تفرض احترامها على « عباقرة » الغرب ولا ترغم العالم على فهمها ، هي أمة تغري الناس بانتهاك حرمتها . فمن مد جسده على الارض أغرى النعال بالدوس عليه !

المرجو من الدولة العربية التي سهلت للسيد بازوليني تصوير هذا الفيلم وتسجيل الأغاني العربية الشعبية على الطبيعة ـ كأغنية « يا حمام يا مروح بلدك متهني » ـ أخذ العلم بما كان من أمر « الضيف الكبير المتهني » الذي أكرمت وفادته فشوّهنا ، وإجراء المقتضى بشأنه ..

المهم ألا يمر تطاول الغرب علينا بعد اليوم من دون حساب ، وأن نعلّم الغرب ألا ينظر الينا بعد اليوم عمودياً فقط ، بل أفقياً أيضاً.

٢٠ / ١٠ / ١٩٧٥

فلينفجر القلب من آن إلى آخر ! ..

من وقت إلى آخر لا بد للقلب من أن ينفجر ...

لا بد للقلب من أن يخلع أقنعته وقفازاته وياقات التهذيب البيضاء المنشاة، ويترك ابتسامة « التفهم » الصفراء تسقط عن شفتيه كورقة خريف ... ويدمر كأس المجاملة..

من وقت إلى آخر لا بد للقلب من أن ينفجر ...

لا بد للقلب من ان يركض في الشوارع عارياً من كل شيء إلا من جرحه ... صارخاً من مدينة عربية إلى أخرى كسيارة اسعاف أسطورية الجنون ...

من وقت إلى آخر ، دعوا القلب ينفجر ... يشهر في وجه الغرباء أحزانه ، ويتركها تعوم في قلب الليل نحو صدورهم كباخرة محملة بالجرحى وأنينهم الدامي .

من وقت إلى آخر لا بد للقلب من ان ينفجر ...

الليلة دوري أنا ... جرح صغير من جراحي سيلعب لكم دور الحكواتي ! ! ..

* * *

حينما قرأت الكتاب الأول قلت : ربما كانت مصادفة . حين قرأت الثاني قلت : هفوة .

حين قرأت العاشر قلت : التسامح و« التفهم » و « السلوك الحضاري » ضرورة ...

حين قرأت الواحد بعد الألف ، انفجر قلبي شاهراً مخالبه وأظافره ... وغضبه الحزين ...

* * *

كتب كتب كتب ... وأنا فأرة مكتبة ، ألتهم من الصفحات أكثر مما ألتهم من الخبز ...

وقلما أطالع كتاباً غربياً لا يتعرض للعرب ويشهـّر بهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة ...

هذا الاسبوع كنت اقرأ لروجر زيلاني كتاباً فائزاً بجائزة أدبية مهمة اسمه « هذا الخالد » ومؤلفه الاميركي من افضل كتّاب القصة العلمية الخرافية الحديثة (على ذمة الموسوعة البريطانية) ...

احد ابطال القصة عربي يدعى حسن . ولما كانت الرواية رمزية ، وبطلها الاغريقي رمز لمدلول الاغريق التاريخي والحضاري ، فان الأمر نفسه ينسحب على العربي حسن . فماذا نجد . نجده (في الصفحة ٢٦) قاتلاً مأجوراً محترفاً وعميلاً لاعداء كوكب الارض ، انه يعمل حارساً لشخص ما ، ثم يقتل الشخص الذي كان يحرسه لان هنالك من دفع ثمناً أكبر . ويقضي أوقات فراغه بتعاطي المخدرات . في صفحة ٢٧ يقول المؤلف « يسمونه حسن القاتل المحترف لأنه آخر مرتزقة القتل على كوكب الارض ! » . جيوبه منتفخة باستمرار بالسكاكين والحبال الدقيقة والشفرات والعقاقير والسموم « السوبرتكنولوجية » وله من « الجيمسبوندية » صفة الاغتيال دون الظرف أو خفة الروح (صفحة ٤٢) . اما عن عـــدد ضحاياه ، « فلو وضعت في فمك حبة شيكلتس عن كل رجل قتله ، لا نتفخ فمك ولبدوت كالسنجاب (صفحة ٤٠) ، في صفحة ٤٥ يشير إلى حسن باسم (البدوي)،أي انه عربي صميم لا من الاقليات، ومع ذلك نجده في (١٢١) يشير إلى انه يعبد ابليس الشيطان ! ... ولكنه في صفحة ١٥٣ يسمّي بالله قائلاً : « بسم الله » — (حرفياً)، ولا نفهم من هذا الخليط الفكري « الديني » أكثر من أن المؤلف يجهل كل شيء عن معتقدات الاسلام .

ما يؤلم في الموضوع هو حسن نية المؤلف . فحسن في نهاية الرواية يتحول إلى بطل شهم ، ويساهم في انقاذ العالم ، ومن الواضح ان المؤلف لا يحمل حقداً شخصياً ضد العرب ، وانما هو فريسة الجهل التام بهم وبالاسلام .

* * *

قلت لقلبي الغاضب ، تعال نبحث عن ابتسامة في كتاب آخر .. ذهبنا ، قلبي وأنا ، إلى المكتبة واشترينا كتاباً اسمه « القمر بالون ! » لمؤلفه الممثل الفكاهي المعروف دافيد نيفين ، ومجلة أخرى ساخرة اسمها « مجنون » Mad تصدر في اميركا ايضاً .

في الصفحة ٦٨ من كتاب دافيد نيفين ، وهو كتاب قرأه الملايين أيضاً ومن أكثر الكتب مبيعاً منذ اشهر نجده يتحدث عن امير عربي من المفروض انه كان يتدرب معهم في فرقة عسكرية (وهو عم لأحد الحكام العرب) فيسخر منه ومن العرب ... ويكرس نصف صفحة ليؤكد لنا أن الامير العربي كان لا يميز يده اليمنى من اليسرى

وانه كان يدور إلى اتجاه معاكس باستمرار عن اتجاه الجنود فيصطدم بهم وجهاً لوجه وغير ذلك من الترهات ...

* * *

هذا بعض حصيلة هذا الاسبوع ... لكنني لا اقرأ كتاباً صادراً في الغرب إلا وفيه نوع من التحقير للعرب . النماذج التي ذكرتها هنا تتضمن الكثير من « الجهل » بالعرب وبالتالي « حسن النية » .. وهذا أخطر ما في الامر ... فأكثر الكتّاب الذين يشوهون صورتنا ، لا يفعلون ذلك بالاتفاق مع « الصهيونية العالمية » التي يحلو لنا باستمرار تحميلها وزر كوارثنا كلها ، وانما يكتبون ذلك لأن المعلومات عنا وردتهم هكذا ... فنحن ما نزال أفراداً وجماعات ومؤسسات « اسوأ محامين لأعدل قضية » وصورتنا في الغرب هي أبشع قناع لأنبل وجه ... ونحن مشغولون عن التحدي العالمي الكبير وعصرنا والزمن الذي يجري بحرب « داحس والغبراء » فيما بيننا ... وبافتراس بعضنا بعضاً ... اننا كقبيلة تتشاجر حول « جنس الملائكة » فوق مركب يغرق ...

* * *

أكرر اقتراحي بضرورة بحث « صورة العربي في الإعلام الغربي » في مؤتمرات الأدباء العرب أو إنشاء مركز دراسات خاص بالرد على الافتراءات وتوعية حسني النية ، ومتابعة البرامج الدراسية في الغرب وما الذي تدرّسه للأجيال الطالعة في كتبها عن العرب .. وغير ذلك من عشرات الحلول الواقفة على ابواب المسؤولين .

* * *

ملاحظة : بعد ان انفجر قلبي قليلا وكتبت هذه السطور قررت الهرب إلى مجلة MAD — أي « مجنون » — الساخرة ! ...

وفوجئت بأن السخرية في غلافها الاخير مركزة على العرب .. وهي تلقبهم باسم رواية اميركية مشهورة « كاربتبيجرز » تتحدث عن الوصولية الحقيرة الرقيعة والجشع للمال ، وتطلق هذا الاسم على العرب .. وفي الصورة نجد ثلاثة من العرب يركبون بساط الريح فوق ناطحات السحاب ، وبساط الريح هو من ورقة المئة دولار والعباءات مقصبة والخواتم والاساور تزين معاصم الرجال ! ... وتسميهم المجلة « اثرياء الوصولية الجشعة ... الجدد » ! ..

* * *

مشروع أسطورة : ترى هل كانت النعامة امرأة تقرأ كثيراً وتحزن كثيراً لفظاعة ما تقرأ واللامبالاة من حولها بذلك حتّى دفنت رأسها ذات يوم في الرمال وتحولت إلى نعامة ؟ ...

* * *

بروميثيوس أو نعامة ...
قدران لا ثالث لهما ؟ ..
فلينفجر القلب من آن إلى آخر ! ....

١٩٧٥ / ٣ / ٣

احشوا فم جون بابيز بالثياب الدامية لفدائي !

كل تلك الأسماء الملونة كالبالونات ... كل تلك الاسماء الأجنبية الكثيرة الضجيج كطبل الأعياد ، الضخمة كمخلب وحش أسطوري ... كل تلك الاسماء الغربية التي تبهرنا ، لماذا تبهرنا ؟ وماذا نعرف عنها حقاً ؟ ..

مأساة بعض العرب انهم يعشقون الأسماء « الكبيرة » ، أسماء « النجوم » في الغرب ، دونما معرفة واعية بحقيقتها على صعيد العطاء الفني ...

الشهرة — أي الفقاعات — هي المقياس الأول لتقييمنا للآخرين . أما معرفة العطاء — أي الحقيقة الصلبة — فما أبعد البعض عنها ... والمؤسف أن هذا الكلام لا ينطبق على السلوك الجماهيري العام في لبنان ، وإنما ينطبق أيضاً على سلوك مثقفينا ، وعلى السلوك الرسمي لأكثر دولنا العربية ... والنتيجة هي باستمرار فضائح وخيبات أمل ...

لنأخذ على سبيل المثال المغنية جون بابيز التي جاءت بها لجنة مهرجانات بعلبك لتغني في لبنان في الصيف الماضي ...

شرفتنا الأخت جون بابيز محفوفة بإعجاب أكثر الصحافيين والمثقفين ، وغنت عارية القدمين في هيكل بعلبك محفوفة بالآهات ، ورافقوها من المطار إلى السوق إلى الفندق وأحصوا انفاسها « الطاهرة » واختبأوا على أطراف وسادتها في محاولة لتسجيل حتى أحلامها ، وتزاحموا داخل خزائنها وعلى كم قفطانها الاحمر الوسخ وصفقوا وكتبوا وعتبوا عليها عتب العاشق حين رفضت إلحاح « الجماهير » بأن تنشد المزيد ... ولقبوها بالكاهنة و ... و ... وعتب عليها البعض لانها لم تنشد أغنية لفلسطين صارخين بها : « جون بابيز ، أين أغنية فلسطين » ؟ ولكن الست جون سكتت عن الغناء المباح حين ورد اسم فلسطين ، دون إبداء أي تفسير ! ورحلت عن بلادنا الطيبة الساذجة على جناح آهات عشاقها الكثيرين ... وهجم العشاق على دكاكين باعة الاسطوانات والأشرطة المسجلة لشراء كل ما يحمل اسم الاخت جون بابيز ... ولكن ، يبدو ان

أحداً لم ينصت حقاً إلى ما تقوله في اغنياتها . ولو فعل لطالب بطردها فوراً ولامتنع عن الاستماع اليها ! .. ولكن المفجع أن بعض « فزاليك » النقد هم الذين يفرضون الذوق العام عندنا ويخجل الباقون من الاعتراف بأنهم لم يستمعوا أو يسمعوا بجون بابيز ، ويفضلون الادعاء بأنهم سمعوها وأنهم من المعجبين بها ، ويقنعون أنفسهم — قبل الآخرين — بتلك الاكذوبة ! ولو كانوا يحبونها حقاً لأنصتوا اليها ، ولصعقتهم المفاجأة ! وهي ، ببساطة ، ان جون بابيز صهيونية تكرس أكثر أغانيها لمجد «اسرائيل» وعزة هيكلها ، وأن أكثر أشرطتها التي تباع في أسواق بيروت تحمل اغنيات اسرائيلية روحاً ولفظاً ، موسيقى وكلمات ! ..

إليكم الترجمة الحرفية لثلاث اغنيات من شريط « كاسيت » واحد يباع في أسواق بيروت ، استمعت اليه مصادفة لدى صديق، واسم الشريط « جون بابيز مع بيل وود وتيد » نستمع إلى الاغنية الثانية على الوجه الاول للشريط ، واسمها « يا لها من مدينة جميلة » وفيها تقول عن القدس :

« يا لها من مدينة جميلة ...

١٢ باباً للمدينة . هاليلويا .

٣ ابواب شرقاً — ٣ غرباً — ٣ شمالاً — ٣ جنوباً . هاليلويا (تنشد هاليلويا على الطريقة الاسرائيلية) .

انظر إلى اولئك الاطفال هناك .

إنهم يرتدون اللون الاحمر (الأحمر لباس الحاخام أثناء خدمة الهيكل ، وهي تؤكد ذلك حين تتابع) :

إنهم بلا ريب الاطفال الذين قادهم موسى .

حينما أذهب إلى السماء .

سأراهم هناك يضيئون ! ..

١٢ باباً للمدينة .. هاليلويا

من يستطيع إخراجي منها ؟ ..

يا لها من مدينة جميلة ... »

الاغنية باختصار هي اغنية في تمجيد عودة الصهاينة إلى « اسرائيل » ! ..

واذا كنت حسن الظن « جداً » ، كالمثقفين العرب الذين احتضنوا ذات يوم سارتر وجعلوه فيلسوف العصر لكنه طعنهم حين كشف عن انحيازه العنصري

لاسرائيل ... المهم ، اذا كنت حسن الظن ، تابع معي الاستماع إلى شريط جون بايز المسموم . في الاغنية الثالثة من الشريط نفسه تنشد لحناً حماسياً هو « لا تبكِ من اجلي » . تقول «الأخت» فيه على لسان « مناضل » صهيوني مهاجر إلى «اسرائيل» ليقاتل فيها لاجل مجد صهيون :

« حين أموت وأدفن ، لا تبك من أجلي .. لا أريدك ان تبكي لأجلي ... وانا أبحر المحيط لا تبك لأجلي ... وانا أركب سفينة صهيون لا تبك لأجلي ... وانا أبحر المحيط على سفينة صهيون العظيمة لا تبك لأجلي ... الملاك هو الملاّح فلا تبك لأجلي.. وأنا أنظر إلى ما وراء نهر الاردن ووجهتي هناك ، لا تبك لأجلي ... وحينما أُقتل وأُدفن هناك لا تبك لأجلي » ! ..

المهم أنها أغنية اسرائيلية حتّى العظم ! .. اغنية تحمل رداً على روح حائط المبكي وتبشر بالصهيونية المسلحة المقاتلة المصممة على القتل حتّى النصر ! ..

واذا أمعنا في « حسن الظن » وتابعنا الاستماع إلى بقية الشريط المسجل ، ستطلع علينا « المناضلة » جون بايز بأغنية « قريباً يطل الصباح » ! ..

وهي اغنية اسرائيلية الروح والكلمات ايضاً . والصباح الذي تنتظره « الاخت بايز » (التي زحفنا للاستماع اليها في بعلبك) هو صباح النصر الاسرائيلي ، اذ تقول على انغام موسيقى حماسية بوليسية الايقاع :

« ها انا واقف في المحطة ، وفي يدي بطاقة للذهاب إلى : « الارض الموعودة » . انني آمل ، وأثق ، وأنتظر طوال الليل ... للذهاب إلى الارض الموعودة » !

وبعد ،

إنني لا أُطالب بمنع اغنيات جون بايز ، بل اطالب بتعميمها لعدة أسباب :

(١) لتعذيبنا كلما استمعنا اليها ولتلقيننا درساً عن اعجابنا الأهوج بداعي «السنوبيزم فقط» ، وعن واجبنا الوطني والفني في عدم إبداء الاعجاب بنجوم نجهل كل شيء عنهم غير شهرتهم المدوية التي قد تكون الصهيونية قد ساهمت في صنعها .

(٢) أغنياتها الوطنية الاسرائيلية جيدة وجميلة — للأسف ! — وأتمنى بإخلاص لو يغني مطرب غربي للقضية العربية بهذا الاخلاص الكبير الذي تخدم به جون بايز قضية «اسرائيل» ... في أغنياتها الحماسية الشيء الكثير الذي يجب ان تتعلمه الاغنية العربية المتخلفة في هذا المجال .

(٣) جون بايز نموذج للعمالة الذكية ذات المستوى الفني الراقي الذي تعجز الأموال

العربية عن شراء ما يماثله ... ومن واجبنا رفع مستوى إعلامنا العربي في الغرب كي يكون قادراً على إقناع الفرد الغربي ، فنانه وعاديه ...

(٤) لا أطالب بمنعها لانني من أنصار « اعرف عدوك وتعلم من أساليبه » . فهل تعلمنا جون بابيز الحقد على الاقل ؟ الحقد على صيادي النجاح في مياه اعجابنا الضحلة والعكرة ؟ ! .

هذا العام ، حين تختار لجنة مهرجانات بعلبك أو غيرها من اللجان العربية نجومها الغربيين ، يستحسن ان تطلع على نتاجهم لا على صورهم فقط ... ولا مانع من دعوة الصهاينة منهم شرط محاورتهم و « كشفهم » في فضيحة علنية ، بدلاً من حشوهم بالكبة النية والتبولة واطلاعهم على رقصة الدبكة واعمدة بعلبك والسيقان اللبنانية والقفطان ، وتقبل شهادات التزكية منهم بكل فخر ...

والآن، هل عرفتم لماذا ابتسمت جون بابيز ابتسامة صفراء حين صرخوا في وجهها : « أين أغنية فلسطين » ؟ ! .

لعلها كانت ابتسامة الدهشة لأننا لم نسمع من قبل ما هو معروف عنها في الولايات المتحدة : كونها من أكبر المؤيدين للصهيونية وتعتبر قتلى الاسرائيليين ضحايا ! ..

إذا عادت جون بابيز إلينا ، فاحشوا فمها بالثياب الدامية لفدائي قُتل في محاولته العودة لأرضه وبيته في فلسطين التي هي فلسطين لا « اسرائيل » ، وفي القدس التي هي القدس لا أورشليم .

٢٦ / ١ / ١٩٧٣

والإنسان طائر أيضاً

خبر صغير مرمي في زاوية مهملة بإحدى الصحف ، يلخص أحياناً مأساة الانسانية بأكملها ...

انك تقرؤه ولا تصدق عينيك . وربما لذلك تقتطعه ، كي تعود إليه كلما شككت في حواسك ...

تعالوا معي نقرأ هذا الخبر الصغير المنشور في إحدى الصحف العالمية تحت عنوان « مظاهرات من أجل الطيور » ، والذي لا أذكر متى اقتطعته ، وكم من المرات عدت اليه اقرؤه غير مصدقة

أترجمه لكم .

يقول الخبر : تظاهر عشاق الطيور في نيويورك محتجين على جيش الولايات المتحدة الاميركية بعد قراره بإبادة حوالي ٣ ملايين طائر من الطيور المحلقة والمعششة حول القاعدة العسكرية الاميركية في « ميلان » بولاية تنيسي .

هذا هو الخبر الصغير .

انك لا تملك وانت تقرؤه إلا الغضب المدهوش .

إذن فالشعب الاميركي يتحرك من أجل مصرع الطيور — ضحايا القاعـــدة الحربية الاميركية — ومع ذلك لم تقم ثورة من أجل ضحايا القنابل الاميركية في كل مكان ...

نعم . الغضب والدهشة ...

وربما الدهشة قبل الغضب... الدهشة من هذا الكائن العجيب المسمى الانسان ، الذي يبكي مصرع الطيور ولا يبالي بمصرع ملايين من الشعوب البريئة ...

انه يحتج على جيشه اذا تسبب في مصرع قبيلة من الطيور ... لكنه لا يحرك ساكناً أمام مصرع شعوب بأكملها على يدي جيشه نفسه ...

صحيح ان مظاهرات اميركية كثيرة خرجت من أجل إيقاف حروب السلطة

هناك في أكثر من مكان ... ولكن ، إذا كان مصرع الطيور يستحق مظاهرة ، آلا يستحق مصرع الشعوب أكثر من مظاهرة ؟ ثورة على الاقل ؟ تمرد ؟ عصيان ؟ أم تراهم يكفرون عن خطاياهم بالخروج في مظاهرات لحماية الطيور وربما لتأمين نظام ضمان اجتماعي للكلاب ؟ ...

عشاق الطيور الذين احتجوا على قسوة الجيش الاميركي ومحاولة إبادة ٣ ملايين طائر ... ترى لو أحصوا عدد ضحايا الجيش الاميركي منذ هيروشيما وكوريا إلى فلسطين وفيتنام ، ألن يفوق عدد الضحايا البشرية الثلاثة ملايين طائر ؟ ...

على أية حال ، انني اتقدم بالعزاء من عشاق الحيوانات والطيور ، على أمل ان يأتي يوم تعي الشعوب فيه عار المجزرة الاميركية التي ذهب ضحيتها — وما يزال — أكثر بكثير من ٣ ملايين طائر مقصوص الجناح اسمه البيولوجي : (هوموسابيان) ، واسمه الفني انسان !..

١٤ / ٤ / ١٩٧٥

الكرة حين تنفجر

في ملعب الجامعة الأميركية في بيروت قدّم « ملك » كرة القدم بيليه استعراضاً لمهارته في التعامل معها ورميها وتلقيها وترقيصها تارة برأسه وتارة بقدميه . وذهل جميع المتفرجين لمهارته وصفقوا مسحورين لعبقريته في هذا المجال ، بمن فيهم بعض رجال السياسة .

ولكن ...

لو جلس « الملك » بيليه في مقاعد المتفرجين ، ونزل الى الملعب بعض رجال السياسة اللبنانيين والعرب ، وأدوا أمامه استعراضاً في مجال بهلوانياتهم بالكرة (كرة الشعب المسكين) التي يتقنونها أكثر مما يتقنها حتى هو ، لوقف أمام أساليبهم في « التمرير »، والشوط « على الرأس » تارة وبالقدم تارة أخرى مشدوهاً ، ولعاد من جديد تلميذاً في مدرسة « اللعب » ! ..

ولكنها الحياة ... دوماً هكذا ! اللاعبون الصغار غير المؤذين يستعرضون ، واللاعبون الكبار يتسللون الى المرمى متى شاؤوا ، حتى ولو اشتعلت الكرة ، أو انفجرت ! .

١٤ / ٤ / ١٩٧٥

هراوة ، وزي فضائي !

لا تصدقوا صور الفروسية الأميركية في فيتنام ، التي يطلع بها علينا إعلامهم ! ..

لا تصدقوا صور « الأبطال » الاميركان وهم « ينقذون » الأطفال اليتامى الفيتناميين بطرق دراماتيكية ، تارة يرفعونهم في السلالم وتارة بالحبال .. وتعمم الصور على العالم ! ..

لا تصدقوا صورة رئيس جمهوريتهم فورد وهو يضم الى صدره طفلاً يتيماً فيتنامياً ويقبله قبلة يوضاس ! ..

لا تصدقوا بسالة ذلك الجندي الأميركي الذي تدلى في الصورة حتى نصفه ليسحب طفلاً من ساحة المعركة ، فهو نفسه كان يقصف قرية الطفل بالقنابل ، ولعل رصاصة أطلقها رشاشه بالذات سبق لها أن قتلت أم الطفل ! ..

لا تصدقوا الشهامة الأميركية لإنقاذ يتامى فيتنام ، وكل العبارات العصرية التي يستعملها الإعلام الحديث لتغطية الأمر ! ..

أولئك الأطفال المساكين ، أميركا صنعت بؤسهم ... جنودها أنبتوهم في رحم السبايا الفيتناميات في ليل اللعنة والبؤس ... جنودها قتلوا الرجال الفيتناميين الذين كان يفترض أن يكونوا آباء لهم ... جنودها أحرقوا زرع الأرض التي كان يفترض أن يكبروا فيها وهدموا بيوتها ... وما فعلته أميركا بفيتنام لا يختلف عما كانت تفعله أي قبيلة في العصر الحجري حين تغزو قبيلة أخرى : تقتل رجالها وتسبي نساءها وتربي أبناء زنا الحرب ليصيروا عبيداً وخصياناً ! ..

ولكن المنطق الإعلامي الأميركي يسبغ على الهيكل العظمي البشع لهذه الحقيقة أثواباً مزركشة ويغطيها بالمساحيق اللغوية ... فتتحول الجريمة الكبيرة الى عملية انقاذ ميلودرامية ... تصفيق ! (ولو خلع الرئيس فورد بزته الفضائية لخرج من تحتها حاملا هراوة وعلى جسده جلد نمر كأي محترف حرب همجي) .

تلك الطائرة الأميركية التي تحطمت وهي تقل بعض اليتامى من أرض وطنهم الى مستقبل التشرد ، هل كان سقوطها وموت أكثر أطفالها كارثة جوية أم حكمة إلهية ؟ ! .

ودموع الأطفال الفيتناميين الذين ودعوا بها بلادهم المحترقة ليلة السفر ، هل يمكن أن تتبخر في فضاء التاريخ كأن شيئاً لم يكن ؟ ! .

ولو جمعت دموع الأطفال التي تسببت أميركا في ذرفها في أقطار العالم كله ، ألا تكفي لتكون نهراً يجرف أكثر ساستها ومجرمي حربها ؟ ..

١٩٧٣/٥/١١

أنطوانيت معلوف : محاكمتك إدانة لهم !

الدكتوره انطوانيت معلوف رئيسة لجنة الأمهات في لبنان ستقدم الى المحاكمة .
لماذا ؟

لأنها كانت أماً بحق لجميع اللبنانيين ، ولأنها كانت الحنجرة لشكاوانا جميعاً من ذلك الوحش الذي أنشب أنيابه في حياتنا جميعاً والمدعو : الغلاء .

بوحي من علمها ومن مسؤوليتها كأم وكمواطنة ، قالت هذه السيدة علناً ما يقوله بقية الناس همساً وما سيقولونه ذات يوم صخباً وانفجاراً !...انتقدت ارتفاع الأسعار واتهمت المسؤولين في وزارة الاقتصاد بالتقصير وبالتواطؤ مع المحتكرين ومصاصي دم الشعب الكادح . وبدلاً من أن يسارع المسؤولون الى التحقيق في شكواها التي هي شكوى كل مواطن لبناني سارعوا الى إخماد صوتها .. كأن قطع لسان المتوجع ليكف عن الصراخ هو العلاج لأوجاعه ! ...

الغلاء حقيقة لا يلغيها تقديم الدكتوره معلوف الى المحاكمة ، (بل ربما يلغيها تقديم سواها الى المحاكمة) .

وقد تكون الدكتورة معلوف على حق في تشخيصها لأسباب الغلاء وقد لا تكون ، ولكن محاكمتها ليست أبداً من طرق معالجة الغلاء ..

والدكتورة معلوف حين أبدت وجهة نظرها حول قضية الغلاء لم تتدخل فيما لا يعنيها . ففي بلاد العالم الراقية من المتعارف عليه أن ربات البيوت – بحكم عملهن – هن أول من يطلق صيحة الاحتجاج على الغلاء ... بل هن يتخذن أحياناً قرارات بمقاطعة بعض أصناف المواد الغذائية مقاطعة تامة لمعاقبة التاجر المستغل، كما يخرجن في التظاهرات ضد تقصير المسؤولين في مراقبة الأسعار .

ليس مؤلماً أن تمثل الدكتورة معلوف أمام المحكمة ... المؤلم هو فكرة تقديمها الى المحاكمة .

المؤلم هو رفض كل محاولة واعية للإصلاح تقوم بها امرأة في مجتمعنا .

المؤلم هو موجة محاولة إخماد أصوات النساء الجديات العاملات ، ومحاولة مكافحة هذه الظاهرة ، ظاهرة المرأة المسؤولة .

مجتمعنا ما يزال يحتضن « المرأة — الدمية » ، و« المرأة — السلعة » ، ويصاب بالخوف أمام ظاهرة المرأة المفكرة والمسؤولة .

المرأة الدمية التي تقف أمام واجهة تستعرض فستاناً ثمنه ٢٠٠٠ ليرة دون أن يرف لها هدب هي التي يجب أن تقدم الى المحاكمة ، لا المرأة التي تتحسس مشكلات الأسرة أمام أخطبوط « الغلاء — الكابوس » الذي يجثم على صدر كل مواطن ومواطنة ...

وليست المفاجأة أن (تثور) الدكتوره معلوف ، المدهش هو انه لم تنشب حتى اليوم (ثورة) ! ...

٨ / ٦ / ١٩٧٣

هل السرقة من السارق سرقة ؟

في « بيونس ايرس » عادت أسطورة « روبن هود » حية الى الاذهان .

فقد أقدمت جماعة على التهديد باختطاف ، أو قتل ، مديري شركة « فورد » الأميركية في الأرجنتين إذا لم تخضع الشركة لشروطهم . وأعلنت هذه الجماعة أنها ستصرف مبلغ المليون دولار المطلوب (كسلفة فدية) على بناء مستشفى ومساعدات أخرى للفقراء ...

وكما كان « روبن هود » يسرق من الأغنياء ليعطي الفقراء ، وأرسين لوبين و« عصبة بونو» وغيرهم من أبطال تحقيق العدالة الرومانسية ، خلال القرون الماضية ، نجد أن (العدالة الرومانسية) تجد وريثها المعاصر في تنظيم ما ، والفارق البسيط بين روبن هود و (التنظيم)؛ هو اعتماد العصور الماضية على صورة الفرد البطل لتحقيق العدالة ، وانتقال ذلك الدور في عصرنا الى جماعة وذلك تمشياً مع سقوط الفرد البطل وانتقال دور البطولة الى كورس انساني جماعي .

فرق آخر بسيط ... هو أن تهديدات أرسين لوبين التي كانت في روايات (موريس لبلان) مجرد بطاقات زيارة عليها توقيعه صارت أيضاً أكثر عصرية وتحولت الى أشرطة تسجيل عليها محاضرات فكرية . فقد اقتحم سبعة من تلك الجماعة مكاتب شركة « فورد موتورز » وأجبروا الموظفين على الاستماع الى حديث يحمل على زيارة « وليم روجرز » وزير الخارجية الأميركية للأرجنتين ! .

لقد بُعثت من جديد حركة فرض « العدالة الرومانسية » ، وما خطف الطائرات إلا صورة معاصرة لعملية (روبن هودية) ... كانت فيما مضى حركة أشخاص ضد أفراد أثرياء .. واليوم تحولت الى حركة جماعات ضد دول ثرية مستغلة سارقة ... والسؤال الذي يفرض نفسه : هل السرقة من السارق سرقة ؟ أم هي (استعادة) ما سبقت سرقته من الجماهير ؟

في بيروت مدينة الفقر والتخمة ، يفرض السؤال نفسه :

حين تتعطل الدوائر (الشرعية الرسمية) عن تحقيق العدالة ، أليس مشروعاً تحقيقها بأية وسيلة حتى ولو كانت (غير مشروعة) ؟ ...

كل ما أعرفه هو أن عصرنا العلمي المتوهج بالاختراعات ما زال يغط في ظلمات العصور الوسطى على صعيد العدالة ...

لذا فكل اختراعات عصرنا (شريرة) ، و « الكومبيوتر » والصاروخ والديناميت شريرة أيضاً لأن الإنسان ما يزال يوظفها ضد تحقيق العدالة البشرية ...

ولذا ، ليس غريباً أن يلجأ عالمنا المعاصر الى حلول القرون الماضية ما دامت العدالة من يومها لم تخط خطوة واحدة في أكثر من بلد .

ويبقى السؤال : هل السرقة من السارق سرقة ؟ ...

١٩٧٢ / ١١ / ١٠

الطلاق بين التلفزيون والفكر !

يبدو ان التلفزيون اللبناني مصر على تكريس الطلاق بينه وبين الثقافة والفكر ... وهو يحرص في كل مناسبة على تأكيد احتضانه لكل ما له علاقة بالرخص والعجالات والابتذال ، وتجنب كل ما له علاقة بالعمق الإنساني وإثارة القضايا الجادة ...

وإذا تصادف أن تعثرت الخطى بأديب كبير مثل الأستاذ بولس سلامة ، ووجد نفسه في ستوديوهات القناة ٧ حاملاً كتابه الرائع « في ذلك الزمان » معتقداً أنه جيء به ليتحدث عنه ، فإن المذيعة اللبقة ستتجنب توريط المستمعين بحديث راقٍ كهذا ، وسوف تدير دفة الحديث لتسأل الأديب سؤالاً واحداً أحداً : كم هو عمرك ! .. نعم ! ... كما لو كان راقصة هز بطن ينقضي أجل إبداعها الفني مع بلوغها سن الرشد ! ...

قلت لنفسي : حسناً . ربما كانت تحاول أن تجد وسيلة تبدأ الحديث بها .

لكن الحديث مع الشاعر الرائع والفنان الكبير بولس سلامة انتهى هنا ، وانصرفت المذيعة عنه الى ما هو أهم وأعظم من ضروب (التسلية الكومبيوترية) مع المراهقين الذين كانوا يجيبون على اسئلة البرنامج والكومبيوتر وهي تجمع النقاط وتطرح، والكل لاه عن « ضيف البرنامج » الذي استُغِلّ اسمه الكبير ، وانتهى منه البرنامج ....

تأمَّلْت وجهه المضيء بسبعين عاماً من العطاء الإنساني ،وتمنيت لو أن المذيعة تدرك ولو لثانية أن هذه الدقائق قد تكون أهم وأجدى دقائق عمرها ... أن تكون مع مبدع وقادرة على أن تسأله وهو راض بأن يجيب ... كم كانت قادرة على أن تملأ بيوتنا ونفوسنا بالخصب والفرح الإنساني لو مدت جسراً من الحوار الى عالمه وتركت كلماته المضيئة تعبر الينا ...

ولكن الحلم تبدد ... والأديب لم يكن أصــلاً موضع اهتمام البرنامج .. والأدب – أو كل ما هو جاد وعميق وقادر على نبش الذات – لم يكن قط موضع

اهتمام التلفزيون ... وبرنامج (التسالي) العظيم قـد يكون اكتشف طريقـة مبتكرة كومبيوترية في النقد الأدبي ومدرسة لم يتوصل اليها أحد بعد ، لكن الأديب خليل تقي الدين الذي أعلنت المذيعة عنه ضيفاً للحلقة المقبلة أعـاد الاعتبار الى عبارة (أديب) حين أعلن رفضه للظهور في البرنامج بعـد أن رأى بعينيه « بئس المصير » الذي ينتظر الكتاب وصاحبه ...

إنني أدعو الأدباء الذين يحترمون أنفسهم الى مقاطعة التلفزيون الذي يقاطع الفكر والثقافة منذ بدايته – إلا في ما ندر – والرد على القطيعة بمثلها ... وأعتقد أن تصرف الأديب خليل تقي الدين يجب أن لا يظل موقفاً فردياً بل من الضروري تحويله الى موقف عام والى اداة للضغط على التلفزيون وارغامه على إظهار الأعمال الأدبية في إطار جاد ، ورفع مستوى البرامج بصورة عامة بدلاً من تتفيه الأدب والأدباء ...

فقد يأتي يوم نجد فيه التلفزيون يسأل ميخائيل نعيمة اعطاء ارشادات في الطبخ ، وسلمى الحفار الكزبري تقديم وصلة غنائية ، وسعيد عقل في مونولوجات ونكات متنوعة ! ! ... هزلت ! ! ...

وأما الأديب الجليل بولس سلامة ، الذي لا أظن أن أحداً اتصل به من التلفزيون للاعتذار ، فإني أعتذر اليه عن عصري وعنهم وعنا جميعاً وأقول له : سيدي اغفر لهم فانهم لا يعلمون ما يفعلون ..

٢١ / ١ / ١٩٧٢

أين لجنة الصحة العقلية للسياسة العربية ؟

لا علم الاقتصاد ولا التاريخ ولا الجغرافيا ، ولا حتى الفلك والسحر والأدب والشعر كلها بقادرة على تفسير ما يدور من متناقضات وفظاعات في بعض عالمنا العربي ... وربما كان ذلك ما دفعني للتفتيش عن تفسير لدى الأطباء النفسانيين ! .. ووجدت لديهم الكثير ممـــا يمكن قوله عن الشعب العربي وعن حكام الشعب العربي ...

يوم كانت هزيمة حزيران — التي ما تزال قائمة — ذهبنا الى الخبراء الحربيين والاقتصاديين والتاريخيين والعقائديين فقالوا وقلنا وقالوا وقلنا وقالوا وقلنا ثم أعدوا تقاريرهم عن كيف ولماذا وماذا بعد ... وبقي كل شيء على حاله، وبقيت كيف ولماذا و « ماذا بعد » على حالها ...

ولم يخطر ببال أحد يومئذ الذهاب الى الأطباء النفسانيين ولا خطر ببالي ذلك ...

ولكن الأعوام التي مرت بعد الهزيمة ، وما حملته من أهوال ومتناقضات تدفع بنا الى القول بكل بساطة : سلوك بعض الشعب العربي حكاماً وافراداً ليس سلوك مجتمع يريد حقاً أن يحارب أو أن يدخل، لا في حرب هجومية ، ولا في حرب دفاعية. وتناقضات حكام الشعب العربي ليست من نوع التناقضات التي تعبر عن خصب حيوي وتنوع ، تتصف به عادة الشعوب التي تتطور بسرعة ، وانما أكثرها تناقضات مرضية سلبية من النوع الذي يعرف أعراضه جيداً كل من قرأ كتاباً نفسانياً ولو بالمصادفة .

إن من يطالع الصحف ، ويتابع أخبار الإذاعات ، ويشهد التلفزيون لا بد أن يصاب بالذهول — إذا لم أقل بالحقد والرفض والاشمئزاز واليأس — ... والصورة التي تنعكس لحياتنا في مرآة وسائل الإعلام مذهلة بما تحويه من متناقضات ... فلنمسك بأية صحيفة من صحف اليوم ... هنالك أنباء عدوان إسرائيلي على الأرض اللبنانية أي على أرض عربية ما ... وهنالك اعلان كبير ملاصق عن انتخاب ملك جمال

(الشوارب) الشاربين . وبعدها صورة فدائي قتيل . وبعدها بيان من جمعية الرفق بالحيوان . ثم صورة فتاة جريح في مظاهرة طلابية . ثم بيان لأحد ساستنا المحنكين . ثم صورة عن الطرق التي شقتها «إسرائيل» في جنوب لبنان على الحدود تمهيداً لاحتلاله . ثم صورة أحد (بكوات الجنوب) في حفلة كوكتيل يراقص إحدى (سيدات المجتمع) . ثم خبر عن فتاة ذبحها أخوها من أجل نقـاء العرض . ثم صورة لنازحين فقدوا الأرض . ثم خبر عن سجن مدمن حشيش تم القاء القبض عليه ، وكان يحشش هرباً من بؤسه لأنه عاطل عن العمل وعن السرقة . ثم حديث صحافي مع أحد كبار مسؤولي الدولة وآخر من كبار « مسؤولي ! » تجارة الحشيش يدلي برأيه في (أنوثة) المرأة . ثم تهرب من الجريدة الى التلفزيون . ها هو مسؤول آخر يتحدث عن الاعتداء الإسرائيلي على جنوب لبنان . يقول نحن أذكياء لأنها لم تكن مفاجأة ! لماذا لم نرد العدوان؟ستسمع واحدة من كليشيهات الهرب من المسؤولية . تهرب الى قنال آخر إذا وجدته ، ستجد مسؤولاً آخر يتحدث عن فضائل السجن الحديث مثلاً . عن ذلك الانجاز العظيم و (مفخرة المسؤولين) . وتهرب من ذلك كله الى شجار عائلي ممتع يخدرك عن أحزانك القومية ويمتص ما تبقى من طاقاتك المهدورة لتنام ، أو تذهب الى مسرح (انتقادي) يفرغ أحزانك وأحقادك كلها في قهقهات كالفقاعات على سطح بركة القهر الاجتماعي والرشاوى والتجاوزات وسارقي الدولة — (وحاميها حراميها) — وصفقات السلاح والخوة ومؤتمرات الجمعيات الخيرية ومؤتمرات القمة العربية وغير القمة وغيرها من الأحزان التي ليست لبنانية فقط وإنما هي أحزان عربية ...

(وهنا أترك لقارئي في أكثر من قطر عربي أن يستجمع في ذاكرته — وما أسهل ذلك — التناقضات اليومية حوله في ممارساته وممارسات من حوله لقضاياه القومية والإنسانية ابتداء بداره وعمله وانتهاء بأحزانه الوطنية والسياسية ، وحرقته القومية التي لا بد أن تفجرها فظاعة المتناقضات التي تدور على مسرح اللامعقول في عالمنا العربي كله) أو أتركه يبتلع قرصاً منوماً ليبدأ يوماً قد يكون مختلف الأحداث من حيث التفاصيل لكن لا جديد فيه من حيث الروح العامة التي يمكن تلخيصها بما يلي : ليس هنالك سلوك مسؤول ، سلوك من يريد أن يحارب حقاً ، أن يدافع عن وجوده حقاً ، وأن يسترد أرضه الضائعة حقاً ... وليست هنالك خطة واضحة المعالم لحل أو حتى تصور لخطة .

إن لحظة صدق واحدة ينظر بها الإنسان العربي الى ما يدور حوله — لحظة نادرة ينتزع خلالها نفسه من مستنقع التفاهة والزيف العربي الذي بعضنا جزء منه ، وكلنا

مسؤول عنه شاء أم أبى — لحظة صدق واحدة تدفعه الى أن يغمض عينيه لهول ما يرى ويسد أذنيه ويصرخ ، ويصرخ بلا صوت ... ويركض مثلي لا الى علماء الأجتماع والسياسة والعقائديين وحتّى ثوار الأرصفة والاقتصاديين والمنجمين وإنما الى أول طبيب نفسي يلقاه ليسأله عن ذلك المستشفى الكبير غير المسور الممتد من المحيط الى الخليج والذي لا يعي مرضاه مرضهم ولا يعون ان بعض مدراء هذا المستشفى الكبير ومسؤوليه وقبضاياته والقيّمين عليه هم أشد الجميع مرضاً وهم الذين يتسببون في نشر « الوباء » ... وإذا كان عالمنا العربي بحاجة الى شيء فهو بحاجة الى طبيب نفساني بقدر ما هو بحاجة الى القائد والاقتصادي والعقائدي ... ان ما يدور حولنا لا تفسير له سوى أن هنالك (خللاً) ما قد أصاب الشخصية العربية النبيلة الفذة ، وانه لا بد أن يكون لهذا الخلل اسم في الطب النفسي ! ...

لقد ظلت خواطري هذه حبيسة صدري ، ولكن كل كتاب نفساني أقرؤه — وهو فرع تسحرني قراءاته — كان يزيدني يقيناً بأن فكرتي هذه تستحق البحث علناً على الأقل ... وبعد قراءتي الثالثة لكتب الدكتور « لينغ » الذي يعتبر اليوم من أكبر أطباء علم النفس المتخصصين في مرض ازدواج الشخصية (الشيزوفرانيا) وبصورة خاصة كتاباه (النفس المشطورة) و (مبادىء الخبرة وطيور الجنة) صار لدي ما يشبه اليقين بأن مرض ازدواج الشخصية يتهدد بعض شعبنا العربي إن لم أقل قد تفشى فيه كالوباء الساري ...

هذه الازدواجية المروعة بين ما نقوله وما نفعله ... بين ما يصرح به أكثر حكامنا على المنابر ، وبين سلوكهم ليلاً بين الموائد ... هذه الازدواجية في السلوك يجب أن يكون لها تفسير ...

حينما قررت انكلترا مثلاً أن تحارب المانيا بالمدافع وأن تصمد وترد الهزيمة ، جمع أبناء الشعب كل ما لديهم من طناجر ليُصار الى صهرها وتحويلها الى مدافع ... نحن نخطب عن الحرب . نتغزل بالحرب . نصفق لفكرة الحرب . . نفعل كل شيء من أجل الحرب ما عدا أن نحارب . ما اسم هذا السلوك إذا لم يكن ازدواجية في الشخصية ؟ ...

ازدواج شخصية ؟ يا ريت

التقيت منذ أسبوع مصادفة بالدكتور عبد الرحمن اللبان الطبيب النفساني كما هو معروف للجميع ، والفنان الكاتب المرهف كما هو معروف لأصدقائه القلائل فقط ...

ونقلت اليه آرائي هذه كلها ... قلتها له همساً ، لا لأنني خائفة من العقاب إذا اتهمت أكثر حكام الشعب العربي وأكثر أفراده — وأنا منهم — بمرض الشيزوفرانيا ، ولكن لأنني خائفة من التجني على مرض الشيزوفرانيا ! .

قلت له انني واثقة من أن هنالك « خللاً نفسياً جماعياً » ما تعاني منه الشخصية العربية ولكنني لست واثقة من التشخيص . فقد يكون لذلك « الخلل » اسم آخر .

وقال لي الدكتور عبد الرحمن اللبان : شيزوفرانيا ؟ انفصام شخصية ؟ يا ريت ... ربما كانت الأقلية ، الأقلية المثقفة والحساسة لدينا هي التي تبدي سلوكاً شيزوفرانياً بمعنى (الشيزوفرانيا الفكرية) الذي يكون في مراحله الأولى دليل إخلاص إنساني لأنه احتجاج الأقلية التي هي على حق انسانياً ضد الأكثرية وطوفان انحرافها وعالمها خاطىء القيم والاتجاهات الذي بات لا يحتمل ...

إن الخلل الذي أصيبت به الأكثرية والذي تحسين بوجوده احساساً غامضاً وتجهلين اسمه ، هـذا المرض اسمه (سايكوبات) . سيدتي . أكثرية حكامنا وشعبنا العربي هم (سايكوباتس) . بعض الصحف الغربية تطلق على سلوكنا السياسي هذه التسمية وهي للاسف على حق أحياناً .

يا أمة ضحكت من « سايكوباتها » الأمم

سايكوباتس .

ماذا يعني ذلك ؟

الدكتور لبان يقول بحدة وحسرة : صفات المريض بالسايكوبات هي ما يلي (وكل صفة منها تؤدي الى الأخرى) .

١ — عدم نضج الشخصية .

٢ — أناني . فاقد للمفهوم الإنساني لكلمة «مصلحة». يجدها فقط في رغباته الدنيا.

٣ — لا يتحمل مسؤولية ما يقول ولا ما يفعل ، ويهرب من مواجهة الحقيقة ويتحايل عليها بكافة الأساليب الواعية وغير الواعية .

٤ — يستعجل اللذة الفردية الحسية والمادية .

٥ — لا يتعلم من خبرته .

٦ — غير قادر على اتخاذ قرار ، وعاجز عن تنفيذه .

٧ — عاجز عن تقبل النقد ، أو الحوار الحر .

٨ – فاقد تماماً للطموح بمعنى إيجاد هدف والتطلع الى تنفيذه عبر العمل الشريف الشاق الطويل المدى .

٩ – فاقد للانسجام مع الواقع والتطابق مع معطياته الموضوعية .

١٠ – فاقد للقدرة على المرونة ، والتكيف ، متكل على معطيات بدائية غريزية في سلوكه كتقديم الولاء العشائري على الولاء الوطني حينما يتضاربان مثلاً .

١١ – عاجز عن تصور امكانية وجود أية وجهة نظر غير وجهة نظره .

هذه هي الصفات التي تميز مرض (السايكوبات) النفسي .

ومرة ثانية أترك لقرائي تطبيق هذه المبادىء العلمية على سلوك أكثر مسؤولينا ، وعلى سلوك بعض شعبنا العربي الذي يستغل كثير من حكامه أمراضه هذه بدلاً من محاولة تجاوزها وشفائها ... وأترك لقرائي تحديد النسبة المئوية لاصابتنا بها ... والضحايا المرتقب سقوطها ما دام كل ما يدور يدفع بنا بطريقة ما الى السقوط في براثن هذا المرض ... أو العقاب . الكاتب الحر الذي يرفض التدجين ويرفض أن يصير سايكوبات – أو نصف سايكوبات على الأقل – يلقى ضغوطاً اجتماعية وسياسية وارهابية وتهديدات بالسجن وبقطع رزقه وترغيباً وترهيباً .

وقلت للدكتور لبان : هل تذكر حكاية كلب بافلوف ؟ ألا تظن أن الشعب العربي مر بتجربة مماثلة عام ١٩٦٧ ؟ .

وحكاية كلب بافلوف تتحدث عن عالم روسي اسمه بافلوف لديه كلب يجري تجاربه العلمية عليه ، منها تلك التي درسناها في المدرسة . بافلوف يقرع الجرس كلما قدم للكلب طعامه . يكرر ذلك مرات . ثم يقرع الجرس دون أن يقدم للكلب طعامه . لعاب الكلب يسيل . لقد «تطبع» وصار يتوقع الطعام كلما سمع الجرس...هذه التجربة وتجارب أخرى كثيرة أجراها بافلوف على كلبه بحيث صار حيواناً نادراً وكنزاً علمياً من حيث قوانين « تطبيع » الأحياء وخلق ردود فعل معينة لديهم . ذات يوم ذهب بافلوف لقضاء إجازة آخر الأسبوع وترك كلبه في قفصه الزجاجي . وتصادف أن تعطل صنبور المياه وبدأت المياه تغمر مختبر بافلوف وتغمر قفص الكلب حتى كادت تخنقه ، وبفعل غريزة البقاء صارع الكلب المياه حتى أبقى رأسه فوق سطحها ونجا من الموت باعجوبة إذ وصل بافلوف فجأة وأنقذه قبل ثوان ...

واكتشف بافلوف يومئذ أن كارثة علمية وقعت اسمها « غسيل الدماغ » . لقد تم « غسل دماغ » كلبه الذي كان كنزاً علمياً فعاد كلباً عادياً غبياً لا يهتز ذنبه ولا يسيل لعابه لقرع جرس بافلوف ولا جرس انذار ! ...

إن الموت الذي واجهه الكلب مسح عن دماغه كل شيء غير الرغبة في البقاء ....

سألت الدكتور لبان : ألم يكن في ٥ حزيران نوع من غسيل دماغ للفرد العربي ؟ ...

قال : ليس تماماً . قلائل وعوا الكارثة ، فالسايكوباتس الذين من أبرز صفاتهم عدم النضج الإنساني لا يعون خطر السكين إلا بعد أن تغمد في صدورهم .

— والذين وعوا ٥ حزيران ، وتم غسيل دماغهم بطريقة ما ، وصار ذهنهم صفحة بيضاء ، هل يمكن زرع خطة مدروسة فيها للثأر واستعادة الأرض والكرامة ؟

رد الدكتور لبان بحرقة : لم يتبدل شيء تقريباً للأسف بعد ٥ حزيران ... ولقد تمت إعادة غرس الأمراض العربية كلها والتخلف العربي كله « والسايكوباتيه » في أي ذهن تم غسله ... لقد وظفت الهزيمة لغرس مزيد من أمراض الهزيمة ! ! ...

— لنعد الى القضية منذ البداية . لماذا أصيبت الأمة العربية بمرض السايكوبات ؟ ...

— مأساتنا هي الخروج من مجتمع بدائي الى مجتمع عصري دون المرور بمرحلة الحضارة بمعنى بنائها اليومي عاماً بعد عام ... لقد انتقلنا من البداوة الى مجتمع الاستهلاك المستورد دون المرور بالحضارة . اليك هذا المثال : سعيد عقل يظل يكرر ان ثمن السيارات التي استوردها لبنان في — كذا — سنة يكفي لإنشاء معمل سيارات . لقد نسي انه لا يستطيع شراء الحضارة وانما يستطيع شراء نتاجها ، وإن معمل السيارات ليس رأسمالاً نقدياً احصائياً وانما هو أولاً رأسمال انساني يتطلب درجة معينة من الحضارة ابتداء بالعامل وانتهاء بمدير المصنع ونظام الحكم و ... و ... ما جدوى الدبابة التي تستورد إذا حاربنا بها وكأننا نركب دابة لا دبابة ؟ ...

نحن ما زلنا غارقين في أنماط سلوكية تقليدية في فكرنا وقيمنا ، هذه الأنماط تمنعنا من مواجهة الواقع ، وتمزيقها الواعي هو وحده بداية الخلاص ...

تنوعت الأمراض والاجماع واحد

بعد لقائي بالدكتور لبان سعيت للقاء أكثر من طبيب نفساني ... كانوا جميعاً يجمعون على وجود « خلل » في الشخصية العربية وإن اختلفت تسميتهم لهذا الخلل بين السايكوبات والشيزوفرانيا وغيرهما من الأسماء العجيبة الغريبة الموجعة ... بل إن بعضهم بيّن لي كيف أن الحاكم (فلان) هو نموذج لمرض جنون العظمة وانه دونما شك يعتقد انه نابليون ... والمسؤول (فلان) مصاب بالسادية ... والماسوكية ... والدليل سلوكه العملي ... والمسؤول (علان) مصاب بانفصام الشخصية وأولى صفاته

عدم الوعي بظروف العالم الخارجي الموضوعية . والدليل ؟ تصريحاته وخطبه . وهنا اسمعني الطبيب شريطاً سجله لمريض نفسي يتحدث فيه من ذات الموقع الذي يتحدث منه المسؤول ... موقع غير الواعي لوجود أحد سواه في العالم ... موقع الذي يخاطب نفسه وعالمه الداخلي المغرور دون أن يكون لديه أدنى وعي بما يغلي في صدور الجماهير ...

عفو الشيزوفرانيا ...

وحدثوني عن أمراضنا العربية ... وحدثوني وكان حوارنا نوعاً من تشاكي المرضى ... أحسست ببعضهم ،أولئك الأطباء النفسانيون مرضى معذبون أكثر من جميع مرضاهم ... فالجنون هرب نهائي من عالم الواقع وقطع نهائي للخيوط التي تربط بينهم وبين عالم المجانين الحقيقيين الأشرار — الأكثرية التي تطلق على نفسها اسم العقلاء — أما نحن ، الأطباء النفسانيين وأنت يا قارئي ، ويا الآف المعذبين ، فكلنا لم نرحل بعد الى قارة الجنون المخدر ، وكلنا ما نزال على التخوم بين العقل والجنون ، بين الاستسلام النهائي لفظاعة ما يدور والانضمام الى قطيع جلادينا الذين حولونا الى أصنام محنطة ذليلة في متحف التاريخ ، وبين التمرد الواعي على هربنا النهائي الى تخوم الجنون النهائي ... من هذا الموقع المعذب ، من أرض الجمر ، من أرض الزجاج المسحوق ... علينا أن نزحف ونثور .

ماذا نفعل ؟ ...

ولكن ، هل هذه ملحمة ندب للعقل العربي ، ومرثية أخرى تلقى على تكاياه ؟...

لا . هذا الكلام كله حملته لأكثر من طبيب أسألهم : ماذا نفعل ؟ ... لقد سألنا المسؤولين الحزبيين والاقتصاديين والسياسيين وحتى العرّافين ماذا نفعل ... ونسيناكم أنتم أيها الأطباء النفسانيون ... ونحن أحوج ما نكون اليكم قبل كل شيء ...

نسيناهم ولكن يبدو أنهم لم ينسونا ...

قال لي الدكتور أحمد ذروي : عام ١٩٦٧ — بعد الهزيمة — القيت محاضرة في نادي خريجي الجامعة العربية تحدثت فيها عن « الأزمة النفسية لدى الإنسان العربي » ... وتحدثت فيها عن الهوة الخطيرة بين الحكام وبين رغبات الشعب ، وعن انعكاسها على نفسية الشعب وأمراضه . وعن الازدواجية القائمة بين الأمة العربية وأكثر حكامها ، وبدون وجود تطابق بين الحاكم والمحكوم لا يمكن للأمة أن تنهض من

كبوتها ... وحذرت من خطورة التفكير القبلي العربي والسلوك العشائري ... وحذرت من خطورة الاعلام غير الصادق ... وتحدثت عن مأساة الإنسان العربي الذي لا تنظر اليه لا الدولة ولا الأسرة كقيمة إنسانية قائمة بحد ذاتها . اننا نعي جيداً العلاقة الخطيرة القائمة بين الهزيمة وبين الأمراض النفسية العربية ... ولكن ...

وقلت له : ألست معي في ضرورة إتاحة الفرص لعلماء النفس كي يلعبوا دوراً نحن بأمس الحاجة اليه في عالمنا العربي ؟ ...

قال لي الدكتور ذروي بتواضع يُحسد عليه: سنة ١٩٦١ اقترحت في مؤتمر الطب العربي تأسيس لجنة قومية عربية تسمى « لجنة الصحة العقلية للتخطيط والتوجيه ».

ووجدتني أكرر شبه منومة : وبقي كالعادة حبراً على ورق ...

ولم يجب . وفهمت .

المطلوب الالتجاء اليهم

إذن . لا أخترع البارود إذا طالبت باحياء هذا الاقتراح للدكتور أحمد ذروي... بل وبتوسيعه ، بانشاء مؤسسة دراسات للامراض النفسية العربية ...

تُرى هل من الضروري التذكير بأن مثل هذه الدراسات قائمة في«إسرائيل»؟ انهم يدرسون هناك الشخصية العربية وأمراضها وكيف يحاربون العربي ويأتونه من نقاط ضعفه ... وفي المؤتمرات الدولية ، بالضبط في مؤتمر جنيف الدولي الذي عقد منذ شهرين حول المخدرات بدأ المندوب الاسرائيلي، استاذ الحقوق في تل أبيب، كلامه بقوله : إن بلدي يقع في الشرق الأوسط بين أحد أكبر البلدان المنتجة للحشيش وأحد أكبر البلدان المستهلكة للحشيش ! ..

ولكنه لم يقل أن أكثرنا يحترف التخدير عن الحقيقة ، تخدير أنفسنا ... يا نحن ...

الثـــورة ...

أيها الأصحاء القلائل في عالمنا العربي ... أيها المعذبون أنصاف المرضى النفسيين (لأن من لا يمرض منا — قليلاً — يكون بلا شبكة عصبية أو احساس) لم يبق أمامنا إلا الشيزوفرانيا الكاملة ... أو الثورة الكاملة ...

٣٠ / ٤ / ١٩٧١

بطاقة دعوة إلى الثورة !

استيقظت صباح الاثنين ١٩ نيسان بطريقة لا أستطيع أن أقول انها ممتعة . كانت هنالك يد تقرع باب غرفتي بشدة شرسة . الساعة ٧,٣٠ . تذكرت أنه يوم عطلة الفصح الأرثوذكسي ، لا عمل . لماذا يوقظونني ؟ ماذا حدث ؟ عادت اليد تقرع الباب يرافقها هذه المرة صوت شبيه بالصراخ : الشرطة .

الشرطة ؟ ماذا تريد الشرطة ؟ كنت واثقة من انني لم أرتكب – بعد – أية جريمة (يطالها القانون) ، فماذا حدث ؟ ...

متعثرة بالاثاث ، وببقايا شهوة النوم في رأسي ،سارعت ذلك الصباح البوليسي أسأل ماذا حدث. قالت لي: جارنا البقال جاء يكلمك بشأن السيارة . يقول ان الشرطة سوف ترفعها من مكانها إذا لم تتولي ذلك فوراً ! ...

الشرطة ترفع سيارتي من مكانها ؟ ولماذا ؟ أذكر جيداً انني أوقفتها ليلة البارحة أمام البيت وفي مكان غير ممنوع ، ولم أصدم بها انساناً أو سيارة ولم أنقل فيها سلاحاً غير مرخص أو حتى حاملاً لسلاح غير مرخص . وليس في سيارتي حشيش أو افيون أو مناشير ... (رغم ان كل ما يدور حولنا يحرضنا على استعمال السلاح لانتزاع حقوقنا ، والمناشير لإذاعة صرخاتنا بحرية ، وربما الحشيش والأفيون لننسى !) .

أذكر جيداً ان كل ما في سيارتي هو معطف منسي ، وعدة أوراق (من روايتي الجديدة) لا تهم احداً سواي ، وعلبة كلينكس ، ومظلة ، ورواية « البيضاء » غير الممنوعة .

وهكذا ظننت أن هنالك من يمارس هوايته في تضخيم الأخبار ونشر الذعر ... ببرود قلت : سأعود لأنام ، لا توقظوني ولو حدث زلزال .

ومع ذلك لا أدري لماذا مررت بالشرفة قبل أن أعود الى النوم ، ولم أكد أطل منها على الشارع المواجه لدارنا (شارع عمر الداعوق) حتى طار النوم من عيني تماماً ،

ربما لأيام ...

فوجئت بمشهد لا ينسى . طريف بقدر ما هو مفجع ! ...

كان هنالك ثلاثة من رجال الشرطة يفتحون بطريقتهم الخاصة (وهي طريقة ليست خاصة جداً لأن سارقي السيارات يمارسونها غالباً بنجاح) ، بسلك أو بمفتاح خاص، رأيتهم يعالجون باب (فولكزفاجن) بيضاء ، ثم يفتحون بابها ، ويرخون فراملها ويتولون دفعها حوالي ٦٠ متراً الى محطة « البنزين » القريبة ! ... تلفتّ بحثاً عن مخرج سينمائي أو مصور لا بد أن يكون قد أخرج مثل هذه اللقطة لأحد أفلام العصابات المتنكرين بزي رجال البوليس . لم أجد أحداً ، وإنما رأيت سيارة رافعة ضخمة قابعة في أول الشارع خلف رتل السيارات النائمة مثل وحش يتهددها بالتكسير والتخليع هكذا فجأة ، ودون مبرر ...

رجل (بالبيجاما) خرج راكضاً الى سيارته يزيحها الى شارع جانبي ... ويعود أيضاً راكضاً الى فراشه . صبي جارنا البقال جاء راكضاً يناديني : الرئيس يريد أن يمر ... ارفعي السيارة وإلا رفعتها الشرطة « بالونش » ! ...

حينما قال لي « الرئيس » فهمت . فأنا أعرف كبقية المواطنين أن المواكب هوايته . حسناً فليمر هو وموكبه ، ولتتقدم سيارته دبابة أو مهرج أو فرقة طبالين وموسيقيين على الدراجات النارية ... وليسرح وليمرح كما يشاء ، ولكن لماذا يريد أيضاً أن يخلي الشوارع ولماذا يوقظنا من نومنا يوم العطلة بهذه الطريقة المهينة ؟ ...

وبدأ رتل السيارات تجاه شرفتي يتناقص . بعضها تطوع البقال بازاحتها للجيران والزبائن . بعضها خرج أصحابها بالبيجاما . البعض القليل ما يزال واقفاً و (الونش) يتهدده . صارت سيارتي هي الأولى أمام (الونش) . قررت أن أرضخ للاذلال ، ورميت بالمفتاح من الشرفة راجية من أولاد الحلال إزاحتها . وهكذا كان . وتولى أحد (أبناء الحلال) بناء على طلبات الشرطة صفّها بعيداً عن طريق الموكب في أول نزلة شارع فينيقيا .

وعدت الى الفراش لأنام ولم أستطع . أحسست بأن يداً مجهولة قد صفعتني على وجهي دونما مبرر ، وانني لو وقفت أمام المرآة لرأيت على خدي الملتهب آثار أصابعها المستفزة الجهنمية ... أحسست بالإهانة وبالأحرى بقطرة الإهانة الأخيرة التي جعلت الكأس تطفح، وبالشعرة التي قصمت ظهر بعير الصبر . أحسست بالحزن يخنقني . شعرت بأن أنيابي بدأت تطول وكذلك مخالبي ، وامتلأت بحقد بريء وحشي — هو

الحقد الذي يفجر الثورات عادةً ويطيح بالحكام ، إنه الحقد الذي حده القاطع مقصلة — ... تذكرت بحسرة حقيقية أنني منذ شهر ونصف شاهدت في بلد أوروبي رجلاً يدخل بهدوء الى أحد دكاكين باعة الهدايا وينتقي عدة كرافتات ويخرج بالهدوء نفسه ليقود سيارته ، وبصاحب الدكان يقول لي بفخر : هذا هو رئيس جمهوريتنا ...

وأخيراً وبعد ساعات (حوالي العاشرة والربع) سمعت الصفارات التي تتقدم المواكب (بصوتها الذي ينوح كما تنوح سيارات الإسعاف التي تكنس القتلى من الشوارع) ... وسارعت الى الرصيف يدفعني فضولي ... ومرت السيارات ... مرت السيارات بسرعة ، لكنني كنت واثقة من أنني رأيته ، وأنه لم يكن يبتسم . صفق للسيارات بعض الصغار ، الكبار لم يصفقوا كانوا ينظرون بوجوم وبشيء يشبه خيبة الأمل السرية في عيونهم ... لم أبتسم ولم أصفق . حزنت باخلاص ، وعدت الى البيت متوعكة النفس والصحة ... كنت أعرف أن مئات المواطنين الذين تمت إهانتهم سيصمتون . بعضهم لأنه اعتـــاد لامبالاة السلطة بالحريـــة والكرامة الشخصية في بلادنا ... وبعضهم ليس لأنه اعتاد ، ولكن لأنه ثار أكثر من مرة دون جدوى ، وقرر اعتزال الثورة واعتزال الغضب والانضمام الى الأكثرية الصامتة في هذا الشعب الحزين ... وهنالك فئة أخرى ، صمتت لأنها وجدت في هذا التصرف من السلطة مظهراً من عشرات المظاهر المعبرة عن حقيقة أساسية تعاني منها أكثر أقطارنا العربية : هي استهتار الطبقة الحاكمة بالناس ، وانفصالها عنهم ... والحل لا يكون بالثورة على مظاهر هذا الاستهتار ثورات صغيرة متقطعة ... الحل هو في ثورة كبيرة تنسف جذور اللاعدالة القائمة وتقتلعها تماماً ليزول بزوالها كافة الظلم الذي ينوء تحته الشعب ، والاستهتار بحريته وكرامته ما هو إلا من بعض مظاهر هذا الظلم . من الفئة الثالثة كنت أنا . لذا لم أقل شيئاً .

وفي صباح اليوم التالي — يوم الثلاثاء — حينما غادرت الدار الى سيارتي في طريقي الى العمل ، وجدت أن (ابن الحلال) الذي تولى انقاذها من براثن الشرطة ، وكلبهم المتوحش (الونش) ، عبث بأزرارها على غير هدى ليحركها وظل زر نورها مشتعلاً حتى فرغت البطارية تماماً ... والحقيقة أن الذي أثارني لم يكن فاتورة البطارية الجديدة التي بلغت المئة ليرة ، وانما كان ورقة صفراء تفضل رجال شرطة السير مشكورين بإلصاقها على الزجاج الأمامي لسيارتي : ورقة مخالفة لوقوف السيارة في مكان ممنوع (!) هو المكان الذي أيقظوني مع الفجر الباكر وأرغموني على نقل

سيارتي اليه ! ...

هذه المرة انفجرت ضاحكة بمرارة ... هذا هو مسرح اللامعقول ! ... دوماً ينتقدني الرفاق لأنني انتقيته موضوعاً لأطروحتي ويقولون لي أنه مستورد . بلادي هي موطن اللامعقول ، وكل ما يدور في شوارعها وأزقتها ومكاتبها وحاناتها ودوائرها الرسمية هو فصول لم تخطر ببال بيكيت أو جينيه أو ألبي ، أو غيرهم من عباقرة مسرح اللامعقول ! .. في أوروبا اللامعقول مسارح ، وبلادنا هي مسرح اللامعقول المنصوب من المحيط الى الخليج ...

ظننت أن القصة انتهت عند هذا الحد . لم أتوقع كما لم يتوقع سواي أن يرتفع صوت مسؤول بالاحتجاج ، مستقطباً بذلك أصواتنا المهمهمة بالاستياء ومشاعرنا المهانة المستفزة . وقررت : مثل هذه الأشياء تحدث في عالمنا العربي منذ زمن طويل ، وستظل تحدث حتى ... (ليس سراً حتى ... حتى نثور !) ...

المهم أن لا يكون الأستجواب الذي قدمه أحد النواب حول المواطنين الذين امتهنت كرامتهم يوم أثنين الفصح هذا ، من بعض صمامات أمان بوتقة الغضب الشعبي العارم وإلا لكان في موقفه هذا ما يزيد في إلهاب نار الثورة ، ثورة الشعب العربي المقبلة في لبنان والتي لن يستعر لهيبها حينئذ (من فوق) فقط على صعيد استجواب نائب ما ، وإنما من الأفق الى الأفق والى كل مكان ! .

وشكراً لشرطي السير الذي حرر لي بطاقة المخالفة وتركها على زجاج سيارتي المستباحة ، فقد ترك لي دون أن يدري بطاقة دعوة الى الثورة ! ...

٢٢ / ١ / ١٩٧١

دق مسمار في تابوت شاعر !

منذ أيام أعطاني شاعر شاب مخطوط ديوانه الشعري الأول . قرأته . أعدته اليه بصمت . لم أقل له كم أحببت سطوره ، فقد وجدته شاباً وفي مقتبل العمر ، وتشجيعي له على ارتكاب الشعر هو تماماً كتشجيعي له على الانتحار ... ففي اليوم الذي قرأت فيه مخطوطته قرأت النبأ التالي: (يحتفل قطر عربي – هو نفسه القطر الذي قدم منه الشاعر الشاب – في مهرجان كبير بذكرى شاعره، وتخليداً لذكراه أرسلت الدعوات إلى عدد كبير من الشعراء والمفكرين العرب لحضور المهرجان ، ولتأبينه ولازاحة الستار عن تمثاله ...) ...

الشاعر المذكور مبدع عاش فقيراً وحزيناً ومهملاً ومات حزيناً وفقيراً ومهملاً ... ظل طيلة أيامه ينزف شعراً رائعاً ، وينزف (عملياً) لشدة المرض ، وكان عليه أن يتسول من سلطات بلاده ثمن الدواء والعلاج ، ولعل ما نخر رئتيه كان اجحاف السلطات واهمالها له أكثر مما تأكلتا لمرضه ...

يومئذ كان أصدقاؤه يتسولون له بطاقة الطائرة ليرحل بحثاً عن العلاج ... واليوم تنثر بطاقات الطائرات المجانية بالعشرات كي يأتي الشعراء للوقوف على أطلاله ! ... أيام كان حياً لم تكن لتتوافر له أبسط وسائل الراحة الضرورية لإنسان يحتضر ، واليوم يدعو قطره الناس إلى فنادق لم يكن ليحلم بالاسترخاء فيها مرة في حياته ... وكان وجهه يتشقق حزناً وأسى ، فالفنان يفضل أن يموت بصمت دون أن يريق ماء وجهه (يومها لم يأبه أحد لتمثال العذاب الذي كانه وجهه) ... واليوم بعد مماته يرفعون الستار عن تمثال برونزي لوجهه،نصف تكاليفه كانت تكفي لرسم ابتسامة على وجهه وهو حي ...

متى تدرك السلطات في الأقطار العربية كلها انها مسؤولة عن الفنان أثناء حياته مسؤولية ايجابية بمعنى ان تساعده على الحياة بكرامة كي يظل ينتج ، وأنها ليست

مجرد وكالة لدفن الأموات وإقامة الصلوات الاحتفالية تكريماً لهم ؟... متى تكف عن هواية اضطهاد المبدعين أحياءً ثم اقامة مهرجانات تأبينية لهم بعد موتهم ؟ .

الخطيئة التي ارتكبتها السلطات يومئذ في حق الشاعر لا تصلحها السلطات الحالية بإقامة مهرجان (كلام وأكل وشم هواء) ...

هذه النقود يجب أن تصرف لا على الضيوف وإنما على كل شاعر موهوب حي شاب بيننا ... هذه النقود هي من حق أولئك الذين يعيشون اليوم ما عاشه ذلك الشاعر بالأمس والذين ينتظرهم مصير مشابه ما دامت سلطاتنا تهمل بناء البيوت للمبدعين لتبني قبوراً فخمة لهم بعد مماتهم ... هذه النقود كان يمكن أن ترصد لنشر نتاج الشعراء الشبان الذين يكافحون (ككل الشعراء الشبان في كل قطر عربي) بحثاً عن اللقمة ، وعن الكلمة ... الذين يتمزقون في صراع مزدوج لا يرحم : صراعهم مع ضروريات الحياة ، وصراعهم من أجل الابداع ... وحتى تعي أكثر حكوماتنا العربية مسؤوليتها أمام المبدعين الأحياء قبل الأموات ، سأظل أعيد لكل شاعر شاب مخطوطه بصمت ... كي لا أشارك في دق مسمار في تابوته ! ...

١٤ / ٢ / ١٩٦٩

... لأنه كل ما تبقى لنـا !؟

أترك للارقام المجردة أن تروي لك هذا النبأ .

أمس ، أطلعني صديق مسؤول في منظمة فدائية فلسطينية على رسالة تلقاها من صحافي سويدي ، ضمَّن رسالته تلك شيكاً بمبلغ (١٥٠٠) دولار متبرعاً بها للعمل الفدائي !! (أي ما يقارب ٤٠٠٠ ليرة لبنانية) .

١٥٠٠ دولار !!

الشيك رقم « ٢٢٨٩٨٣٦ » ، المؤرخ في ٣١ – ١ – ١٩٦٩ المسحوب على « سكاندينافيسكا بانكن » !

الصحافي المتبرع اوروبي سويدي أباً عن جد، وليس مغترباً، كما انه ليس معتوهاً... كل ما في الأمر انه زار معسكرات الفدائيين ، منذ عدة أشهر كأي صحافي أوروبي آخر .. أقام بين اولئك (المنذورين) للموت برهة من الزمن ريثما ينهي مهمته الصحفية . كتب ملاحظاته . التقط مجموعة من الصور . عاد إلى بلاده كما يعود أي مراسل أدى مهمته ...

ما الذي يمكن أن يدفع به إلى مثل هذا التصرف المفاجىء ؟ ما هو الخيط الذي ظل يشده إلى أرضنا ؟ ما مدلوله ؟ أترجم لقارئي بعضاً من رسالة الصحافي السويدي المرفقة بالشيك ، وفيها يقول :

« عزيزي ..

امس نظرت في ميزانيتي للعام الماضي ، واكتشفت انني أدخلت إلى هذه الميزانية مبلغاً كبيراً من المال ، هي حصيلة ثمن المواضيع التي صورتها وكتبتها عن الفدائيين . أنبني ضميري وشعرت بالعبء ، فكإنسان لا أستطيع ان أعتبر معركتكم النبيلة مناسبة للكسب الشخصي المالي ، انني أبعث لك مع هذه الرسالة شيكاً بمبلغ ١٥٠٠ دولار اميركي تبرعاً متواضعاً مني للرجال الذين رأيت بعينيّ عظمة المعركة التي يخوضونها

وعظمة استعدادهم للتضحية في سبيلها » .

لماذا دون أي الزام خارجي ، دون أي ترغيب أو ترهيب ، أو أية مصلحة شخصية، يقدم انسان غريب على إعادة ما يعتبره كسباً ليس من حقه ، واثراء غير مشروع ، هذا بينما لم نسمع مثلا ببادرة مماثلة من أية مؤسسة صحفية ... أو غير صحفية عربية ، كان في (موضوع الفدائيين) مادة تجارية رابحة لها ؟ ؟

لماذا كان هذا الغريب أكثر قرباً إلى العمل الفدائي من بعضنا ؟ ... أليس لأن هذا الرجل قد التقط الرسالة حقاً ووعاها ... ولأن وعيه بها كان حقيقياً ، فان ولاءه للقضية كان بالتالي من بعض ولائه لذاته .. وتلك أعلى مراتب (الانتساب) حين (يختار) الانسان حقيقة أو يكتشفها بمعزل عن أي إلزام أو ترغيب ، وليس لأنه وجد فيها موضة العصر أو شريعة الحزب الحاكم . ولأنه التقط الرسالة الحقيقية للمعركة فان ولاءه بالتالي لم يكن ولاء نظرياً ، وانما تحول إلى سلوك ، أي إلى موقف عملي ...

لماذا هذا الرجل السويدي الذي يعيش على بعد آلاف الاميال من أرضنا ، استطاع أن يلتقط الرسالة الحقيقية للمعركة التي يخوضها الفدائيون لاسترداد الارض ، وبيننا رجال على مرمى حجر من تلك الارض —ان لم أقل يرونها— ما زالوا عاجزين عن التقاط الرسالة للمعركة التي هم أصحابها ؟ سلوكه هذا الذي فسره في رسالته بقوله أنه ثوري ، ألا يرغمنا على اعادة النظر في مواقف بعض الذين يدعون أنفسهم ثوريين في بلادنا ، وليسوا في سلوكهم أكثر من « مرتزقة ثوريين » ؟

لماذا كان ذلك الثوري القادم من آخر الدنيا قادراً على تحويل التزامه الفكري ، إلى سلوك عملي منسجم مع قناعته ؟ ترى هل يرجع السبب إلى أنه، انسانياً ، أكثر رقياً مما نحن عليه ، وهو بالتالي أكثر وعياً لقناعاته ، وأكثر نزاهة مع ذاته ، وأشد قدرة على الالتزام الداخلي الانساني الحر ؟ ؟ ...

رسالة هذا الصحافي السويدي وقدرته الجادة الحرة على محاسبة الذات تفتح العين على أكثر من جرح عربي ، وتلفت النظر إلى طبقـــة من (المرتزقة الثوريين) التي تكونت لدينا في الاعوام الاخيرة ...

هذه الطبقة من (اقطاعيي التقدمية ومدّعيها) لم يكن استغلالها للقضية هو كل خطاياها ...

الخطيئة التي لا تغتفر هي أنها بحجة « الحرص » على العمل الفدائي ، أحاطته بهالة

من المحرمات : تحريم البحث حوله ، وتحريم أي نقد إيجابي حيادي وبنّاء ، وذلك لتستّر عورات استغلالها وتناقضاتها خلف قدسية العمل الفدائي الذي هو كل ما تبقى لنا في زحام التهريج الذي نعيش ...

الفدائي هو انسان حكم على نفسه بالموت مع وقف التنفيذ ، ريثما تتم لحظة التنفيذ المناسبة .

انه فعلاً ما تبقى لنا ... ولذا فاستغلاله — حتى ولو بحسن نية — جريمة لا تغتفر ، وطعنة في جسد الثورة موجهة من قبل بعض حراسها والقيّمين عليها ! ! ...

انها المأساة في بلادنا ان لا نجد لدى بعض مناضلينا من الثورية سوى بطاقاتهم الحزبية من دون السلوك الانساني الحق ...

٢٤ / ١ / ١٩٦٩

شيء لا يقال

على أرصفة بلادي ، هنالك من يصرخ باستمرار :
صمت . ممنوع . عيب . حرام . صمت . اهتفوا أو اسكتوا . صفقوا بأيديكم .
يد الكاتب اقطعوها ...
لكلٍ كمامة ورغيف ... من لا يرتدي كمامته فلا رغيف له ...
(خطّاف لكل حنجرة تصرخ لا) .

خطّاف لحنجرة من يقف ضد « الدفاع عن التخلف باسم الاصالة الاجتماعية واسم المحافظة على الشخصية الشرقية » .

(العار) الوحيد الذي يفوق عار (انتهاك عذرية) بنت في الشرق ... هو (انتهاك عذرية) الفكر المقدد عندنا .

* * *

وكما يتسبب تفجير اصبع ديناميت في اشعال فتيل الديناميت المجاور ، كذلك الكلمة الثائرة .

* * *

هاتوا خطّافاتكم واتبعوني سأقول لكم مزيداً من الاشياء التي لا تقال ...
رغيفي أرمي به في وجوهكم ، وكمامتي ايضاً ...

الشيء الذي لا يقال ولا مفر من ان يقال هو ان معظم ما في حقل حياتنا ليس جديراً حتى ببرك الوحل . كل شيء عندنا بحاجة إلى نسف كلي لأن منطلقاتها كلها في حاجة إلى إعادة نظر . مناهجنا الدراسية . أشعارنا . تراثنا . أجهزة حكمنا . علاقاتنا. مواقفنا . كل شيء .

* * *

الشيء الذي لا يقال، والذي لا مفر من أن يقال هو انه لم يعد هنالك محل « للامجاد الغيبية » ...

لقد هدّنا اعتقادنا بأننا (لو تزلنا عنك يا جبل بتنهدّ) ، ومع ذلك ما نزال ندرّس لأولادنا نصوصاً من نوع : (بيض صفائحنا . سود مطايانا) . كل شيء عندنا «موقف خطابي» يستمد وجوده من (مكرسات) ومسلمات لا تناقش ، واذا نوقشت يُنهى النقاش فوراً بـ (قفلة خطابية) ! ... وقد يكون صاحب (القفلة الخطابية) على حق ، لكنه لا يستطيع ان يقنع انساناً آخر بموقفه ... لنأخذ هذا الحوار الذي قرأت جانبا منه في تحقيق لزميلة اسبوعية .

بنت الجامعة : لا نسمح بالمطالبة بحرية المرأة المطلقة . نحن ضد الكتابات الاباحية والفاسدة التي تطالب بحرية المرأة ! .

المحررة : لماذا ؟ (كن أربعاً أو خمساً ، أكثرهن وجدنها مناسبة لإعلان انا هنا يا ابن الحلال انا بنت كويسه ومتعلمة) .

بنت الجامعة : لأن تقاليدنا الشرقية لا تسمح بذلك (ختام . تصفيق حاد) .

انتهى الحوار بهذه القفلة الخطابية .

(قد يكن على حق أو على خطأ) . ليس هذا ما أناقشه . أناقش اسلوبهـــن في النقاش . ليس بينهن من عرّفت ما تعنيه بـ (التقاليد) أو (التحرر) . كل مـــا يملكنه رغم سنواتهن الجامعية هو استنادهن إلى مسلمات ومنطـــق (أيام سفربرلك) . الجامعة منبر لاستعراض الأزياء وإعلان (أنا هنا يا ابن الحلال) ..

كل ما في حياتنا يدفع بنا لأن نقول « أشياء لا تقال » ، فللسياسة عندنا (تانتاتها) أيضاً . ترى ذلك الذي يرتدي (قميص ماركس بدلا من قميص عثمان) ويتجول به واذا ولد له صبي اسماه عبدالله الستاليني الماركسوفسكي . يحاضر في التقدمية . و(يقطع) رقبة ابنته اذا تأخرت عن اسطبل الاسرة ، حيث البنات يأكلن ولا يعملن ... هو يعيلهن كضريبة من أجل (عرضه) ... عرض البنت قبل عرض الوطن ... واذا قلنا له : ابنتك في حال قيام حرب لا تستطيع ان تحارب .

يقول : بأسناننا ندافع عن العرض .

نقول : واذا هزمنا وتشردت كيف تدبر رزقها وهي التي لم تحمل المسؤولية يوماً ؟

يقول : لها الله . يكفي انها شريفة . (ختام . تصفيق حاد) . قفلة خطابية ... ولكنه ليس على استعداد لأن يقول لك ما هو (الشرف) .

* * *

سادتي انا لا أفهم مثلاً جدوى ان تقضي امرأة يومها كله في صنع (كعك العيد والتقاليد) حينما تنوء الامة تحت ديون استيراد الدقيق لصنع هذا (الكعك) ويقضي زوجها ليله في معالجة معدته من امراض أكل الكعك بالادوية المستوردة . بدلاً من أن يعمل كلاهما لزرع القمح وايفاء الديون ؟ ...

لماذا ؟ العادات . (قفلة خطابية) .

* * *

سادتي أضحى لسان الفرد العربي هو زائدته الدودية الحقيقية ... استعماله مباح لأي شيء الا للغرض الاساسي الذي وجد من أجله في الجسم : الحوار ...

اللسان مسموح استعماله للعق الاحذية. (لتمسيح الجوخ). للتفاهة . لمسح زجاج المقاهي . لمسح دمع العيون . لأي شيء الا الحوار ... سيسجل التاريخ الطبيعي أنه كان للفرد العربي المعاصر زائدتان دوديتان ... واحدة يستأصلها الطبيب . والاخرى في فمه يستأصلها الحاكم ، أو يتنازل عنها المواطن المتخلف راضياً حامداً شاكراً .. المجد لرجل الفضاء في الأعالي ، وللتخلف على رصيفنا الذي لم يعد جديراً حتى بأغنية رثاء .

وإلى اللقاء معكم حاملين خطافاتكم لحنجرتي . مزقوا حنجرتي : صوتي سيبقى !

٧ / ٢ / ١٩٦٩

أشياء لا تقال

ألسنا خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح

(بكتابه في يساره ، بثياب مهترئة ، كان أحد الطلاب يروح ويجيء تحت عمود من أعمدة كهرباء شارع الرملة البيضاء كما يفعل كثير من اولاد الفقراء أيام الامتحانات ، توفيراً للكهرباء وهو يكرر هذا البيت ويستظهره . وخلفه كانت الابنية الفخمة التي ربما كان والده بواباً لاحداها ... وحزنت : يخدرونه ... منذ البداية يخدرونه ... على كل صعيد وبكل وسيلة يخدرونه) .

ألسنا خير من ركب المطايا   واندى العالمين بطون راح

(كان ياما كان ! ! ..) ...

للأمة التي ما يزال بعضها يباهي بركوب المطايا في عصر ركوب الصواريخ ، ويباهي (بالأخلاقيــة الخطابية) ، ويباهي براحات أكف تقبض بناصية (الكرم التقليدي) ولكنها لا تقبض بتلك الاكف حتى على مصيرها وهويتها ووجودها ، لهذه الامة نكتب وأكتب .. في رتابة شخير « أهل الكهف » الكبير من المحيط إلى الخليج من المفروض اننا نصرخ ... اننا نؤدي دور الفنان التاريخي المفترض : الشهادة والاستشهاد ...

ولذا ، يوم أصدر مبدع يدعى طه حسين كتابه « في الشعر الجاهلي » ، (دبت الصرخة) ، وهاج كهنة معابد التحنيط على كل صعيد ، وطاردوا حنجرته بخطّاف ، وقلمه الحر بكمامة ..

فقد كان الكتاب يطالب « باعادة نظر » في أوثان ادبية وفكرية تم نصبها منذ العصر الجاهلي ولم يجرؤ ناقد أو قارىء على النظر بعين جديدة اليها ، على ضوء عصر جديد، ومعطيات حضارية جديدة (هذا مثال بسيط ، لتحد بسيط تم فيما بعد تدجينه ، ولذا لم يمت صاحبه خنقاً في سرداب ما) فنحن ما نزال نعيش في عصر

(هبل ، واللات والعزى) في عصر عبادة الاوثان السياسية والاجتماعية : ذلك هو التخلف .. ان يتقلص الانسان أمام مسؤولياته ، ويرمي بها على كاهل وثن من ما وراء الطبيعة – وثن . تابو . صمت . لا تناقشوا . لا تسألوا . لا تفتشوا عن هويتكم ، توارثوها أباً عن جد بطاقات صفراء مهترئة ، كتباً صفراء مهترئة . اعادة النظر إلحاد .

ولأن الفنان هو ذلك البريء من رجس التحجر ، فقد كان الفنان العربي الأصيل هو دوماً الكبش الذي يُنحر في أعياد تخلفنا ، ويسفح حبره في مذابح أوثاننا .

يُنحر .

أو ينتحر .

يُهاجر .

أو يبقى، ويهاجر عن موهبته . واذا كان العالم لم يتوصل إلى زرع القلوب بنجاح حتى اليوم، فان عالمنا العربي نجح في(زرع العيون) منذ عصور... زرع عيون الأجداد في وجوه الأحفاد .. لكن الفنان هو عين جديدة ، رافضة ، ثاقبة ، متحدية ، وهو بالتالي العدو الأول لعبادة الاوثان : التخلف ... وهو الرافض لتمجيد التخلف على أي صعيد ...

والمهزلة أن بقاع الارض التي شهدت مولد الديانات التوحيدية – وكانت هذه الديانات يومها ثورة حقيقية – ، هي وحدها التي ما تزال تتابع عبادة الاوثان ...

الكلمة ؟ الكلمة معجزتنا ؟ ...

لا . الكلمة افيوننا أيضاً .

فالكلمة الحرة هي وحدها التي تستطيع ان تكون معجزة ...

الكلمة الحرة في بلادي لقيطة ، خلقها اثم ، ويجب أن تقال سراً بحذر اللصوص ، وإلا ... خطاف لحنجرة الفنان : رحم الكلمة الصادقة ...

* * *

دقت طبول أهل الكهف بعد هزيمة الخامس من حزيران ...

وخرج المنادي في الناس يصرخ : ثورة ثقافية يا ناس ... ثورة ثقافية يا متعهدي الأدب ... مناقصة لتلزيم بناء ثورة ثقافية ...

وتعالى الهتاف : تعيش الثورة الثقافية ... تعيش تعيش تعيش . (تصفيق . ايها المواطن الصالح عد إلى الشخير) . أُسدل الستار .

* * *

وكانت المهزلة ... ثورة ثقافية .. ثورة ثقافية ... يا للفجيعة ... صارت الثورة الثقافية وثناً جديداً ..

امدحوا الثورة الثقافية ، تحدثوا عنها خطابياً ، للتكسب أو للهجاء ، أما كمضمون فهنا المهزلة . اما زالوا يصرخون .. حذار من انتهاك (المحرمات) و (المسلّمات) ، حذار . حذار . عيب . حرام . تقاليد . أمجاد يا عرب أمجاد .

وهكذا أضفنا إلى رف محنطاتنا جسداً جديداً محنطاً أسميناه « ثورة ثقافية » .

* * *

والذين ثاروا حقاً — بالاحرى تابعوا ثورتهم فالمبدع لا ينتظر هزيمة وجوازاً وتأشيرة لرحلة بحثه عن الحقيقة — ، عادوا يواجهون الخطافات العتيقة ذاتها ... الكلمات ذاتها ...

بالنسبة للأديب ، الكمامة كمامة سواء كانت من مصنوعات بكين أو لوس انجلوس أو محلية الصنع ...

الوثن وثن حتى ولو كان اسمه الثورة .

اطلاق رصاصة على حريته لا يُغتفر سواء كان مطلقها يحمل بندقية باليد اليمنى أو اليسرى .

* * *

والمفجع ان للمأساة ابعاداً اخرى ..

فالأديب العربي شاء أم أبى هو من بعض أهل الكهف ... وفي شرايين موهبته من الصدأ والتآكل والضعف امام (الوثنية) ما يجعله أبداً في نضال متعدد الوجوه : نضال ضد الازدواجية داخله وخارجه ...

ونضال ضد معدته التي لا يرتبط توقيت ثورات جوعها مع توقيت ثورات قلمه الرافض ... ونضال ضد ضعف الطين في عجينته البشرية ... ونضال ضد قوى ما وراء الطبيعة في مرحلة تاريخية اكتشفت أمتنا خلالها ضياع بوصلتها ونجوم مجرتها ...

والأهم من ذلك كله ، نضاله ضد المفهوم الجاهلي لفكرة الاديب التي ما تزال مسيطرة على الأذهان : الاديب لدينا وثن أو طريد .

الانسان ، ذلك الشيء العظيم الرائع ، أديباً كان يشق الورق بقلمه ، أو فلاحاً يشق التربة بسكة محراثه ، لا تقدره المجتمعات (الوثنية) كما تفعل المجتمعات التي نشتمها لأنها (آلية) .

الفنانون نجوم على الارض ؟
لا .
بل من بعض بحارة مركب أمتنا التائه في محيط العصر ... بل من بعض حملة المجاذيف (بأكف شققها لفح الماء المالح والريح العاتية ، وتعنت الربان ، ونعيق المدعين حاملي أوسمة الادب !) كل منهم يجسد في سموه وفي سقطاته بعضاً من تطلعات وسقطات مجتمعنا العربي المعاصر ... لكننا أبداً نصنف موهوبينا في أحد أرشيفين : أرشيف الاوثان ، وأرشيف الطريدين . ويتم التصنيف وفقاً لأوثان ومسلمات بالية أضفنا اليها مؤخراً وثن تخلف بالممارسة المتخلفة له أسميناه « الثورة الثقافية » ...

* * *

سادتي ، أنا من نسل ذلك الاعرابي الذي أكل وثنه المصنوع من التمر يوم جاع . (كان ياما كان ... كان هنالك شاعر عربي ورث أباً عن جد إلهاً في ركن الدار مصنوعاً من التمر . جاءت المجاعة . لم يصلّ . لم ينتحر . أكل إلهه ، واكتشف ساعتها الإله الحقيقي : أن (يكون) ، لا أن يسلم أمره للاوثان) .

* * *

لا أوثان . لا طريدة . لا تقديس . لا إدانة سلفاً ...

بجوع أجيال في دمي إلى اليقين ، وبجوع جيلنا الباحث عن حقيقة ليعيشها ، لا ليصفق لها ، كلي حزن ومرارة ، لانني أعرف ان أصواتاً كثيرة مبدعة لم تصلنا ، لأن كتاباتها كانت حفراً بأظافر مقلوعة على جدران زنزانات سجون وسجون ... أولئك كم كنت أتمنى أن أكتب عنهم وأتحدث اليهم .

وبعد ، فلنأكل آلهتنا التمرية ، ولنمزق هالات القداسة التي نرهق كتّابنا بوطأتها ، ولنعد النظر في « الوجه الانسان » للجميع ، فهو وجههم الحقيقي الذي يعكس لنا مآسينا الحقيقية .

أليست العودة إلى الانسان هي الثورة الحقيقية على الوثن ؟ ...

أليست اعادة النظر هي العتبة إلى الثورة ؟

أليس الحوار الحر — بلا تجنب لمحرمات الدين والجنس والسياسة — هو الوسيلة الوحيدة لاعادة الالتحام في قوى الرغبة بالتبديل ؟

أليست مهزلة أن أول أبجدية في التاريخ كانت من صنع أجدادنا ، ولكننا نحن الاحفاد ما نزال عاجزين عن الحوار منذ عصور ؟ ! ! ... ٥

١٣ / ٦ / ١٩٦٩

فكر قتيل أم فكر مقاتل ؟

عن الفكر ، يقول نازي كبير : « كلما سمعت كلمة ثقافة ، شهرت مسدسي » .

وعن الفكر ، يقول خليفة عربي كبير هو عمر بن عبد العزيز : « ان الرجل ليكلمني في الحاجة يستوجبها ، فيلحن ، فأرده عنها ، وكأني أقضم حب الرمان الحامض ، لبغضي استماع اللحن ، ويكلمني آخر في الحاجة لا يستوجبها فيعرب ، فأجيبه اليها ، التذاذاً لما أسمع من كلامه » !

وقد يطرب القارىء للوهلة الاولى لكلام الخليفة العربي الذي ينطوي ظاهرياً على تقدير لا حد له لأهل القلم ، ويثور على « النازي » الذي يريد أن يشهر مسدسه على الثقافة ويطلق رصاصه على الكلمة ...

ولكن موقف الخليفة العربي من الثقافة هو أسوأ من موقف ذلك النازي ... والموقفان في رأيي رغم تباينهما ظاهرياً ، يؤديان مهمة واحدة : إبادة الفكر الابداعي الحقيقي .

والفكر العربي يعاني من كلا الموقفين !

فموقف النازي من الفكر لا يثير الدهشة لاننا تعودنا ان نجد الارهاب الفكري صنواً للارهاب العسكري ، بل انه موقف ينطوي على الاقل على وعي بأهمية الفكر . فالنازي لو لم يفهم المعنى الحقيقي لكلمة (ثقافة) ويعي مهمتها لما تنبه إلى خطرها ... أما حكاية الخليفة هذه فتعبر ببساطة عن وجه آخر من وجوه التخلف العربي الفكري عاني منها على طول تاريخه وما يزال : هي خلط العرب بين عشقهم للفظة لذاتها وبين استعمال اللفظة كأداة للتعبير عن فكرة ...

فقد ظلت « الكلمة » وثن العرب الاثير ... وبـ « الكلمة » في أبلغ صورهـــا و(أفصحها) وأجملها كان العربي يواجه كل ما في حياته من أفراح وأتراح : إذا جاع أنشد شعراً قبل أن يستل سيفاً أو يزرع قمحاً ، واذا أحب أو اغترب أو حارب أعمل لسانه في القريض أكثر مما أغمد سيفه في العدو ... واذا عرضت له حاجـــة وقف

على بابِ الخليفة عارضاً فصاحته قبل عدالة قضيته ... والأدهى أن ميزان العدالة كان ـ باعتراف أعدل الخلفاء ـ يتأثر بجمال اللفظة قبل عدالة المضمون ... وأكثر تراثنا العربي يدل على اهتمام العرب بما اسماه الدكتور « زكي نجيب محمود »: « حضارة اللفظة » قبل « حضارة الاداء » .

بعد هزيمة ٥ حزيران ازداد الوعي أكثر من أي وقت مضى بأنه لم يعد هنالك مفر من الانتقال من حضارة اللفظة إلى حضارة الاداء ، بعبارة اخرى (المطلوب ثورة في المضمون وتقشفاً في الشكل ـ الناقد الاردني محمود ريماوي) ...

والمأساة أن في داخل كل فرد عربي ـ شاء أم أبى ـ بعضاً من ذلك الخليفة الاعرابي المغرم باللفظة .. الجماهير ما تزال تسقط صريعة أفيون الكلمة في خطبة أو أدعية أو أغنية .. والكاتب ما يزال عشق اللفظة يعاوده .. وكما في داخل كل مفكر عربي ، أعرابي يعيش عصر « صناعة الكلمة » بدلا من عصر « صناعة الحديد والصلب » ، فإنه في داخل بعض الحكام العرب نازياً يشهر مسدسه أمام كلمة ثقافة ، ويرتاع لكلمة فكر ! ! ..

إلى أي حد استطاع المفكر العربي خلال العامين الماضيين أن يعي هـــذه الحرب المزدوجة المفروضة: حربه مع ذاته من أجل عطاء الأفضل، وحربه مع بعض الانظمة الحاكمة من أجل انتزاع مزيد من حق حرية التعبير والتفكير ؟ وإلى أي حد نجح في خلق مناخ من الوعي الثقافي والانساني ، ووعي جديد وحده قادر على انقاذ التنظيمات الثورية من التحول إلى منظمات تفتقر إلى المضمون الثوري ؟ ..

على تلك « النازية الفكرية » التي ما تزال مأساتها مستمرة يفتح النار غسان كنفاني صارخاً :

« المشكلة التي تواجه الفكر اساساً هي جريمة ترتكبها بعض الانظمة العربية حين تعتنق تلك النظرية التي تنتسب إلى العصور الوسطى والتي تؤمن بان هنالك علاقة بين حرق الكتاب وحرق الفكر .

إن الحشاش أو النشال يلقى في البلاد العربية عقوبة أقل من تلك التي يتلقاها مواطن يخبيء تحت قميصه كتاباً ممنوعاً . والانظمة العربية التي هي نوع شبه عصري لمحاكم التفتيش والتي تمارس هذا النوع من تعميم الشلل الفكري لا تستطيع أن تنتصر . إن الذي يخاف من الحبر والورق لا يستطيع إلا أن يخاف من الرصاص والقنابل » .

مناخ فكري متوهج

رغم نازية بعض الحكام العرب في موقفهم من الفكر الحر، ورغم (أعرابية) الكاتب والقارىء في مفهومه للعلاقة بين اللغة والفكر ، فهناك ملاحظات حول المناخ الفكري العربي منذ ٥ حزيران ١٩٦٧ تستحق التسجيل ...

عن المناخ الفكري في لبنان يتحدث منح الصلح : « المناخ الفكري في لبنان أفضل منه في أي قطر عربي آخر... فالبحث حول القضايا السياسية والفكرية والاجتماعية، وكل ما أثارته هزيمة ٥ حزيران من قضايا، يدور بجدية وغزارة في كل مجال، في الصحف جميعاً بمختلف اتجاهاتها ... في لبنان اليوم مناخ فكري نادر ... هنالك ظاهرة الندوات والمحاضرات التي تصاعدت بعد ٥ حزيران ... وهنالك ظاهرة اشتراك الطلاب ورجال الدين وفئات اخرى لم نعتد رؤيتها على المنابر ولم نألف مشاركتها في مناقشة قضايانا المصيرية ... أليس في اصدار رجال الدين من مسيحيين ومسلمين بيانات حول العمل الفدائي ظاهرة تستحق التسجيل ؟ »

أقاطعه : صار الحديث عن فلسطين موضة الموسم . صارت الكتابة عن الفدائيين الموال الذي يردده كل صوت ، قليلهم مبدع وأكثرهم نشاز . صار الكثيرون يخلطون بين حبهم لفلسطين حتى الفداء وبين نحر القيم الفنية للأدب على مذبح هذا الحب ...

يناقش : « ولكن تلك المأساة هي من مخلفات ما قبل ٥ حزيران ! لدى العرب عقدة أدب المناسبات ، وشعر المناسبات ، وحتى قبل ٥ حزيران كان لا بد من إدخال بيت ما يتحدث عن فلسطين ..

من الضروري ملاحظة أن موضوع فلسطين فريد في التاريخ الانساني لذا لا يجوز النظر بهذه القسوة إلى ردود فعل الناس أمامه ... في قضية فلسطين عاشت النفس العربية ذروة مشاعرها كلها : الندم ، الخزي ، الطهر ، النقص ، العار . انها قضية مؤهلة للعب دور خاص وليست قضية عادية ... تختلف عن حرب بين فرنسا والمانيا مثلاً ، أو ثورة ضد حاكم طاغية في كوبا .

ان طبيعة المعركة الفلسطينية مختلفة وبالتالي امكانيات التعبير متباينة بقدر ما هي متعددة ...

رحلة الادب في موضوع فلسطين حتى ولو كانت احياناً مفتعلة لكنها شيء ايجابي ... ربما ايجابي سياسياً وليس أدبياً ... ولكن يجب أن لا يثيرنا ذلك .. وأن لا نعطي غضبنا حجماً أكبر من حجم الحقيقة الثانية الأهم في هذه المرحلة : وهي ان هذه

الرحلة شيء ايجابي » .

عن « الادب القتيل في موجة الرغبة بالقتال » ، و « الادب المقاتل » ، يقول غسان كنفاني بحياد الفنان :

« ما يسمى « بالادب المقاتل » يشبه الجنس بالنسبة لشباك تذاكر السينما . وهذه ظاهرة بقدر ما هي طبيعية ليست سيئة نهائياً . العنصر الاساسي لنجاح أي عمل فكري هو « الموهبة » قبل (النية الحسنة) ... الموهبة مزيج فريد من الاصالة الانسانية التي تجعل الالتزام قضية اختيار ذاتي ولبس قضية « ركوب موجة » .

ولكن لا نستطيع ان نقيس دور الادب الفلسطيني الآن بمعزل عن مكانه كجزء من حركة تطور الادب العربي » .

الأوركسترا في درب التناغم

وباختصار ، الاوركسترا الفكرية العربية قد انفجرت تعزف منذ ٥ حزيران متلاحمة ومنفردة بما فيها من عباقرة وعاديين من طبالين وعازفي كمان وحاملي عصي مايسترو ذهبية أو من خشب زيتون فلسطين... المهم كل من في الاوركسترا يعزف ، وكلٌ على طريقته ، بعضهم ملتزم بحكم موهبته وأكثرهم ألزم ذاته بالالتزام من باب ركوب الموجة ...

وهكذا وجدنا أنفسنا خلال عامين فقط نضيف إلى المكتبة العربية رفاً كبيراً من الكتب التي استولدتها المعركة في ضمير الكتاب العربي كما يستولد الرعد الكمأة ...

واسأل الناشر أحمد عويدات : أليس بين منشوراتك لهذا الشهر شيء عن الفدائيين أو فلسطين ؟ يرد بغضب أوافقه عليه : سيدتي ، ليس المهم ان ندغدغ مشاعر الجماهير الوطنية .. المهم أن نجعلها عميقة وأصيلة ومشدودة كالوتر في انتظار اللحظة الحاسمة . إن أي كتاب جدي هو كتاب يهيء الانسان العربي للفداء ما دام يساعده على اكتشاف المزيد من ذاته .. انا ضد أثرياء الحرب الفكريين ، وضد ركوب الموجة الرابحة والاتجار بالكلمة عبر الاثارة ..

نحن الموجة

في الحوار مع الدكتور بشير الداعوق (دار الطليعة) ما يلقي كثيراً من الضوء. بابتسامته الجيوكوندية نصف الساخرة ، يقول بصراحة : لم يرتفع مبيع الكتب الجدية بعد ٥ حزيران ! . تعرفين أن هذه الدار كانت تصدر قبل ٥ حزيران الكتب الجدية الملتزمة

كما بعد ٥ حزيران . نحن لسنا من الذين ركبوا الموجة .. نحن الموجة ! — ولكن لم ينشأ — حتى الآن — قارىء عربي جديد بعد ٥ حزيران . القارىء العربي الجديـــد الوحيد الذي نشأ هو « المنظمات الفدائية الفلسطينية » . وحدها وعت ضرورة التنظيم السياسي للجماهير وضرورة تنمية الوعي لديها ، الأمر الذي لا يمكن أن يتوافر إلا عن طريق الثقافة .. وأن ما نواجهه ليس حرباً فقط ، وانما قضية ثورة شاملة .. الجبهة الشعبية الديمقراطية مثلاً تقبل على شراء مثل هذه الكتب الجدية .. في الحقيقة هنالك شبه تنافس بين المنظمات الفدائية لتوعية أعضائها .. انهم يقبلون على الكتب التي سبق لنا نشرها خلال الاعوام الماضية ، الكتب التي تطـــرح نماذج للثورات وحـــروب التحرير .. كتب لا نستطيع فصلها عن التراث الفكري للثورات الاشتراكية .. »

ما هو التفسير لهذه الظاهرة ؟

ظاهرة ان يظل الفرد العادي شبه معزول عن هذا المناخ . نعود هنا إلى الانظمة والمسؤولين !

أليس من المدهش انه لم يجر نسف البرامج المدرسية العتيقة نهائياً بعد ٥ حزيران ؟.

أليس من المفجع والمدهش أن المذياع والتلفزيون ، أي أدوات الاعلام الرسمية ما تزال تتابع بث تفاهاتها ، وما تزال أسيرة (موظفين) يؤمرون ، لا مفكرين يوجهون ويخططون لسياسة الدولة ؟ ..

ولذا فان النتاج العربي الجدي — إن وجد — لا يجد للأسف التربة التي تحرض بذوره على النمو وتحتضنها ، ولا التي تغذيها وتتلقف ثمارها .. وأياً كان رأينا في مستوى أصوات اوركسترا الفكر العربي ، لا نستطيع أن ننكر أن افرادها ظلوا يعزفون بهمة ودون انقطاع طيلة العامين الماضيين وكما لم يعزفوا قط .. وانهم يطلقون صرخاتهم عبر منابر الندوات وأعمدة الصحف والمجلات والكتب كما لم يفعلوا من قبل .. وان فكر ما بعد الهزيمة وان كان لما ينجح بعد في انتزاع مكاسب ومنجزات فكرية كبيرة الا انه قد (خلخل كثيراً من الافكار المتخلفة الماضية ومواقع نفوذها — انطوان الفرزلي) ، ودق المسامير نهائياً في تابوت الأدب الغيبي والأدب اللفظي ..

يتميز « الادب الفلسطيني » المقاوم في الارض المحتلة بتجاوزه لهذه العقبة بالذات ، وبطرحه لنموذج فكري شعري لم يعرفه الشعر العربي من قبل . فيه التحام نادر بين الكلمة والحياة ... والسبب يرجع كما يقول الناقد عفيف فراج إلى « الخلفية الحضارية التي يستند اليها شعراء المقاومة ، ليست تقوقعاً قومياً اعتدنا أن نرى أورامه الادبية السرطانية

في التبجح الهش ، وانما سلاح حضاري انساني يُرفع في وجه حضارة آلية شرسة تهدف إلى محو كل معالم الانسان العربي ونجد ان الالتزام السياسي بحركة التقدم يقود شعراء المقاومة للانفتاح على تراث الشعر التقدمي العالمي ممثلا بناظم حكمت ، ولوركا ، ونيرودا ، واراجون . ولعل النغمة الانسانية الاممية الحارة في شعر محمود درويش وسميح القاسم هي من أدفأ النبرات وأعمقها . ولهذا الالتزام العقائدي التقدمي يرجع ظهور القضية الوطنية بأبعادها الاجتماعية والاممية . لقد بقيت هذه القضية في شعرنا الرومانسي مبتورة مجزأة ومنفصلة عن هذه الابعاد ، يلفها ضباب الرومانسية الذاتية . وكان شعر صلاح عبد الصبور وأحمد حجازي ، وحتّى البياتي ، من ذلك النوع » .

أين الطحين ؟

وبعد ، يجب ألا ننسى أن كل هذا الضجيج ما زال عاجزاً عن تجاوز حدودنا . . وأن ليس بين أصوات أوركسترا ما بعد ٥ حزيران صوت استطاع أن يتعدى النطاق المحلي ويحمل وجهة نظر عربية إلى بلاد الغرب . ليس بيننا حتّى اليوم صوت عربي واحد استطاع أن يتجاوز دور التحضير إلى دور البلورة ، لينطلق إلى رحاب العالمية حاملاً راياتنا وجثث قتلانا وحكاية تاريخنا ..

ليس لأن صواريخ مواهبنا الادبية قاصرة .. ولكن .. لان قاعدة الصاروخ في الارض مخلخلة ..

وعن قاعدة من الرمل المتحرك لا يمكن لصاروخ حضارة أن يقلع ..

٢٣ / ٥ / ١٩٦٩

لا ... للاقليمية ، نعم لـ « نازك الملائكة » !

رغم انني عادة سيئة الحظ ، مرصودة للمآتم ، منذورة للوقوف بين الأطلال ، فإنني لم أكن من الذين حضروا مؤتمر الادباء العرب ومهرجان الشعر الذي انعقد مؤخراً في بغداد .. لم أذهب ، ولم أبعث برسالة اعتذار كي لا أقول لهم اني أفضّل أن أظل حيث أنا ، أكتب على حقيبة سفر فوق كومة من الثلج في لندن ، حيث لا مهرجين ولا مصفقين ..

ورغم انني لا أبيح لنفسي عادة الكتابة عن كتاب لم أقرأه أو مهرجان لم أشهده ، أجدني فيما أسلفت من قول انما أنقل وجهة نظر الكثيرين ممن شهدوا المؤتمر ، وحزنوا (وبعضهم انسحب) ، وبعضهم لم ينسحب وانما (سحب) ثقته علناً مما يدور في (سوق عكاظ) السنوية تلك ، وكتب نقداً كان يتراوح بين (المهادنة الناقدة) — كما في نقد للأديب الاستاذ عبد الرزاق البصير — جريدة اليقظة الكويتية — وبين الهجوم العنيف وتمزيق أقنعة المهرجان دونما مهادنة — كما في العدد ٢٦ — ٤ — ٦٩ — أخبار اليوم القاهرية .. مقال الأستاذ أنيس منصور « الأدباء يلعنون أنفسهم في بغداد » وفيه يصف حال الادباء في المؤتمر بطريقة مباشرة يربط فيها بين تصادف انعقاد المؤتمر في فترة شهر محرم الحرام،أي فترة احتفال الشيعة بذكرى مقتل الحسين، وبين ما دار في المؤتمر كمضمون ، وظاهرة (الندب) التي سادت ، إذ يقول :

« هذا موسم البكاء على هؤلاء الشهداء الأطهار . موسم الدموع والدماء .. والصراخ والعويل والندامة .

وكأن الشعراء والادباء « الواقعيون » جميعاً قد عكسوا البيئة التي ألقوا فيها أبحاثهم وقصائدهم .. وبكوا وتباكوا .. وندبوا ومزقوا ملابس بعضهم البعض . وجف ريقهم . وشربوا الماء .. ولم يكن شرب الماء بسبب حرارة الجو . ولا حرارة اللقاء ، ولا حرارة الايمان ، وانما أكثرهم يعاني مشكلة فنية نفسية : انه يستعين بالماء على أن يبلع ما يقول فكيف يبلع الناس ما يقول ؟ ! .

ان العراق قد فعل كل ما يستطيع من أجل راحة أعضاء الوفود . أعطى أحسن ما عنده . وقدم ورحب . بحكومته وشعبه . أما ما فعله اعضاء الوفود فهم وحدهم المسؤولون عنه .. أو الأدب ، أو الشعر ، أو المزاج العربي .. أو العرب ! .

لقد انعقدت الاجتماعات والمحاضرات والندوات تحت شعار « كل شيء من أجل المعركة » .. كل شيء . ولم يعد الادباء شيئاً الا الكلام طبعاً : أقصى ما يستطيعون وأقل ما يستطيعون ! .

ولم يتفق أعضاء الوفود على معنى هذا الشعار . بعضهم قرأ الشعار هكذا : قل أي شيء من أجل المعركة .. وكثيرون قالوا أي شيء ، ويا ليتهم ما قالوا ! ولو تنبه الناس الى مدلول ما دار في مؤتمر الادباء لبكوا بدلاً من أن يضحكوا ، ولأحنوا رؤوسهم بدلاً من أن يصفقوا ، ولشنقوا الشعراء .. ولكنها المآتم ، فلا أحد يضرب النادبة ، ولا أحد يدفنها مع الميت ... ان الناس يستأجرونها ويختارونها » .

والمقال حار اللهجة ، فيه موقف واضح. ولذا كان من المؤسف أن يقع كاتبه في الخطأ نفسه الذي يأخذه على المؤتمر أي « الندب » ، وكانت مفاجأة مستفزة لي أن أبحث عن تتمة المقال (في الصفحة ١٥) فلا أجد سوى هذه الخاتمة السلبية المقتضبة : « وكان الشاعر العراقي الكبير الرصافي يسخر من القيود على الكلام .. ويطلب من الناس جميعاً أن يسكتوا ويناموا . يقول الرصافي سنة ١٩٢٢ :

يا قوم لا تتكلموا　　ان الكلام محرم
ناموا ولا تستيقظوا　　ما فاز الا النوم
وتأخروا عن كل ما　　يقضي بأن تتقدموا
ودعوا التفهم جانباً　　فالخير ألا تفهموا !

ولو عاش الرصافي لطلب الى أكثر الأدباء والشعراء ألا يتكلموا لانه لا أقلّ من أن يفهموا » .

ولأني مع الاستاذ منصور في اشمئزازه من (موجة البكاء على أطلال النكسة) ، فقد أحزنني ان لا يخرج مقاله عن كونه « بكاء » من نوع خاص « على البكاء » على اطلال النكسة ! ... بكاء على البكاء . وشتم لظاهرة الشتم . وندب على ظاهرة الندب ! ! فالاستاذ انيس منصور ينقد في مقاله « سلبية » موقف الندب ، لكنه إذ يتخذ من مؤتمر الأدباء « موقف النادب » للندب ، فهو بذلك يقع في الخطأ السلبي الذي كتب أصلاً لينقده . فالادباء قد ندبوا تحت شعار « من أجل المعركة» ، وهو في معركته من أجل المعركة يندبهم لأنهم ندبوا ! والأدباء قد لعنوا أنفسهم في بغداد

وهو قد لعن لعنهم لأنفسهم ! والأدباء صرخوا دونما تخطيط موضوعي ، وهو في مقاله صرخ لأنهم صرخوا ، دون أن يخطط موضوعياً للموقف البـديل : للصورة العملية أو الخطة الايجابية التي يرى انها يجب أن توضع موضع التنفيذ ، أو حتى مشروع خطة تجري مناقشته ...

والاستاذ انيس منصور نفسه يقول :

« ليس مطلوباً أبداً أن يقال إن النكسة قد وقعت ، ونقف عند ذلك . فنحن نعرف ان هناك نكسة . انتهى . نعرف ذلك . فما الذي نفعله بعد ذلك ؟ .

لقد انهزمت الامة العربية كلها . هذه حقيقة . فما الذي يستطيع المفكرون : الشعراء والأدباء والكتاب والقائمون على كل صناعة الكلام أن يفعلوه ؟ . ما الذي ينصحون به ؟ كيف نتجاوز النكسة ؟ كيف نخرج من الندم ؟ كيف نتخلص من العار » .

ولكنه في مقاله لا يبدأ بنفسه ، فهو لا يقول أكثر من أن (نكسة) الادباء في بغداد وقعت ، وقد وقف عند ذلك . وبمنطقة ذاته أسأله :

حسناً ... نحن نعرف ذلك . انتهى . ما الذي نفعله بعد ذلك ؟ لقد انهزمت مؤتمرات الادباء العرب أمام الهزيمة . حسناً . هذه حقيقة . فما الذي نفعله ؟ ما الذي تنصح به ؟.

وهو حتى حينما وصف لهم الدواء ، لم « يعالج » مقاله به ...

فهو قد وصف لهم الوصفة التي لم يعد هنالك من يجهلهـا — وهي العمل — و « العمل » ، دواؤه هذا ، ليس سراً وليس بجديد ، لكنه لم يلقح مقاله به ، فجاء المقال كربلاء أخرى تندب ... فيه من دموع البكاء على الذين لا يعملون أكثر مما فيه من التخطيط للعمل والمباشرة بتنفيذه ! ! ..

وإذا كان الادباء قد ندبوا ولطموا على طريقتهم ، فان الاستاذ انيس منصور قد ندبهم لأنهم ندبوا ، ولطم فيهم قافلة اللطّامين دون أن يقف خارج القافلة — حيث يفرض عليه وعيه المفترض للمأساة — أن يكون .

لا ، للاقليميـة !

يقول في فقرات من مقاله الكربلائي :

« ومن العجيب — وليس عجيباً — ان أكثر الذين يتحدثون عن النكسة وعن الهزيمة والبكاء عليهما مواطنون من بلاد بعيدة عن موقع المعركة بألوف الأميال..ولكي

يبرروا هذا الغضب الذي يبعث على الدهشة يقولون اننا وضعنا كرامتهم في الوحل ، لماذا ؟ لاننا نحن انهزمنا ، « وهم » لم يكونوا يتوقعون ذلك »

كما لو ان الحرب مع إسرائيل هي حرب (اقليمية) لا تخص سوى المنتمين الى موقع المعركة جغرافياً ، ولم يعان من هزيمة حزيران إلا قاطنو الجولان وسيناء والضفة الغربية ، وكأن إسرائيل لا تتهدد الشعوب العربية كلها وانما تتهدد بعضها بينما يلعب البعض الآخر دور (الجار) الذي (تصادف) وجوده في (قهوة الامة العربية) . فهو يأتينا بمثال للشيء الذي أثار غضبه (كمصري) ودفعه بالتالي للتمييز بين (مصري) و (لبناني) :

يقول :

« مثلاً الكاتب اللبناني د . سهيل ادريس .. هاجم وشتم ، ولعن ، واتهمنا بالجهل ، ولذلك انهزمنا ، وليس في كل ما قاله جديد : نحن قد اتهمنا أنفسنا بذلك واعترفنا ونعمل على أن نتعلم ونقف من جديد .. واذا كنا نحن جهلاء ولذلك انهزمنا، فما الذي فعله هو ؟.. ما الذي فعلوه هناك في بلده ؟.. نحن الذين انهزمنا ونحن الذين نريد أن نمسح عارنا ، ونحن إذا كان قد مات منا ألوف ، فعلى استعداد أن نضحي بألوف أخرى ..

فما الذي فعله هو .. وما الذي سوف يفعله ؟ انه هاجم كل الذين جاءوا يتكلمون ، ولن يمضي شهر واحد حتى ينشر كل أبحاثهم في مجلته ! .

وفي القاهرة عرضت له مسرحية .. ويقال انه تقاضى عنها أجراً قدره خمسمائة جنيه .. من أموال الشعب الذي انهزم .. الشعب الذي يراه هو جاهلاً ولا يستحي !؟».

وأنا هنا لا أناقش فيما إذا كان على حق فيما يقوله عن الدكتور سهيل ادريس بالذات أم لا ، لكنني ضد أن يقوده غضبه ضد فرد لبناني الى منزلق التعميم والاقليمية ... وضد أن يتناسى الجذور الامبريالية لاسرائيل التي تجعل منها من حيث المبدأ قضية كل ثوري في أية أرض ، وضد أن يتناسى ان قضية فلسطين ليست حرباً اقليمية بين مصر وإسرائيل ، وبقية العرب جيران « الفقيد » المتطفلين على الفجيعة ، المغتربين في دنيا معايشتها اليومية الفعلية ...

وإذا كانت هنالك شعوب عربية لم تشترك فعلياً في حرب حزيران الماضية فذلك يعود الى عوامل كثيرة يجب استقصاؤها — منها مثلاً عدم التلاحم بين رغبات

شعوبها والأنظمة القائمة فيها ــ وهكذا فمن الممكن إدانتها بالتخلف عن اكتشاف الذات وبالتالي الثورة ؛ وليس إدانة القضية الفلسطينية ككل بأنها قضية اقليمية ...

الأديبات أيضاً ...

هنالك نقطة أخرى أثارها أنيس منصور في مقاله ، فكتب عنها بغضب المحب وليس بتفهم الموضوعي .. والتفهم الموضوعي نطالبه به قبل المحبة ، لانه العتبة للعمل الايجابي البناء الذي يدعو اليه ..

وأعني بذلك إثارته لقضية عمر المرأة الأدبي من خلال الشاعرة نازك الملائكة التي يقول عنها :

« أما شاعرة العراق نازك الملائكة فلا بد أن شيئاً غريباً قد طرأ عليها ، من المؤكد انها كبرت ، وانها أصبحت أماً لعدد من الاطفال ، وانها عندما سهرت في المهرجان حتى الساعة الواحدة صباحاً قد ضاقت بذلك، فليس في المهرجان ما يستحق أن تترك له بيتها وأولادها وأهلها » .

ولا أدري لماذا يجد في (نعاس) نازك الملائكة في المهرجان دليلاً حتمياً على (نعاس موهبتها) .. ثم ، أليس المهرجان بشهادة الاستاذ أنيس منصور إعادة وتكراراً لعبارة نعرفها جميعاً هي « اننا انهزمنا » ؟ فلماذا يأخذ على نازك الملائكة ضجرها من التكرار والندب ؟ ..

في مهرجان كهذا ، لا ألومها إذا كانت تفكر (بإرضاع طفلها) أو (بسعال رضيعها الآخر) بل وأجد في ذلك ظاهرة معافاة بناءة لا يوازيها سوى انسحابها من مؤتمر بكاء الكبار البشع ، وعودتها الى البيت حيث بكاء الصغار أمر طبيعي وجميل ..

وقد تكون السيدة نازك الملائكة يومها مصابة بطوالع انفلونزا ، أو أي مرض آخر يصيب البشر من عباقرة أو عاديين . لكن خيبة الاستاذ أنيس منصور في الاديبة التي أحب ثورتها دفعته لينطلق بغضبه هذا لا لينقدها فحسب ، وليس لتتناول غضبته الاديبات العربيات المعــاصرات كلهن فحسب ، ولا لتمتد فتشمل فرانسواز ساغان فحسب ، وانما لتشمل (المرأة الاديبة) في كل مكان وزمان ! ! .. بتعميم مجاني فكرياً ، وبإطلاق تجريدي بيولوجياً ! .

فهو يقول عن نازك الملائكة : « الذي يراها لا يصدق انها الشاعرة الثائرة على

الشعر القديم » وأنا اقول انني لا أصدق أن أحداً ما زال يقوّم مبدعاً آخر أو مبدعة ، انطلاقاً مما (يرى) في صورته الخارجية وليس انطلاقاً من نتاجه .. واية مهزلة أن نقيّم النتاج الأخير لتوفيق الحكيم أو برتراند راسل مثلاً انطلاقاً من ذلك .. ولا أصدق انه يتحدث بالجملة عن الاديبات ، فيعمم انطباعه عن (شكل) نازك الملائكة في المؤتمر ، على انطباعه عن « أدب المرأة » في كل زمان ومكان إذ يتابع : « الذي يراها لا يصدق انها الشابة الثائرة .. ولكن يظهر ان نازك الملائكة قد قالت كل ما عندها في السنوات الاولى من حياتها ، ولم يعد لديها شيء جديد تقوله : فالمرأة الأديبة قصيرة العمر من الناحية الفنية ، ومثلها فعلت أديبات أخريات » .

انني هنا لا أكتب دفاعاً (بالجملة) عنهن .. ولكنني ضد المنطق الذي قاد أنيس منصور الى هذا التعميم .

والواقع أن تاريخ الأدب يدل على أن بين الادباء كما ان بين الاديبات من كان عمر موهبته قصيراً .. واتخذ لذلك مثالاً (تراجيدياً) في معاصر همنغواي ومنافسه سكوت فيتزجيرالد الذي انتحر في ذروة شبابه حين اكتشف أن موهبته قاصرة وانه صار عاجزاً عن تجاوز ذاته .

إذن فالقضية لا تتعلق بالمرأة والرجل من حيث التمايز (البيولوجي) وانما هي مرتبطة بعوامل أخرى كثيرة تتجاوزها ..

وقد يكون فيما يقوله أنيس منصور عن الموهبة العربية بعض الصحة فيما لو تم تعميمه على أديباتنا وإدبائنا في هذه المرحلة من تاريخنا .. إذ هنالك شبه ظاهرة متفشية عربية معاصرة — ظاهرة الادباء الشهب — تدفعنا للتساؤل : لماذا — نجد غالباً — أن عمر الموهبة الأدبية العربية المعاصرة قصير ؟ ..

هل هي الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية الخانقة لأي برعم ابداع ، تلك الظروف التي تجعل من التحدي — والتحدي لما هو سائد وإعادة النظر بعين جديدة هو الابداع — ، أقول هل هي الظروف والانظمة التي تجعل من الخلق والتحدي مهمة تشبه مهمة العين التي تتحدى المخرز (فتُقلع) أو تهرب من المحاولة باسدال ستار جفون الصمت ؟ .

هل مرحلتنا بكل ما فيها من مخاز وكبت للحريات هي المسؤولة ؟ أم أن العبقريات الضخمة تستطيع أن تتجاوز اضطهاد القوى الخارجية أياً كانت ؟ .

١٩ / ٩ / ١٩٦٩

عصفور من ليبيا

لما هتفت إليّ إحدى الصديقات ذات صباح ، وزقزق صوتها قائلاً : « وقع انقلاب في ليبيا » ، لم تكن في الخبر أية مفاجأة بالنسبة لي . بالضبط ، كانت المفاجأة هي أن هذا الأمر لم يقع قبل اليوم ! ..

فقد انتظروه طويلاً .. كافحوا لأجله طويلاً .. دخل مئات منهم السجن لأنهم كانوا يمثلون « ارادة التغيير » .. الارادة التي تحولت إلى « عمل » وتمت ترجمتها إلى « سلوك » ، الاسم الرسمي له « انقلاب عسكري » ..

أجل ! لم يكن في الخبر أية مفاجأة بالنسبة لي ، انا التي عايشت ما كان يدور في ليبيا منذ ثلاث سنوات .. ليبيا الحقيقية لا ليبيا (الملحقات الصحفية) ، والاعداد الخاصة الدعائية .. ليبيا المناضلين .. ليبيا السجون .. ليبيا الغضب ، والمناشير السرية ، والصحف التي تقفل وتصادر ، والرجال الذين يُساقون إلى السجون بتهمة : ثوار ..

ذلك كله وأكثر منه ، عرفته عبر صديقي الليبي « الثائر » السجين لأكثر من مرة ، والذي لم يعد اليوم سجيناً .. ولم يعد هنالك ضرورة لان يكتب اليّ من السجن سراً .. ولم تعد هنالك ضرورة لأن يتم تهريب رسائله إلى ايطاليا أو أي قطر أوربي آخر لتودع البريد من هناك لأن بريد ليبيا بأكمله مراقب ... ولم تعد هنالك ضرورة لأن أكتب اليه باسم مستعار وعبر عنوان صديق لم يُكتشف أمره بعد ، ليتولى نقل ردودي إليه داخل السجن بحذر شديد وتكتم تام كما لو كنا نخط رسائلنا على قنابل من البلاستيك ، لا بالحبر وعلى الورق ! ..

ولن أعيش شهوراً (على اعصابي) حينما تنقطع رسائله فجأة ، وأقضي ليالي وليالي وأنا أتساءل : تراه تهاوى تحت سياط الجلاد ؟ .. تراه سقط ؟ .. ما سر صمته؟ هل التقطوا إحدى رسائله الي ّ ولم تعد هنالك وسيلة لإيصال صوته إليّ أو صوتي اليه ؟ ولم تعد هنالك حاجة لأن أكتب إلى اصدقائه الذين صرت أعرفهم ، وأشعر بالامتنان

نحوهم لمغامرتهم بمصيرهم ومصير أسرهم من أجل استمرار حواري وإياه حتى داخل السجن .. ولن أفتح بابي ذات فجر رمادي في لندن لأجد رسائله وقد جاءتني مبللة بالمطر والريح والضباب ، مرهقة كعصفور طار ألف عام تحت الثلج والعاصفة حتى وصل إلى بابي .

* * *

مع صدور كتابي « ليل الغرباء » صيف ١٩٦٦ ، تلقيت أول رسالة منه . رسالة عادية كأية رسالة يتلقاها أي كاتب إثر صدور كتاب جديد له ، ويفتح صدره لكاتبه المفضل .. ولكن صدره كان مليئاً بأشياء غير عادية .. رسالة من ١٤ صفحة مضروبة على الآلة الكاتبة تتحدث عن فجيعته بما يدور في وطنه ليبيا .

كانت رسالته أقرب إلى منشور حزبي سري منها إلى رسالة تهنئة .. وقررت ان متاعبي تكفيني ، ولم أجب على الرسالة .

بعدها وصلتني رسالة اخرى منه ، رسالة قلقة يسأل فيها عن مصير رسالته الأولى ؟ ويريد أن يتأكد من انها وصلت إلي ولم تقع في يد السلطات ، خصوصاً أنه قد تم ايقافه واستجوابه أكثر من مرة خلال الايام العشرة الأخيرة .. كما جرى منعه من مزاولة عمله أيضاً .. ووضعه تحت المراقبة .. وأجبت على رسالته .. ووصلني رده بعـــد أكثر من شهر ، وكانت رسالة ملتهبـــة غاضبة ، كتبها أثر جولة له في (مجاهل) ليبيا ، عاد منها محملاً بشحنة من الغضب الثائر على بشاعة ما يدور ..

وعرفت أن هذا الثائر لا بد وان يدخل السجن ! ! ..

ووصلتني اولى رسائلـــه من السجن فجأة ذات صباح صيف ١٩٦٧ بعد صمت طويل .. كانت تحمل طابعاً إيطالياً ، وعنواني مكتوب بخط غير خطه ، ومعها رسالة أخرى عن كيفية الرد عليه ، وتحت اسم مستعار .. وعنوان غير عنوانه السابق ..

وطال سجنه .. ولم أعد أسأل كل قادم من ليبيا عنه فأجده قد حمّله سلاماً الي ، ولم أعد أحمّل كـــل ذاهب إلى ليبيـــا تحية اليه .. صار اسمه من بعض اسراري .. ومقدساتي ..

ورحلت إلى لندن وأقمت فيها .. وظلت رسائله تصلني ، متقطعة وغالية ، كزخات مطر في صحراء قاحلة ..

ثم فجأة انقطعت اخباره تماماً .. وعبثاً كتبت .. وعبثاً سألت .. حتى كان ذات فجر حزين .. وجرس الباب يوقظني في رنين ملحاح غير عادي .. وسارعت أفتح .

وحين رأيت من في باب طار النوم من عيني لمدة شهر على الأقل ! ! .. كان هو !.. لقد عرفته حتّى قبل ان ينطق بكلمة واحدة .. بل وناديته باسمه حتّى قبل ان يفتح فمه .. كما لو كنت قد شاركته زنزانته – وقد فعلت عبر رسائله – ..

وتماماً كما في الافلام البوليسية أخفيته عندي ريثما يستّرد عافيته .. ذلك العصفور الذي جاءني مبللاً بالدم والريح وقد طار الف عام تحت سياط الجلاد ، أخفيته في غرفتي مع همساته : « أخت غاده استطعت الهرب هذه المرة . لكنني سأعود إلى ليبيا بعد أن استرد صحتي لأعمل في الداخل حتّى ولو ادخلوني السجن ثانية ! » ، وعشت وإياه في قلق ننتظر وصول زوجته العروس ! ! .. وتصادف يوم وصولها ، مع يوم وصول خـــبر مرضي (المزعوم) إلى سفير من سفراء البلاد العربية ، ووصل في اليوم نفسه سعادة السفير لزيارتي فجأة ، ذلك كي تكون (اللفتة الكريمة) نحو ابنة صديق قديم له ، مفاجأة (سارة) ! ..

ولم يكن لغرفتي سوى باب واحد .. ونافذة واحدة تطل على رصيف الشارع وتحتها (ستة طوابق) ولا يمكن حتّى لهرتي القفز منها ..

وكان موكب السفير يصعد الدرج الخشبي ، وصوت سائقه ومرافق آخر يزيدنا رعباً وقلقاً .. ترى هل عرفوا ؟ ترى هل جاءوا للقبض عليه ؟ .

وأخيراً دخل الموكب وفهمت سر الجلبة والمرافقين .. كان السفير يحمل اليّ هدية بمناسبة مرضي بالتهاب في الجهاز الهضمي وكانت الهدية صندوقاً من الويسكي وعشر (كروزات) سجائر !

لا . نسيت . قبل ان يدخل الموكب كان السرير . وكان المشهـــد التقليدي : ان يختبىء صديقي الجريح تحت السرير ! .. ولن أنسى أبداً مشهد قطتي التي كانت تموء وتنسل تحت السرير ثم تزعق هلعاً وتخرج وهي تتأملني بدهشة ، كمـــا لو أن أحداً قد احتل موضعها المفضل تحت سريري ..

وصليت بحرارة لان القطط تموء فقط ولا تنطق ! .. وانتقل المواء إلى معدتي .. وبدأتُ بـ (وَصْلة) مواء انفطر لها قلب السفير حتّى أصر على نقلي إلى المستشفى وتملصت .

وبعد أن غادرنا مصحوباً بالشكر الجزيل (على مغادرته وليس على زيارته) ، لن أنسى غضبة صديقي الثائر وهو يرى زجاجات الويسكي ويقول : هذا هو مصير بترول بلادنا ! .. هل كان يمكن إلا ان ننهزم في ٥ حزيران ؟ ..

وكما ليس في الافلام البوليسية ، وصلت العروس التي انتزعوها من بين ذراعي

حبيبها الثائر ليلة العرس ، وكانت سهرة فرح لا تنسى .. وتم توزيع زجاجات الويسكي على الرفاق الانكليز الجيران الذين كتموا السر !

وعاد الثائر وعروسه .. وعادت رسائله تصلني من السجن .. وعدت أكتب اليه . وكان حريصاً على متابعة كتبي (ثورتي) ، التي ليست الا امتداداً لغضبة كل ثائر في كل قطر من وطننا العربي ..

وبعد ..

ذلك كله أحببت ان استعيده اليوم ليس من قبيـــل الذكرى وانما من قبيـــل (التذكير) ..

لقد عرف وطننا العربي ثواراً ضحوا بكل غال حتى استطاعوا أن يصلوا إلى الحكم ليكون من الحكم أداة لتنفيذ خططهم ، وتحقيق ما يبغونه من عدالة وحرية وكرامة لابناء الوطن أجمع ..

وعرف وطننا العربي أيضاً كثيرين من الثوار الذين نسوا، وهم على (الكراسي)، أحلامهم أيام السجون .. والذين صار الحكم لديهم غاية بعد ان كان وسيلة ..

انهم ثوار حكمهم الحكم .. حكمتهم شهوة الحكم فلم يعودوا ثواراً ..

أولئك (الأنبياء الصغار) في أكثر من قطر عربي صرنا نخاف عليهم .. وثائري الليبي الذي عايشت صراعه ، أحس بانه يحق لي ان أهمس في اذنه بهذه الكلمة ، بخوف الأخت على الثورة الوليدة من الاصابة (بشلل الكبار)، شلل النسيان والاستغراق في السلطة لذاتها .. ذلك الداء العضال الذي فتك بكثير من الانبياء الصغار في أكثر من قطر عربي ثائر ..

وإلى صديقي الثائر هذه الرسالة الأولى المفتوحة .. وغير السرية .. ومعاً على الدرب ..

١٦ / ٢ / ١٩٦٨

الهاربون من ذل الهزيمة إلى غيبوبة الجنس والجريمة

في الأسبوع الذي تلا هزيمة حزيران ، سجلت الصيدليات في البلاد العربية كافة ، رقماً قياسياً في بيع الأقراص المهدّئة والمنوّمة ، أي أدوات تخدير الأعصاب والعقل .

فقد كانت الصدمة فوق الطاقة البشرية على الاحتمال ... إذ بعد عشرين عاماً من التعبئة النفسية ، ضاع كل شيء أو انكشف كل شيء في أقل من فترة أسبوع ،رغم مكابرة أجهزة الاعلام العربية ...

وكانت صدمتان وهزيمتان : هزيمة الشعب العربي أمام مليوني صهيوني ، وهزيمة الشعب العربي في أنظمته وحكامه وملوكه وقادته وذاته ..

وهكذا هرب الناس في الأسبوع الذي تلا الهزيمة الى شتّى وسائل التخدير من أقراص منومة ومهدئة أو الى التخدير المؤبد كالانتحار أو الجنون أو الإلحاد الكلي بكل شيء ...

وكان اللجوء الى الأقراص المنومة والمخدرة في الأيام الأولى التي تلت الهزيمة أمراً طبيعياً وسليماً ، يهرب به الإنسان مؤقتاً من ذهوله السلبي المشلول أمام الفجيعة ، ريثما يهدأ برهة يلملم خلالها قواه المتشتتة ، وحواسه الزائغة ، ليتماسك ويخطط من جديد ...

الأمر الخطر والمؤسف هو أن مرحلة التخدير تلك قد طالت ، وان تخدير المواطن العربي ما زال مستمراً ، يمارسه وهو يدري أو لا يدري .

صحيح أن الصيدليات قد سجلت هبوطاً في أرقام مبيعات الأقراص المنومة والمهدئة ، ولكن صيدليات أخرى من نوع آخر تتولى الآن مهمة تزويده بالمخدرات عن واقع هزيمته المفجع : صيدليات الجنس ، وصيدليات الجريمة ، وصيدليات المجتمع ، وصيدليات الإعلام وصيدليات الطائفية وغيرها .

تقول الاحصاءات العربية أن بيع الكتب الجنسية والمجلات الرخيصة والصور الخليعة سجل ارتفاعاً خطيراً بعد فترة الحرب المأساة في حزيران ..

وأن الاقبال على مشاهدة أفلام الجريمة والإثارة الرخيصة قد تزايد ، وأن دور الستيريوهات ، التي كانت قد بدأت تذبل ، شهدت من جديد أزدهاراً غير متوقع ..

وتلك في الواقع ظاهرة نشهدها عقب الحروب في أكثر بلدان العالم ، إذ يرافق الحرب انهيار في القيم ، ويفقد الجسد قدسيته لكثرة ما تكومت الأجساد الميتة في الشوارع والساحات ، فيصبح العبث بالجسد ، بالجنس أو بالجريمة ، على سبيل التخدير أمراً عادياً .. ولكن الأمم الحية تسعى الى إعادة المواطن الى قضيته عن طريق التخطيط لطاقاته الوطنية واستيعابها من جديد في تنظيم عملي إيجابي لاعادة البناء ...

الجرح في صدر المواطن العربي ما زال حاراً ، لكن تنظيماً عملياً واحداً رسمياً لما يستوعبه بعد ، ويملأ ساعاته المزروعة بالمرارة ، والمسممة بالخيبة ، بعمل إيجابي جماعي جديد ومنظم ، واضح الخطة والأهداف ... (أستثني من ذلك التنظيمات الفدائية وبعض الحزبية شبه السرية !) ...

ولكن ، هل نغلق الستيريوهات ونمنع المجلات الخليعة والصور الفاضحة ونقطع القبلات من الأفلام وندعو السلطات الى تطبيق نظام (العفة الاجبارية) وهي التي لم تستطع حتى اليوم تطبيق نظام (الجندية الاجبارية) ؟ .

لا .. فذلك كله سيزيد الأمور تعقيداً . بل إن كبت المواطن العربي هو من أهم الأسباب التي تجعله مهيئاً لالتقاط وباء التخدير عند أعتاب أية صيدلية جنس رخيصة.. وأعداؤنا يعرفون ذلك ... ويزودوننا — بكرم — بالمخدرات الأنثوية التي يقبل أبناؤنا عليها ... ما الحل إذن ؟ .

الدعوة إلى ليبرالية الجنس المطلقة ؟ . . أم استيراد مئة ألف (راقصة) وتأميمهن لحل عقد الشعب العربي وتجاوز الكبت الجسدي ؟ . .

أعتقد أن مشكلة إقبال الفرد على صيدليات الجنس من كتب رخيصة وأفلام ممجوجة ليست بحاجة الى حــل ، لسبب بسيط : هو أن ذلك الاقبال المرضي ما هو إلا نتيجة للمشكلة العربية الكبرى الاولى ، وهي عدم وجود التخطيط الذي يستوعب الفرد العربي ويكون تعبيراً صادقاً عن رغباته القومية ، وبالتالي ينظم له أوقاته ويستنفر طاقاته في الطريق السليم للافادة منها ...

بوضوح أكثر .

لو وجدت بعد هزيمة حزيران تنظيمات جماعية عملية واقعية تخطط لها الدول العربية وتستوعب الأفراد وطاقاتهم ، وتحولها الى عمل بنـّاء (سواء التدرب على حمل السلاح أو غير ذلك من ضرورات الاستعداد للحرب المقبلة وبناء ما أفسدته الحرب السابقة) لو تم ذلك ، لمضى الفرد الى البناء بدلاً من التخدير ...

الفرد العربي مشحون بالخيبة المتوترة والرغبة في عمل شيء ما ، ولكنه حائر لا يدري من أين يبدأ ، ولم يأت بعد من يقول له بوضوح وبالضبط من أين يبدأ وينظم طاقاته المختزنة ، ولذا نجده يهرب الى الجنس ، ويصرف طاقاته المعطلة كلها — بما فيها الوطنية — عن طريق التخدير الجنسي ... وحينما يعاد المواطن العربي الى حظيرة العمل الوطني الجاد ، يتوفر له التوازن النفسي ، ويعزف بالتالي عن صيدليات الجنس ، أو أنه يستغلها واعياً مسؤولاً لا مريضاً نفسياً هارباً ... وهكذا تفقد أقراصها الرخيصة مفعولها المؤذي سواء أعرض عنها أم لا .. فهو حينئذٍ يستخدمها دون أن تستعبده ...

والواقع ان عدم وجود التوجيه العلمي الصحيح للفرد العربي مسؤول أيضاً عن توجهه نحو عوالم الجنس والجريمة ...

وبعد حزيران ، ما زالت حياة بعض أفراد الشعب العربي استمراراً لكل ما كان يجري قبل الهزيمة ...

لم يتبدل شيء من الأسلوب العام في التفكير لدى الطبقة المترفة ، ولم تتبد للمسؤولين عن التوعية رؤى جديدة و لم يبدلوا شيئاً من أساليبهم ...

وظل كل شيء على حاله ...

وظللنا نعتمد المقاييس نفسها في استيراد الأفلام والمسلسلات الأجنبية .

والتلفزيون العربي من أبرز صيدليات التخدير .. فهو يرمي بالمتفرج في غيبوبة جيمسبيوندية الأحلام ، راسبوتينية الرؤى .. ويربي النشء في عالم من البطولة المزيفة التي لا علاقة لها بمشاكله القومية ، والمعنى الحقيقي للبطولة بالنسبة للفرد العربي المعاصر .. وحالة الاستنفار الفكري لم تتسرب دعوتها الى مختلف وسائل الاعلام وأدوات مخاطبة الجماهير ...

والأمثلة على ذلك لا تحصى ، أكتفي ببعضها .

من وقت الى آخر ننشر في الصحف صوراً لمجندات إسرائيليات في (حالة حب) مع الزملاء المجندين ، ننشرها دليلاً على فسق إسرائيل وانحطاطها. (الخلقي) الجنسي ...

وننشر أيضاً ربما في الصفحات نفسها صوراً لحفلاتنا الاجتماعية (الراقية) ، وفيها مشاهد عناق مشابهة وربما أكثر إثارة من صور المجندات الإسرائيليات المحاربات والزملاء المحاربين .. أعتقد أن علينا أن نخجل من (لاأخلاقية) عطالتنا عن الحرب أكثر مما عليهم أن يخجلوا من (لاأخلاقية) جيشهم المحارب .

يثير بعض صحافتنا العربية أيضاً أن المجندات الإسرائيليات يرتدين الميني جوب ... واعتراضهم على الميني جوب أكبر من اعتراضهم على عدم وجود مجندات عندنا .

مثال آخر ...

نحن نسمح بمجلة «البلاي بوي» الأميركية وصورها العارية ، لكننا منعنا الأعداد الخاصة التي أصدرتها مجلات العالم الغربي بمناسبة انتصار إسرائيل وهزيمتنا ، والتي تروي لشعوبنا نقاط ضعفنا ومخازينا ...

لماذا نروج التخدير بصورة غير مباشرة (تخدير البلاي بوي ومجلاتنا الجنسية الرخيصة) ، ونمنع الوعي ، الوعي الذي تحدثه صدمة مواجهة الإنسان لذاته في مجلة معادية ، أو في مقال محلي لصحفي حر نزيه يصور للفرد العربي نقاط الضعف في جسده الدفاعي والوطني ؟ ..

مثال آخر على أن الهزيمة مرت على قيمنا وكأن شيئاً لم يكن ! ..

بعد الهزيمة بأقل من أشهر ، أقيمت في بيروت حفلة لتخريج فتيات المجتمع الجميلات اللواتي يبدأن حياتهن الاجتماعية (الزاهرة) ! .. ونشرت الصحف صور (المبتدئات) بالفساتين البيض الطويلة كفراشات التاريخ ، يرقصن الفالس مع فرسانهن على ألحان فالسات بلاطات أوروبا في العصور الامبراطورية وفي جو يشبه أجواء بذخ روسيا القيصرية ..

هذا في الوقت الذي يقبع على بعد أقل من مئة كيلومتر عدو أنزل بنا الهزيمة منذ أسابيع ، ويستعد لغزو جديد ... أي عار ! .. هل للأمم المهزومة فرسان أو بلاط أو حيـــاة اجتماعية ؟ .. لو اشتروا لهن بتكاليف الحفلة سلاحاً « ودربوهن » عليه بدل الركوع والرقص ، ربما كان ذلك أكثر جدوى لهن ذات يوم ...

وفي الوقت الذي يموت فيه العشرات جوعاً وبرداً ، ما تزال لقاءات التخدير

الاجتماعية قائمة ، وما يزال الطعام الفائض عن كلاب الأسر الراقية يُرمى الى الخدم، بينما ينغرس وتد خيمة طارت في العاصفة في صدر الطفل الذي حاول التمسك بها ...

مسابقات ملكات الجمال عادت الى أمسياتنا .. أي جمال في وجه أفراد شعب مهزوم ؟ ؟ ... أليست الهزيمة هزيمة للجمال والحب والشمس والخير ، وهزيمة للقيم كلها التي تخلق في النفس الفرح والحس بالاسترخاء وبالتالي القدرة على اللهو ؟ .

ألسنا شعوباً فقدت حقها في الفرح يوم فقدت كرامتها ؟ ..

حتى كلمات الحب الفارغة الهلامية مع الموسيقى الحالمة التي تذيعها بعض إذاعاتنا العربية (مشكورة) بعد منتصف الليل لننام كالأطفال ونحلم كالعشاق .. حتى هذه صارت ممجوجة .

لا ... هذه الكلمات كلها ، هذه اللغة الممطوطة الجوفاء صارت تثير أعصاب الفرد العربي ... في أفيونها شيء يذكرنا بخدر عشرين عاماً من الهزيمة المستمرة ...

ثم ، ما الداعي الى هدهدة شعوب مهزومة ، في حالة حرب مع عدو قريب ، عينه لا تنام ويمارس أفراده الحب وهم في ثياب الميدان، وتحت سيارات الجيب ...

أقول ، كل شيء يجب أن يتبدل : مناهجنا الاعلامية وحتى مناهجنا الدراسية كان يجب أن تتبدل ، والجرح المتدفق المجنون يجب أن يظل حاراً وجديداً كما كان ليلة الهزيمة ، ويجب أن يخطط لثأره ...

أقول ، التخدير جريمة . كل من يشارك في التخدير بصورة مباشرة أو غير مباشرة مسؤول عن الهزيمة المقبلة ، وكل من لا يرفض طبق التخدير الذي يقدم له بصورة رسمية أو غير رسمية يخون عروبته وصدقه واخلاصه لتاريخه ويخون جدران بيته وقوت أطفاله . أقول ، أهم بند في (بروتوكولات حكماء صهيون) للسيطرة على العالم ، يسعى الى نشر الفساد والتمزق في العالم لإضعاف أفراده وبالتالي السيطرة عليه بعد تخدير شعوبه عبر صيدليات الجنس والجريمة والتفاهة .

أليس من المفجع أننا بعد هزيمتنا ، نتجه دون أن ندري الى تطبيق هذا البند مجاناً ، ونبتلع الطعم الصهيوني الذي يتمنون زرعه في حياتنا الاجتماعية والقومية ونساعدهم على ذلك متطوعين منساقين ، بجهلنا ، بعقدنا الفكرية ، بكبتنا ، وبدوار مئات من سنوات الانحطاط التي ما تزال رواسبها في الدم العربي ...

وبعد ،

ثاروا يوم أسميت نكسة حزيران هزيمة ... ثاروا لأني رفضت التخدير البياني والتمويه الأدبي ... واليوم أقول ، بفضل صيدليات التخدير بأنواعها كلها ، يبدو أن تكريس الهزيمة ماضٍ قدُماً ...

أقول ، للذين ما يزال جرحهم جديداً وينزف ، ولما تتقطع أعصابهم المهترئة بالقرف والذهول ، لهم أقول : لنتماسك ضد صفوف (الأفينة) وحشيش الجهل .. ولننبش في آبار وعينا الدي يرفض التخدير عن أبجدية جديدة ...

ورصاصة لما تبتل بالعرق البارد للانهزامية .

٢٣ / ٢ / ١٩٦٨

عن الناس «اللي فوق» !

في كل مساء منذ أسابيع ، يتكرر المشهد نفسه على مسرح دار فخمة للسينما في بيروت .

اسم السينما تلك — التي تتوسط شارع الحمراء في بيروت — لا يهم (فأنا لست ضد أصحابها ، وانما ضد مغزى ما يدور فيها) ...

وفي كل مساء ، يتوافد الناس الى صالتها التي تقدم أفلاماً جيدة بلا شك . ويتجهون الى مقاعدهم ذات المخمل الأرجواني الأمبراطوري . مخمل أرجواني على الجدران . على المقاعد . على الأرض . على ألسنة عاملات الصالة الحسناوات .

وهذا كله محتمل . فأنا لست ضد بناء سينما فخمة كبلاط أمير ، حتى ولو في مدينة ما تزال تحتل بعض أحيائها بيوت من التنك كبيروت !

نتابع ، تُطفأ أضواء الثريا الكريستال الهائلة ، لكن الفيلم لا يبدأ ...

فدار السينما تلك ليست أرستقراطية المظهر ، أو أرستقراطية الرواد فحسب ، وانما هي أيضاً أرستقراطية العادات ...

ولذا ، تظهر عربة متحركة تسير حتى تتوسط المسرح وتحمل أفراد فرقة موسيقية غنائية تم استيرادها من أوروبا ...

وأنا لست ضد استيراد (الحضارة) ، إذا كان صنعها متعذراً محلياً ...

ولما كنا قد اعتدنا على استيراد الغسالات والمكانس الكهربائية والأدوية والويسكي ، فان استيراد (فرقة موسيقية هزيلة) ليس أيضاً موضع النقد ...

ثم إن تلك الفرقة التي نُرغم على الاستماع اليها ، هي فرقة قل أن يجود الزمن بمثلها .. فرقة ثمينة جداً من ناحية واحدة : من الناحية الأثرية ...

فرقة معجزة .. معجزة من معجزات التحنيط ، وصناعة المومياء المتحركة ... فرقة من العازفين المتقاعدين ، فرقة أهل الكهف على مسرح شارع الزيف البيروتي ...

فرقة ذات عزف مهلهل ، يثير الشفقة قبل الغضب ... ولكنها فرقة ذكية ، إذ يعزف أفرادها ألحاناً مألوفة محبوبة مثل: « رجل وامرأة » و « العيون السود » وبضعة الحان للرحابنة مثل « عبدو حابب غندورة » وذلك احتياطاً للطوارىء ، ورشوة للجمهور الذي سيحب (اللحن) حتماً إذا لم يعجبه (العزف) ...

حتى هنا والأمر مسل ...

وهذه الفرقة ، ربما كانت ناجحة جداً يوم عزفت في حفل زفاف نابليون ، وربما في حفل تتويج غليوم الأول ... ومن المحتمل أن تكون نجمتها الحيزبون ملكة لجمال أوروبا عام ١٩٣٥ ... ثم إنك لا تلتقي كل يوم بمومياء تعزف وتغني ...

وتغني نجمة الفرقة ... أغنية شبه (أوبراتية) من أغاني (الناس اللي فوق) ... أغنية فيها من الزعيق النشاز الغوغائي أكثر مما فيها من الفن ... وتشبه صراخ خرساء أثناء الولادة ! ...

وكل هذا محتمل ... فأنت لا تستمع دوماً الى ما تحب ...

أما ما لا يُطاق ، وما يثير الاشمئزاز والسخرية ، فهو أن ينصت الناس الى مسرحية التفاهة تلك طيلة عشرين دقيقة بصمت لا تتخلله إلا فترات من المزايدة على التصفيق ، وبصورة خاصة من قبل المجتمع المخملي الذي يحتل المقاعد السنوب (الفوتوي كلوب) ويتظاهر أفراده بالطرب خوفاً من أن يتهمهم أحد بالجهل ...

فهم أبناء طبقة راقية ، وقد ألفوا أغاني (الأوبرا) أكثر من (الميجانا) و (العتابا) ...

وهكذا حينما تصمت الحيزبون من وقت الى آخر (ربما لتبتلع دواء للرشح) أو لتلتقط أنفاسها يظن الناس أن الأغنية انتهت ، ويتفجر التصفيق ...

كل منهم يصفق خوفاً من أن يعلن رأيه الحقيقي ويُتهم بعدم المدنية وقلة التجاوب مع الحضارة الأوروبية ...

يصفقون ، وتنحني السيدة وأعضاء الفرقة المهلهلة ، ربما ليخفون ابتسامة الازدراء بذلك الجمهور المسكين الذي تتحكم في ذوقه الفني عقدة النقص أمام أوروبا ، وعقدة الترفع عن شعبه .

ويقبض أفراد الفرقة أجرهم كل ليلة ... فهم يقومون بعمل عظيم مدهش : إنهم يكشفون جبن المستمع العربي ، وعقدة الطبقة الراقية ، وزيف طربها ، وتفاهة ترفعها وتعاليها ...

فأفراد الفرقة يعرفون أنهم لو وقفوا يغنون هكذا ويعزفون هكذا على أحقر مسرح في أوروبا ، حتى ولو مجاناً ، لقابلهم هناك (الناس اللي تحت) بالصفير والاحتقار...

حتامَ يستغلون عقد النقص لدينا في تصريف بقايا بقاياهم وما تلفظه مسارحهم ؟ ؟ ...

وأيضاً عن (الناس اللي فوق) أتابع ...

فقد أقيم حفل تنكري كبير ، وكان زي القرن الثامن عشر هو اللباس المختار ...

وتسريحات القرن الثامن عشر ، وماكياجه ، وموسيقاه ... ولا شك في أنه حفل تنكري من نوع خاص جداً ... طليعي جداً .

فالناس عادة يرتدون الأقنعة في الحفلات التنكرية ..

وأهل هذا الحفل خلعوا أقنعتهم (أقنعة عصرهم) وظهروا على حقيقتهم في هذا الحفل التنكري : بلا تنكر .. وبلا قناع : مواطنين من القرن الثامن عشر سقطت عنهم ثياب عصرهم وأزياؤها وبقيت ثياب فكرهم والعصر الذي تنتمي اليه أساليبهم في التصرف ..

فقد صفعني أن صورهم تلك نشرت في إحدى الصحف جنباً الى جنب مع احصاء عن نسبة الأميين الباهظة في بلادنا ، و (مشروع) الحرب الجديدة على الحدود مع « إسرائيل » ذات الأهداف التوسعية ...

ثم ، أليس الحس بالمسؤولية أهم ما يميز مواطن العصر الحديث ، ويدل على رقيه الإنساني ؟ ..

حتى حس الخطر الأناني لا نجده لديهم رغم انه كان متوافراً لدى إنسان القرن الثامن عشر ،فمثل هذا الحس يدفع بالفرد للانتماء الى مجتمعه دفاعاً عن ممتلكاته أمام الخطر المشترك ... وكلنا مهدد ... ولم ننس بعد ، كم بدت مدننا العربية حزينة أيام التعتيم ، وكم حبسنا أنفاسنا نتساءل : سقف من سيتلقى القنبلة الأولى ؟ ...

ثم ان الإنسان العابث المخمور يغري قطاع الطرق بالسرقة والاغتصاب ...

وبعد ...

خطأ واحد ارتكبه أهل هذا الحفل من (الناس اللي فوق) ... هو أنهم لم يخلعوا بقية أقنعتهم ، ويظهروا في ملابس القرن الثامن بدلاً من القرن الثامن عشر .

١٧ / ٥ / ١٩٦٨

.. والحرب أيضاً عبادة !

صورتان تصادف أن رأيتهما جنباً الى جنب في جريدة واحدة ..

صورة الجماهير المحتشدة أمام سماء كنيسة الزيتون في القاهرة ، تنتظر ظهور طيف السيدة العذراء ...

وصورة الجماهير الإسرائيلية المحتشدة ترقب سرباً من الطائرات الحديثة المحلقة في سماء القدس أثناء العرض العسكري الاستفزازي الأخير ، وقد بدا في الصورة بوضوح جانب من المباني المقدسة ...

* * *

لا

.. وفي هذا الصباح الحزين ، وذكرى أيار المشؤومة تقرع الصدور ، كنت أبحث كعادتي عن المعجزة التي انتظر وقوعها ومئة مليون عربي . معجزة وصول العرب — بعد انقضاء ما يقرب من عام على الهزيمة — الى حل عربي علمي عسكري موحد وإعلان البدء بتنفيذه .

وقرأت أنباء معجزة جديدة على طول الصفحات ... أنباء ظهور القديس مار مطانيوس على فتاة في الحدث بضاحية بيروت ، وذلك بعد ظهور العرض العسكري الإسرائيلي بأيام .

أيام وأيام ...

إسرائيل تكدس طائراتها ، وتلملم قنابلها ، وتصر على التبجح بآثار عدوانها ، وعلى المضي بخططها التوسعية حتى النهاية ...

والناس هنا ما زالوا يبحثون عن معجزة تهبط عليهم من السماء بلا عناء ، وتخدرهم عن واقعهم الأليم ...

وصحفنا العربية تروج هذه الأنباء .. فنتلهي بمتابعتها عن كل شيء ... والعالم

الغربي يبدي اهتمامه بهذه الظاهرة ويشجع أبناءها ...

(بخشوع أحني رأسي أمام مقدسات الناس . بخشوع أصلي صلاة أي مؤمن بأي شيء في هذا العالم الرحب) .

ولكن ...

هنالك كلمة لا مفر من أن أقولها ..

أعرف ، أن موضوع الدين شائك ، يثير حساسيات الناس ، ويتجنب معظم الكتّاب الخوض في حقل ألغامه ...

ولكن ،

أحس أن من واجبنا – في هذه المرحلة بالذات – ، نحن الشعوب العاطفية المتدينة ، أن نحدد بوضوح الخط الذي يفصل بين اللجوء الى الدين كهرب من أية مسؤولية ، والدين كقوة داخلية إضافية تعيننا على حمل المسؤولية ...

تقول اسطورة قديمة إن فلاحاً قال لأبنائه الكسالى الملتفين حوله بينما هو يحتضر : « ليس لدي ما اورثكم اياه سوى هذه الأرض ... وهذه الأرض تضم كنزاً هو معجزة من معجزات الكون ... وعليكم أن تنبشوا الأرض بحثاً عنه ... أن تحفروها شبراً شبراً ... »

ومات . وبدأوا البحث عن المعجزة . حفروا الارض شبراً شبراً ، ولم يجدوا شيئاً مما تخيلوه ..

لكن الارض ذلك العام أتت عليهم بربح وفير لا يحلمون بمثله ، فالارض التي قتلها كسلهم ، أنعشها عملهم الشاق بحثاً عن الكنز ...

واكتشفوا الكنز الحقيقي ، والمعجزة الحقيقية .

* * *

اعقلها وتوكل .

لم يقل دعها تسرح واقعد كسولاً وتوكل على معجزات السماء . الشرط الاول لعطاء السماء هو أن يعمل الإنسان ليكون جديراً بالعطاء السماوي .. أن يكون انساناً ، أي مسؤولاً .

* * *

الاعرابي الذي جلس أمام ناقته المريضة بالجرب يبكي ويصلي لشفائها ، تلقى تلك النصيحة المليئة بحكمة السماء : إطلها بالقار ثم صلِّ !

أكرر ..

بخشوع أحني رأسي أمام مقدسات الناس .

ولكي تظل مقدساتنا مقدسة ، يجب أن نحفظ لها قداستها بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة ...

باختصار اقول للراكعين في ساحات المدن العربية من المحيط الى الخليج لأكثر من طيف ووثن ... انهضوا ...

فالسيدة العذراء لن تأتي لتبارك تشتتنا وضياعنا ... انظروا الى طيفها جيداً ... تحمل سوطاً من التقريع . من آمن بالرؤيا فليحارب من أجل الشيء الذي تمثله ، الشيء المهدور : السلام ، والمحبة ، والحرية .

* * *

أكرر ..

بخشوع أحني رأسي أمام كل رأس زاخر بالتدين الصادق .. لكن الدين كان ابداً حرباً من أجل الكرامة الإنسانية ، والصمود . كان وعياً ، وصحواً ، ورفضاً للذل والخور .

ولا يجوز أبداً تحويل كفاح الدين لحفظ الكرامة الإنسانية الى تظاهرة دعائية .

قد لا أشك بصدق المعجزات لانني أؤمن بقوى ما وراء الطبيعة .. لكنني ضد نتائجها ...

بملء صوتي أصرخ : من رأى طيف العذراء فليذهب ويحارب بدلاً من أن يغمى عليه .. أو فليسكت . تلك هي العبادة الحقيقية الايجابية في مرحلتنا الراهنة ...

* * *

ما زال للايمان ولله محل في عصرنا وفي مرحلتنا ...

بل ربما لم نكن قط أشد حاجة الى الايمان بقدر ما نحن في هذه المرحلة .. ولكن ... الايمان الايجابي الواعي .

الحضارة ليست ضد الدين ، ولا الرقي العلمي والآلي ... فأنا مثلاً لا أجد ضرراً في أن يكون أول شيء يفعله أول انسان يصل بفضل رقينا المادي الى القمر ، أن يركع فوق سهول القمر لحظة هبوطه الاولى ويصلي ...

ولكنني أيضاً اؤمن ان الصلاة وحدها لا تكفي ليصل الانسان الى القمر ...

* * *

سادتي ، باختصار ..

المآذن ليست قواعد للصواريخ ...

والكنائس ليست مصانع للذخيرة ..

والسيدة العذراء ليست طائرة ميراج ..

و « الله ليس حداداً يصنع السيوف » ..

العمائم ليست حزم ديناميت ..

القديسون ليسوا فدائيين ..

ومن أجل حماية مقدساتنا ، كنائسنا ومآذننا وعمائمنا وقديسينا ، نحن بحاجة الى الطائرة وقاعدة الصواريخ والديناميت والفدائيين الذين يحملون البنادق لا المسابح ...

فالحرب أيضاً عبادة .. بل انها العبادة الأمثل في مرحلتنا الراهنة ..

وتصبحون على حرب .

١٩٦٨/٦/٧

مطلوب فداء فكري

سيداتي سادتي ..

اعتدنا على اقامة مهرجان تأبيني في كل ذكرى سنوية لفجيعة من فواجعنا القومية — وما أكثرها — . ومقالي هذا ليس من باب الوقوف على الاطلال في سوق عكاظنا السياسية بمناسبة الذكرى السنوية الاولى للخامس من حزيران ، ولا ألعب فيه دور (النوّاحة) التي تقدم الخطباء والرثائين على المسرح وتعقّب على أقوالهم ...

لا .

اولاً ليست هنالك ذكرى سنوية للخامس من حزيران ، لسبب بسيط ، هو اننا ما زلنا في الخامس من حزيران . لم يتحرك الزمن الحضاري عسكرياً وفكرياً ، عقارب الساعة وحدها هي التي تحركت . وهذا أمر ضدنا وليس معنا .

فالخامس من حزيران ليس يوماً مضى ، وانما هو « حالة هزيمة » عسكرية وفكرية ما تزال قائمة وكانت قائمة قبل ذلك بأجيال . لذا ، فاليوم سادتي هو ٥ حزيـران ١٩٦٧ .. يوم طويل قاحل صار عمره عاماً ، ولا ندري متى ينقضي .. فكيف تكون هنالك ذكرى لواقع ما يزال قائماً ؟ واقع من المهازل المتكررة والمستمرة ، ابتداءً بمسرحيات مؤتمرات القمة وانتهاءً بمتعهدي الاعلام العربي الرسمي ومروراً بحصيلة عامنا الفكري ... لولا ...

لولا « الفداء » على الصعيدين العسكري والفكري « أدب المقاومة داخل الارض المحتلة » (بالمناسبة الارض المحتلة تمثل في نظري الارض العربية من المحيط الى الخليج . ما ليس محتلاً من قبل إسرائيل العدوة هو محتل من قبل سلطات ، تكرّسنا للجهل والتخلف — بقصد أو بدون قصد — ، وليس « ٥ حزيران الهزيمة » امام إسرائيل سوى ارتسام واقعنا على شاشة ذلك الصدام ، وليست هزيمتنا سوى نتيجة لهزيمة سابقة دامت عصوراً : التخلف) ...

هذا الامل وحده ، يجعلني قادرة على الحوار مع بعض جنود الساح العربي الفكري دون أن أهزأ من نفسي ومن جدوى أن يقال أي شيء ..

أقول الساح الفكري ، فالهزيمة لم تكن هزيمة مدفع أمام مدفع ، وانما كانت هزيمة انسان (هو الإنسان العربي ، المَنْجَم البكر) أمام أداة (الفرد الإسرائيلي العدائي وبالتالي اللاإنساني ، وبلهجة اعلامنا ، الاستعماري الامبريالي) .. وكانت أيضاً هزيمة الحقيقة — (المجردة من القوة والعمل) — امام الخطأ (المدعوم بقوة الآلة والكومبيوتر) .

ومن هنا كانت مسؤولية الفكر العربي عن النكسة ... نكسة عصور ...

وإلا ما معنى هذه الظاهرة،ان أديباً واحداً أو ناقداً واحداً من الذين قابلتهم وأقابلهم، لم يرشح اثراً اديبـاً واحداً لرد التهمة عن الفكر العربي ؟ ... وكيف يحـدث هذا ؟

في بلادنا ظاهرة عجيبة :

لدينا (أدباء) ، وليس لدينا (أدب) !

لدينا (عباقرة) ، وليست لدينا آثار (عبقرية) .

لماذا ؟...

يقول الدكتور محمد نجم: «لا يوجد كاتب عربي له منبر عام يجرؤ على ان يقول الحقيقة » . وهو بذلك يلخص موقفاً يعترف به حتى كبار أدبائنا .

المفكر العربي جبان وانتهازي ومستسلم ، وإلا فما هو سر عدم وقوفه في وجه أية سلطة مستبدة ؟ على هذا السؤال الصريح رد الدكتور عبد السلام العجيلي من ادباء سوريا بقوله: «قد يؤثر المفكر السلامة فينأى بنفسه عن مواضع التهم ومواطن الخطر ، مبتعداً عن ساح المعركة ، فلنلتمس له العذر » — ٤ نيسان ١٩٦٦ .

فلنلتمس له العذر؟ .

ربما كان ذلك ممكناً قبل الخامس من حزيران .. لكن الخامس من حزيران كشف مسؤولية الأديب العربي عن الهزيمة ، بحيث صار الصمت ، حتى الصمت ، حياداً سلبياً ، وبالتالي كف عن العطاء الأدبي المبدع ...

والمذهل أن يظل بعض كبار أدبائنا يصرون على هذا المنطق حتى فيما بعد الهزيمة ، إذ يقول الشاعر عمر أبو ريشة — وهو في نظري من كبار شعرائنا العرب وهذا بالذات ما يجعلني أحمل عليه — ، يقول في حديث نشر له بتاريخ ٣٠ أيار ١٩٦٨ : «أولى قصائدي في الفدائي العربي قلتها منذ سنوات قليلة ، وهي ليست من العنف الذي طبعت بها قصائدي الجديدة ، التي يحول دون نشرها الآن وضعي

الديبلوماسي » ...

مادح الفدائي .. والفدائي !

انه حر في أنْ يختار موقف (مادح الفدائي) بدلاً من أن يكون (فدائياً فكرياً) ، أي أن يكون الديبلوماسي قبل الشاعر ... لكن الذي أثارني حقاً هو تصريحه أنه يتهم « الأعمال الشعرية » التي صدرت بعد الهزيمة بأنها (بعيدة عن الجرأة ، وعن وضع النقاط على الحروف) ...

يا سيدي الشاعر الكبير ... حسناً لن أكون بعيدة عن الجرأة ، وسأضع النقاط على الحروف . ما دمت تخفي أعمالك الجريئة والتي تضع النقاط على الحروف في ادراجك ، (لأسبابك الديبلوماسية) وانت الشاعر الأصيل ، وسواك يفعل الشيء ذاته لاسباب قد تكون أشد إلزاماً وايلاماً من أسبابك ، من يغني مرحلتنا المفجعة تلك ؟ ... شعراء الأرض المحتلة . لأنهم فدائيون ولأنهم صادقون . وانت قد وصفت داء أدبنا العربي ، واعترفت في الوقت نفسه بأنك مصاب به ... هذا كله ما كان ليؤلمني ، لو لم أقرأ قصيدتك المنشورة الى جانب الحديث عن « الفدائي » ويروعني ما فيها من جدب ... فيها مهارة (صنايعي) كبير ، وليس فيها الروح ، الروح الشعرية . فيها وصف لموقف الفدائي كما يراه من الخارج شاعر محترف ، احترف صنعة الشعر ، ولم يحترف الحياة ويسكب عبرها الشعر ... أين روح عمر أبو ريشة من هذا النظم والكلام التقليدي ؟

امضي ويذهلني طــلابي عني وعن دنيا شبابي
امضي ويسألني الربيــع ولا اجيب متــى ايابي
امضي وما وردت فمــي كفي ولا اثنت شرابي
بيني وبين المــوت ميعــاد احث لــــه ركابي

قارنت هذا الكلام ، بكلام شاعر ليس ديبلوماسياً وانما هو فدائي فكري وليس لديه ما يفقده – حتى الآن ! – سوى قيوده ... يقول محمود درويش في قصيدة (من القصائد التي سجن بسببها) في الموضوع نفسه :

علقوني على جدائل نخلة
واشنقوني
فلن أخون النخلة !

هذه الأرض لي
وكنت قديماً
أحلب النوق راضياً ومولهٔ
وطني ليس حزمة من حكايا
ليس ذكرى .
وليس حقل أهلّه
وطني ليس قصة أو نشيداً
ليس ضوءاً على سوالف فله
وطني غضبة الغريب على الحزن
وطفل يريد عيداً وقبلة
ورياح ضاقت بحجرة سجن
وعجوز يبكي بنيه وحقله
هذه الأرض جلد عظمي
وقلبي ..
فوق أعشابها يطير كنحلة
علقوني على جدائل نخلة
واشنقوني
فلن اطيع المذلة !

المقارنة فجعتني ... عمر أبو ريشة شاعر كبير ، وقد يكون أكبر دراية وتجربة واطلاعاً من محمود درويش الشاب الصغير ،وقد تكون قصائده السجينة في أدراجه أعذب وأصدق من شعر محمود درويش وقد لا تكون .. ولكن أينها ؟ ... اني أتهم ادباءنا الكبار بالقصور عن مواكبة واقع الفرد العربي وبالعيش على هامش مأساته .

* * *

ما الحل ؟ .

يبدو انه لم يعد أمام الأديب أي خيار ... الحل الوحيد هو التخلي عن (الازدواجية) الفكرية مهما كان الثمن .

بعبارة أخرى :

الفداء الفكري .

يبدو انه في مرحلتنا الراهنة ، لا مفر للأديب من أن يكون فدائياً . أن يقول الحقيقة مهما كان الثمن ، كشعراء الأرض المحتلة . صرت مؤمنة بان الحل الوحيد الذي تبقى للمفكر العربي هو نفسه الحل الذي اهتدى اليه المقاتل العربي : الفداء .

الفداء الفكري هو الحل ، وهو أيضاً حل ضروري لمواكبة الفداء العسكري والجسدي ...

ترى من سيكون أول شهدائنا ؟ ...

١٤ / ٦ / ١٩٦٨

موضوع ... ممنوع الكتابة عنه !

أكره الاجتماعات .

طيلة حياتي العملية وأنا أهرب من حفل « السّتريبتيز الفكري » و « استعراض العضلات الثقافي » لأفراد مؤسسة ما ، المتعارف على تسميته بـ « اجتماع » ...

وحتّى حينما يتّم اقناعي بجدوى التقاء افراد مؤسسة ما في موعد معين — من أجل تنظيم العمل وتنسيقه — كنت أقتنع ، ولكن أهرب !

في الصحافة اكتشفت ان الهرب غير ممكن خوفاً من ازدواج الموضوع ... كأن أجري تحقيقاً ما ، والتقي صباحاً بزميل لي وقد قام بتحقيق حـــول الموضوع نفسه .. ويصاب قارئنا بحول فكري لو نشر موضوعانا (أم تكتمل الصورة ؟) ..

وهكذا سقطت في فخ اجتماعات هيئة تحرير المجلة ، برئاسة صاحب الدار .

وكنت اعتقد انه في اجتماعنا سنقرر ماذا نكتب في العدد المقبل ، ولكن ...

وبعد حضوري لأكثر من اجتماع ، اكتشفت اننا في اجتماعات هيئة التحرير نقرر عادة ما لن نكتبه في العدد المقبل ! نقرر ما لا نستطيع ان نكتبه نظراً لاعتبارات وحساسيات وقوانين وأنظمة وظروف وغيرها وغيرها ... هذا بالاضافة إلى توصيات مدير ادارة الدار الذي يقيّم الأعداد وفقاً لجدول ارتفاع المبيعات وبدفتر شيكات الدار التي نضرب بها عرض الحائط غالباً ...

في الاجتماعات نقرر ما الذي لا نستطيع أن نكتبه ... بعبارة اخرى ، نقرر إلى أي مدى نستطيع ان نقول الحقيقة ، وان نحافظ في الوقت نفسه على امكانية توزيع العدد في الاسواق بدون الزج بالعدد ومحرريه في السجن أو المنفى ... وهكذا تُردد مرة اسبوعياً قائمة الممنوعات من الموضوعات الـ (تابو) التي يذكّر كل منا الآخر بمراعاتها .. كالدين والجنس والجيش وارتباطات البلد الرسمية وموقفه الرسمي من الاحداث ..

باختصار ...

في هذه الاجتماعات يكتشف الانسان بوضوح عملي أية مأساة يعيشها حامل القلم في مجتمعنا العربي ، وفي هذه المرحلة بالذات من تاريخنا المضطرب المتناقض - المميّع القيم والمواقف .. وأية رزم (امبالاج) نضطر احياناً لتعليب الكلمات داخلها .. ويوماً بعد يوم ، صرت أحس ان هذه الاجتماعات هي أقرب إلى العيادة النفسيـــة للمحررين منها إلى اجتماع محنط جاف يتحدث أفراده بالشوكة والسكين ..

فقد لاحظت انه لدى طرح أي من الموضوعات « المستحيلة » ، ينسجم أولاً صاحب المجلة وتنبسط أساريره كما لو انه يفرح بأن محرره ليس تقليدياً ولا غبياً ... وهو غالباً ما يؤيده ويضيف إلى الموضوع « المستحيل » جوانب أخرى .. ويدب الحماس .. ونقول جميعاً أشياء لو كُتبت لكانت رائعة وحقيقية ومباشرة ، وكافية لزجنا جميعاً بالسجن ، ومطاردة أحفادنا ! .

وهكذا يقول كلٌ ما عنده في هذه العيادة النفسية ، نصرخ ، نتألم ، نحزن ، نثور ، نفرغ أحزاننا الفكرية ... حتّى اذا ما رن الهاتف ، أو أطل ضيف ملحاح ، كان ذلك تذكيراً لنا بالعالم الخارجي وبمقاييسه ، اذ نعود إلى لملمة الخيوط وإلى الوعي بمقاييس عصرنا ومقاييس سلطاتنا ومقاييس ارتباطاتنا وتبدأ عملية تكيّف جنائزية حزينة لاواعية .

هنالك ملاحظة لأحد المستشـــرقين الفرنسيين قرأ نتاج الأدبـــاء العرب والتقى بعضهم .. يقول : الأدباء العرب يتحدثون خيراً مما يكتبون !

لماذا ؟ ...

لان صاحب(القلم العربي) صحافياً كان أو أديباً يكتب وهو مقيد بشبكة من آلاف القيود الواعية وغير الواعية .. يحاول ان يوصل صوته رغم مئات من الاعتبارات — حريته وحياته — من بعضها .. إنه يخوض معركتين : معركة للبحث عن الحقيقة ، وهي التي يخوضها أي أديب في أي مكان في العالم ، ومعركة إمكانية نقل هذه الحقيقة كما هي عارية تصفع آلاف الاعتبارات .

كاتبنا ملجوم ، مدجّن ، مهدد ، ومستعبد كأفراد المجتمع جميعاً ، لكنه يحس ثقل هذا أكثر من سواه لانه وُجد ليقول الحقيقة ولأن في قمعه ما يسحق وجوده ويدمره نفسياً ، ويجعله تائهاً بين خيارين لا ثالث لهما في النهاية : عميل ، أو شهيد . متجاهل ، أو فدائي صرف .

مفروض على الاديب العربي ان يبحث عن الحقيقة على طريقة « ديوجين » حتى ولو وجدها ! ...

الفيلسوف « ديوجين » كان يحمل مصباحه ويدور في شوارع أثينا والشمس ساطعة ، باحثاً عن حقائق الوجود ومعمياته التي لا تدرك .

وكاتبنا اليوم يرى حقائق مجتمعنا ومآسيه السياسية والفكرية والاجتماعية والعسكرية واضحة إلى حد بعيد ، وكل ما عليه هو أن يغرف منها ويرسمها أو يفتح الباب للنقاش حولها ، لكنه في النهاية ، يجد نفسه مرغماً بطريقة ما على ان يحمل مصباحه تحت شمس المأساة الساطعة ، ويردد «أين الحقيقة» ، وإلا ردد الناس بعد ذلك بأيام : «أين الكاتب فلان » ؟ . أو : « رحمه الله » ! ..

في أحد الاجتماعات قلت للزملاء فجأة : اقترح ان نصدر نشرة سرية ، تكتبها هيئة تحريرنا ، وتذكر فيها ما لا يسمح بذكره رسمياً .

– ماذا ؟ .

– نطبعها سراً ! .

– ماذا ؟ .

– نوزعها سراً ! .

– ماذا ؟

– نقول . نقول فيها ما نشتهي حقاً كتابته ونصبّه عادةً في عيادتنا النفسية : الاجتماع ! ...

ولعل الفكرة راقت لرئيس التحرير إلى حد انه خشي من اغرائها ، إذ انه أسكتني يومها ! ..

في هذه النشرة السرية ، أود أن أتحدث مثلاً عن موضوع اللاجئين العرب .

لا أعني بذلك المليون فلسطيني المشردين علناً ... والمعرضين لكثير من الاعتبارات والأنظمة التي لا يتعرض لها المواطن عادة في بلده فحسب .

وانما اعني ايضاً مئات آلاف من اللاجئين العرب الآخرين .. من الذين غادروا بلادهم خلال العشرين عاماً الاخيرة المنصرمة لسبب أو لآخر لاعتبارات أهمها عدم الاستقرار السياسي .

لبنان وحده يضم مئات الآلاف منهم (لبنان . شكراً) . بلدان عربية اخرى تضم آلافهم أيضاً وهم أحياناً يتقاضون رواتب من دولة عربية أو أخرى .. وهم

أحياناً بلا عمل حقيقي ، بلا انتماء حقيقي ، طاقات مهدورة .

احد الزملاء قال مرة انه يريد أن يكتب عنهم — المكتومين منهم والمعلومين — في لبنان ، لطرح مشكلتهم انسانياً . وتمت الموافقة على الموضوع . وعاد بعد اسبوع ليقول انه من المستحيل الكتابة عنه . لماذا ؟ :.

أولاً لأن اصحاب العلاقة يرفضون إثارته .. انهم يخشون من مزيد من التشرد ، وقد تعبوا وسئموا ، ولم يتبق لهم سوى انتظار غائم مشوش : قد تتبدل الاحوال ..

وثانياً لأن الوقوف إلى جانبهم امر لا يسمح به تقليد « حسن الجوار » بين الشقيقات العربيات . وثالثاً لأنه حتى مجرد طرح الموضوع من الناحية الانسانية الواقعية يمكن أن يعرّض المجلة لسوء الفهم والاتهام الخاطىء بتبديل خطّها ..

وكالعادة بعد كل موضوع « مستحيل » . يبدأ النقاش حول المعنى الحقيقي لخيانة الخط : هل هو التحجر على « الخط » حتى ولو اثبتت الاحداث المتبدلة انحرافه ، أم انه الانحراف عن الخط الذي انحرف ؟ ! .. ثم الانحراف ، ما مقياسه ؟ .. الانحراف عن ماذا ؟ ونحو ماذا ؟

أود أن أقول في النشرة السرية (التي يجب ان تصدر !) ان أحداً لم يفد من النزف البشري للعرب من اقطارهم سوى اسرائيل ..

اريد أن اروي تلك النكتة — المأساة التي سمعتها في جنيف حيث آلاف من اللاجئين العرب الذين يتمنون العودة إلى بيوتهم : « العرب هنا أكثرية حتى ان السويسريين قرروا انشاء جالية في جنيف ! » .

اريد أن اتحدث عن جيل جديد من الشبان الذين كبروا في اوربا ودرسوا فيها ، والذين ما تزال روابط خفية تشدهم إلى بلادهم الأم التي غادروها فتياناً أو اطفالاً ، وبلادهم الأم في أمس الحاجة إلى تلقيح جديد بدمهم ، هم الذين عايشوا المدنية الحديثة الاوروبية وفهموها ، وما زالت أصالة أقوى منهم تربطهم بوطنهم الأم .. احدهم قال لي : اعود ؟ اتمنى .. ولكن .. لا اريد ان ارث تركة ابي من (المواقف) المعادية للسلطات القائمة .

أتساءل : لماذا لا تأخذ حكومة عربية ما المبادرة ، وتدعو مواطنيها للعودة إلى بلادهم؟

لقد أعطت الشعوب العربية سلطاتها فرصة ثانية رغم هزيمة ٥ حزيران ، فالهزيمة لم تطح بأي زعيم أو أي نظام في أي من الاقطار العربية ... فلماذا لا تعطي الأنظمة المواطن العربي فرصة ثانية ؟

٢٥ / ٥ / ١٩٦٤

اصنعوا الأخلاق بسكين المطبخ !

بشرى إلى الاخلاق !

في دولة عربية شقيقة، خفضت الاحكام على الذين ارتكبوا جريمة القتل لأسباب اخلاقية تتعلق بالشرف ! .. بشرى إلى القيم ! (اوكازيون) للجرائم ، تخفيض كبير في سنوات الحكم كافة . سارعوا قبل ان تفوتكم الفرصة . يا زبائن الأخلاق الكرام ، اخرجوا سريعاً من غرف عشيقاتكم وإلى سكين المطبخ ، وإلى رقبة أخت أو بنت ، احفروا فيها « نحن شرفاء » ، وليتفجر دم الجريمة على أيديكم . اغتنموا الفرصة .. اما سمعتم تعريف الأخلاق الجديد (للفيلسوف) الاجتماعي الكبير يوسف وهبه حين قال : « شرف البنت زي عود الكبريت » ؟ . يا ابناء الجيل الصاعد ، اصنعوا الاخلاق بسكين المطبخ ! ! ..

هذا ما كان يدور في ذهني وانا أستمع إلى النبأ (السعيد) الذي زفته إلينا احدى الصديقات .

هنالك صفة أحب ان تظل في الرجل الشرقي وفي المرأة وفي مجتمعنا (أو بالأحرى اتمنى لو توجد !) : انها احترام القيم ، وتقديس العلاقات بين الرجل والمرأة ، والارتقاء بها عن المستوى البهيمي الذي وصلت اليه في الغرب ، والمحافظة على الكبرياء الانسانية في لقاء رجل بامرأة ليظل هذا اللقاء ذروة في العطاء النفسي والعاطفي وارتباطاً ومسؤولية ، لا مجرد لقاء جراء في عتمة شارع يمضي بعدها كل في طريقه كأن شيئاً لم يكن ...

اذاً فأنا مع المتشددين حرصاً على شيء اسمه القيم ... وانا بعد الخيبة التي احسست بها في اوروبا حينما رأيت كيف تلتقي المرأة بالرجل وكيف صار الجنس شيئاً قائماً بذاته ، يمارس لذاته ، لا جزءاً من عاطفة كبيرة وحياة مشتركة شاملة ، بعد هذه الخيبة وجدتني أتطلع إلى بلادنا العربية التي لم يتفش فيها طاعون الاستهتار بالانسان

في ذات المرأة والرجل ، الانسان المتماسك المتكامل الذي يرفض ان يتحسس بيده اليمنى كتفاً عارية بينما يده اليسرى تعمل على الة حاسبة .. ووجدتني أتمنى ان تنبت من بلادي شمس أخلاقية جديدة نبشر بها في العالم أجمع ، جذورها من شهامة العربي وحرصه الغريزي على القيم ، ونسغها من تفكير حديث بعيد عن صحارى ما زالت تئن تحت رمالها فتيات موؤودات .. لو كانت سكين المطبخ تحل المشكلة لكنت أول من نادى بها..ولو كانت الاخلاق التي تقنع عقل المثقف تصنع بهذه الطريقة لكنت أول من هتف لها.. لكن العصبية المتوارثة لم تعد تكفي.. نريد ان يقود العقل والمنطق عواطفنا وأن يلجم هذه العاطفة ويحسن توجيهها وتفجير طاقاتها .. اذ لا يكفي ان نقول : نحن شرفاء بقوة السلاح . بل علينا ان نعرف معنى الشرف وان نمارسه بأنفسنا .. فمن السهل جداً ان يقتل الانسان ، ان يستسلم لغضب اللحظة هرباً من مسؤولية عمل بطيء مستمر ، وأن يختار الطريق السهلة إلى الشرف ويقنع نفسه بجدواها ، ويدعي لسواه انه حريص على الاخلاق حتى الجريمة .. ولكن من الصعب جداً ان يتبنى منذ مطلع حياته قيماً لا تقوده أو تقود سواه إلى مثل هذه اللحظة ، قيماً يعيشها تصرفاً بتصرف ولحظة بلحظة كأب أو كأخ أو حبيب أو زوج ...

اذاً فالذي لا أؤمن به ليس القيم الأخلاقية والانسانية ، وانما هو أسلوب رعاة البقر في صون الاخلاق ، أسلوب تصحيح الخطأ بخطأ آخر اسمه الجريمة .

ثم انني لا اؤمن أيضاً بشرف اعرج .. شرف من طرف واحد ، ولن اؤمن بذلك الا اذا التقيت ذات يوم بطائر يحلق بجناح واحد ! ..

ان كل لقاء غير شرعي (اذا رضينا بالمفهوم الاجتماعي لهذه الكلمة) ، يشترك فيه رجل وامرأة . واذا كانت المرأة هي التي (تحمل) آثار الجريمة ، فهذا لا يعني أن (حملها) أمر ذاتي يخصها وحدها ولا دخل للطرف الآخر فيه ، والا ، فلماذا ينتمي الاطفال — في الاحوال العادية — إلى ابائهم ؟ ...

اذا قالوا الدين قلنا ان الدين يساوي بين خطيئة الزاني والزانية وبين عقابهما ، فلماذا نخص المرأة بشرف العقاب ونخص الرجل بعار الاقتصاص ؟ .. ومن كان منهم بلا خطيئة فليسارع إلى سكين المطبخ ! ..

الواقع ان كثيراً من مفاهيمنا بحاجة إلى اعادة النظر وإلى التبلور وتحديد الصيغ النهائية لها لأن جيلنا الحالي يعيش مرحلة ازدواجية فكرية مريرة وتناقض وتشوش في القيم . هنالك مثلاً مفهوم الحرية .. والمسؤولية .. وشرف الأسرة التقليدي ، وهل

كل فرد في الاسرة إنسان قائم بذاته ووجود اخت مستهترة فيها لا يعني بالضرورة ان الاسرة بأكملها مستهترة ، أم ان خطيئة فرد تعمم على الجميع ، وعلى الأخ المغوار مسح العار ؟ .. ومفهوم الاخلاق بحد ذاته ، هل من الاخلاق في شيء أن يغري شاب شقيقة رجل آخر ، ثم يذبح شقيقته لانها أغريت ؟ . والشرف ، هل من الشرف ان يسرق رجل أو يكذب أو يخون وطنه أو يتآمر على لقمة الناس ، ثم يشجعه القانون بعد ذلك على أن ينصب مقصلته ويقيم محكمته ويتولى بنفسه سلب حياة انسان آخر ؟.. هل الرجل ، زوجاً كان أو أخاً أو أباً ، إله معصوم مثالي التصرف حتى يتجرأ فيتخذ لنفسه حقاً لا يملكه الانسان على نفسه ولا يملكه إلا الإله .. إنه حق سلب الحياة من إنسان آخر ... لو كان الرجل ذلك الإله لما كانت المأساة لتقع ولما كان هنالك شيء اسمه الخطيئة ولرفض آدم التهام التفاحة ...

والشاب الشرقي ، ذلك العملاق الممزق من الداخل ، ألا يعيش فترة تناقض رهيبة مع ذاته ؟ الا يقضي سهرته مع الاصدقاء مباهياً بأساليبه المبتكرة ، وخططه الجهنمية في إغراء الفتيات وخداعهن ، ثم يعود إلى داره لينصّب من نفسه جلاداً على اخته التي لم تستطع بخبرتها المحدودة ان تكشف الاساليب المبتكرة والخطط الجهنمية لرجل آخر مثله ؟ .. إذن فالاخلاقية الإرهابية واهية الجوهر . والقيم التي تفرض على طريقة (الكاوبوي) سطحية ومتناقضة وعديمة الجدوى .. انها أخلاقية الهرب من مواجهة الذات والهرب من المسؤولية إلى تقديم مسرحية ميلودرامية لا تثير الا الاشمئزاز والأسف .. إننا بحاجة إلى نظرة أكثر جدية وعمقاً وموضوعية للأخلاق فنحن لم نسمع حتى اليوم ان اماً قتلت ابنتها دفاعاً عن الشرف ، فهل هذا يعني ان الأم أقل حرصاً على القيم من الأب ؟ .. وأنها متهمة بالتواطؤ مع ابنتها على الاخلاق ؟ .. أم انه يعني انها قد سبقت الرجل إلى الايمان بلا جدوى الجريمة لحل المـأساة حيث نطمس بالدم خطوط المشكلة عوضاً عن معالجة الأسباب التي تدفع اليها والنتائج التي تخلفها ..

إننا بحاجة إلى حلول اخرى نحافظ بها على كيان الاسرة ونصون بها العلاقات الإنسانية من العبث والانحطاط .. ولكنني لا أعتقد ان هذه الحلول موجودة في علبة كونسروة نفتحها بسكين المطبخ . ان الدرب إلى هذه الحلول يمكن تلخيصه بكلمتين : المسؤولية والكرامة للطرفين .. من هنا يجب ان ننطلق ، ومن هذه الزاوية لنبدأ بطرح الموضوع .

١٩٦٨/٥/٣

نريد نظرة عربية جديدة لقضايا الجنس !

صارت إعادة النظر لا في واقعنا العسكري والفكري والاجتماعي فحسب، بل في واقعنا «الجنسي» أيضاً أمراً لا مفر منه. وصار تقصي أسباب ضعف الشخصية العربية، وتشتت طاقاتها — بصورة مباشرة أو غير مباشرة — واجباً تفرضه المرحلة الراهنة . وصار تحاشي المصارحة ، تجنباً لإثارة المتاعب والاقاويل والزوابع ، « خيانة فكرية عظمى » .

ثم ان اية دعوة لإعادة النظر في مفاهيمنا « للجنس » يُساء فهمها عادة كدعوة « للتهتك » لا « للتعقل » ...

فموضوع الجنس موضوع شائك ، أُحيط على مر العصور بمختلف أنواع «التابو» والتحريم ، حتى صار الحديث عنه أصعب من لعب التنس بقنبلة يدوية في حقل مزروع بالالغام !!..

ثم ان الفوضى الاخلاقية في اوروبا ، التي تبعت مرحلة انهيار القيم التقليدية فيها ، أعطت ذريعة قوية للتقليديين عندنا ، وللمتاجرين بعُقَد الشعب العربي ، والمتعيشين من دكاكين (تحنيط) الأخلاق تحت شعار (حفظ) الاخلاق .. ولكن الاخلاق أوجدت أصلاً لحماية المجتمع ، ولاستمرار بقائه ككل التشريعات والعقود الاجتماعية .. الاخلاق وليدة العصر والمجتمع ، وليدة التكيف والظروف ... فما يعتبر « أخلاقاً » في مجتمع من المجتمعات قد يكون خطيئة في مجتمع آخر ... وما كان فضيلة في عصر ما قد يتحول إلى خطيئة في عصر آخر ... فالزواج من الأخت كان مشروعاً أيام الفراعنة . وهو في يومنا خطيئة ... والعري لدى بعض القبائل الافريقية أمر عادي كعري الطيور والغزلان ، و« الميني جوب » الذي أقام الدنيا وأقعدها حشمة مفرطة في نظرهم ! ...

من الضروري إذن ملاحظة أمر مهم في موضوع الأخلاق هو ان القواعد الاخلاقية

ليست شيئاً متحجراً جامداً غير قابل لإعادة النظر ، وانما هي وليدة المجتمع والعصر وجدت لتخدم نموه وتكامله لا لتعيقه ، وهي بالتالي يجب ان تتصف بالحيوية كي تكون باستمرار قادرة على استيعاب تطوره بتطور مماثل مواز وملائم ...

وعلى ضوء هذه النظرة ، وعلى ضوء وعينا الجديد بدورنا القومي التاريخي في المرحلة الراهنة ، تصبح إعادة النظر في أخلاقنا وسلوكنا ، ضرورة لا مفر منها لاستراتيجية المعركة المقبلة ...

اذن ليست هي روح تقليد الغرب التي تفرض فتح « الدفاتر العتيقة » لحياتنا الجنسية ، لا ، ولا الرغبة بالتحدي لمجرد التحدي ، وانما هي ضرورة حماية الفرد العربي من كل ما يمزق شخصيته ويشوهها ويعيق تكاملها ويحول بينها وبين لعب دورها القومي والانساني كاملاً ..

أقنعتنا الأخلاقية

في إحدى جزر الباسفيك ، وقف واعظ يخطب في الناس ، يحذرهم من الخطيئة ، من المعاصي والرذيلة ، يصرخ ويتوعد ، ينادي بالفضيلة والعفة . وبعد ان انتهى من خطبته ذهب إلى حيث امرأة يشتهيها سراً ، ليمارس كل ما نهى عنه علناً . تلك هي قصة سومرست موم الرائعة « المطر » ، وهي ايضاً في نظري تلخص موقفاً عربياً عاماً من موضوع الجنس، صار شبه متعارف عليه ولم يعد يدهشنا أو يفاجئنا ! فمجتمعنا العربي ظل طيلة القرون الاخيرة ، قرية واحدة كبيرة كقرية الباسفيك تلك ، مزروعة بفزاعي الطيور الاخلاقيين المزيفين الذين يعتاشون من بيع الأقنعة الاخلاقية ، والذين يشكلون في نظري الشريك غير المباشر للذين يعتاشون على كبت الشعب العربي ... فكل مُدافع مزيف عن الأخلاق هو الشريك غير المباشر لتاجر الجنس.. بعبارة أخرى كل كاهن اخلاقي مزيف هو مروج للبضاعات الجنسية الرخيصة ... فدكان « بائع الفضيلة » يواجه دكان «القواد».. إذ إن المبرر الوحيد لوجود كل منهما هو وجود الآخر...وبين هذين القطبين تضيع أجيال من الشعب العربي في ازدواجية اخلاقية موجعة .. تذهب من دكان الاول إلى دكان الثاني .. فلا تجد الطمأنينة في الجنس الرخيص ، ولا في الزيف الاخلاقي الرخيص ...

وتسود الازدواجية ... الازدواجية في كل شيء ...

صحيح ان حال الغرب الاخلاقية لا تصح نموذجاً أو مثلاً أعلى يحتذى ... لكن

حياتنا الاخلاقية القائمة قد تكون في جوهرها أكثر اهتراء ، وكل ما في الامر ان مجتمعنا ما يزال يرتدي قناعه ... واذا تجاوزنا الأقنعة التي ارتداها الشعب العربي بإحكام طيلة قرون ، فاننا نفاجأ بحكايا عصر الحريم والتهتك ، واستعمال المرأة « نصف المجتمع » كأداة للذة فقط ، وبالحكايا الفاضحة في كتب ادبنا الصفراء ، ومدلولها الخطير الذي يحمّل اخلاقنا الاجتماعية بعض مسؤولية تخلفنا وسقوطنا فريسة لأنواع الاستعمار كلها ، والاهتمام « برجوع الشيخ الى صباه » أكثر من الاهتمام برجوع شيخوخة مجدنا التاريخي إلى صباه ... وتروى في عاصمة عربية نكتة لها مدلولها ، وهي ان اهل الاخلاق في المدينة كانوا يخرجون للنزهةوالكيف إلى جمال الطبيعة ، وهناك يشربون الويسكي في فناجين الشاي ! ! وشعوبنا العربية تعبت من فئة شاربي الويسكي في فناجين الشاي ، وتعبت من مبدأ «الازدواجية» الذي قد يحمي الاخلاق كمظهر ولا ينقذها كمضمون...

في مجتمعنا اليوم مختلف انواع المخازي والتفاهات التي يساعد على وقوعها الكبت ويجعلها أيضاً بمنأى عن العلاج بسبب السرية والتهويل المحيط بكل ما له علاقة بالجنس. وهكذا ، تُعرض الأفلام الجنسية الرخيصة في بعض البيوت . من يستطيع ان يدفع ضريبة « الاختباء » يستأجر ملجأ لِـلَذاته ، ومن يعجز عن ذلك قد يصبح ذات يوم فريسة لصفحة الجرائم التي تحتل المشاكل الجنسية أكثر سطورها ، أو ينجح في السيطرة على كبته ويصبح بطريقة ما فريسة لأكثر من مرض نفسي وعقدة مشتتَة لطاقاته ... المجلات الجنسية التي تدغدغ حس الكبت صارت تجارة رابحة ، وأول قرائها للأسف ينتمون إلى الفئة التي تهاجمها ... الكتب الرخيصة تجارة مضمونة ، وأية غانية بار أوربية منسية تمر بشواطئنا ، تدغدغ لدى بعض شباننا عقد النقص والكبت ، وتصبح موضوعاً للتنافس ، وتاء تأنيثها هدفاً ومغنماً يشغلهم عن أية مسؤولية ... وصار صراع جيلنا من أجل الجنس رضياعه بين شتى القيم والتأويلات – بين منطق اللحم والدم ومنطق الآخرين – يشتته عن صراعاته الأخرى ... ولكن ، ما الحل ؟... هل نُطلق شريعة الغاب ؟... هل نُعلن تعبئة جنسية عامة يستنفد خلالها الجميع كبتهم ويلتفتون إلى القضايا المصيرية ؟ ...

لا .

لو كان ذلك يجدي ربما لناديت به ... لكنه يزيد الامور سوءاً ... « فالجنس » لدى الانسان ليس قضية « غريزية وفيزيولوجية » كما هي لدى الحيوان ، لكنه قضية انسانية خطيرة ترتبط بمقومات شخصيته كلها من تاريخية واجتماعية وفكرية ونفسية ...

الجنس قبل كل شيء هو الأداة الوحيدة لاستمرار الانسان . انه حاجة اساسية كالاكل والنوم والملبس ... وهكذا مر بمحاولات تنظيمية كتلك التي مرت بها الغرائز الأخرى ... وكما ان المحاولات التنظيمية الأخرى كان الغرض منها الحفاظ على بقاء المجتمع واستمراره وتقويته، كذلك كان الغرض من تنظيم الجنس بالزواج وغيره من أنواع العقود وفقاً لوضع القبيلة الاقتصادي والجغرافي وغيرها ... وركزت التحريمات على موضوع الجنس لأنه قضية تمس في الانسان أكثر من وتر دفعة واحدة ، ولأنه نقطة التقاء وبلورة لأكثر من فعالية حياتية فيه ... وهكذا ظل الجنس على مر التاريخ هو التابو الاول ، وظلت التحريمات تتراكم ... وما تزال المتاحف تضم إلى اليوم « زنار العفة » الحديدي الذي يعود تاريخه للعصور الوسطى ، وهو أداة الكبت القسرية لكبح الجوع الجنسي ... ولم يخترع الانسان « حزام عفة » للفم للمحافظة على الصوم وهو من الشعائر الدينية في أكثر الاديان . فقضية الزجر الجنسي والكبح كانت دوماً أهم وأخطر من أي زجر آخر .. ثم هبت موجة سقوط القيم التقليدية التي اعقبت الحروب العالمية في اوروبا ... كان من المستحيل ان تغسل اية حركة فكرية ، ما لحق بذهن الانسان من تصورات وتقاليد متعلقة بالجنس ، كما غسلتها نيران القنابل العمياء ، والحس المتلاحق بالموت ، وبتفاهة كل شيء ... وجاءت الثورة الصناعية والحضارة المادية تخطط هناك لانسان جديد في عالم جديد المفاهيم والقيم ... وغسلت اوروبا عنها عقد القرون الماضية ، وهي اليوم تعيش (أخلاقاً) مستمدة من واقعها التاريخي والحالي .. تعيش أخلاقاً تنسجم مع وضعها الاقتصادي ومع أهدافها القومية .. واستيراد ذلك طبعاً غير ممكن ... ونموذج اوروبا ضروري لا لتطبيقه لدينا ، وانما ليزيدنا تفهماً لمشكلتنا وليجعلنا أكثر قدرة على تجاوزها وفقاً لتاريخنا نحن وواقعنا نحن ...

اسرائيل تعقم الشبان العرب !

اذن فالجنس ليس خطيئة كما تجعل منه بعض الأديان والمفاهيم فحسب، بل انه أيضاً خطيئة حينما يُساء استعماله وممارسته وبالتالي فان البحث عن تطويره وتفهمه ليس تجديفاً وانما هو ضرورة .

الجنس حقيقة أساسية ، وحقيقة يمكن ان تكون جميلة ومصدر قوة وطاقة ... الشعب العربي شعب ما يزال يحتفظ بالحرارة إزاء القضايا الجنسية ولم يصب بعد بالأمراض

الحضارية التي تحوله إلى كومبيوتر في معامل الجنس ...

والجنس لدى الفرد العربي ليس كله انحرافاً وكبتاً ، ولدعوة جريدة « معاريف » الاسرائيلية منذ اسابيع (لتعقيم الشبان العرب في اسرائيل) مدلول خطير ! ... فقد كتبت الجريدة في افتتاحيتها متخوفةً من تضاعف عدد العرب في فلسطين المحتلة بشكل كبير ، ومن زواج ٥٠٠٠ فتاة اسرائيلية من شبان عرب ! خافت الجريدة على اسرائيل من بلغمة (احتواء وابتلاع) الخلية العربية الجنسية النشيطة لها . وماذا كان الرد ؟ ... نسف الشبان العرب مبنى الدار في وسط تل ابيب !

للحادثة أكثر من مدلول . فهي تعبر عن (حيوية) العربي ، وعن اعتزازه بذلك . وهذه الطاقة الحية المتجددة هي التي يجب المحافظة عليها من شتى الامراض النفسية : العتيقة والمستحدثة . ولكن حياتنا الجنسية مهزوزة . ثيابنا مستوردة وتصرفاتنا الظاهرية مستوردة وأعماقنا ما تزال تعج بمفاهيم القرون الوسطى ... وأخلاق القرون الوسطى لم تعد تلائم عصرنا لأنها تحول دون تطورنا . والاخلاق المستوردة ليست حلاً . وعلينا ان نعمل لإيجاد نظرة عربية إلى قضية « الجنس » ، اذ ان تجاهل أزمة الجنس لدى الجيل العربي المعاصر يزيد من خطورتها .

إن أول الخيط لإيجاد أخلاقية عربية تلائم عصرنا هو في ايجاد منطلقات علمية جديدة لبحث قضية الجنس بعيداً عن الخرافات والتهويلات والأساطير ... تلك خطوة أولى ، من أجل خلق تربية عامة واعية تهيء الجيل المقبل لتحمل مسؤولياته بشكل أفضل وأكثر وعياً وبعيداً عن أمراضنا وعقدنا ...

المثقفون والغضب !

الدكتور عبد الرحمن اللبان ، الطبيب النفساني ، وعضو المجلس الشرعي الإسلامي الاعلى يقول : «تحديات الحضارة الحديثة تستلزم القدرة على التكيف الدائم ، لكن الجهاز العاطفي والنفسي لدينا قد تمت تربيته وتهيئته وفقاً لمفاهيم لا تمت إلى هذا العصر بصلة ، لذا فان مواقفنا من الاشياء الحديثة هي مواقف قديمة لا تؤدي للانتصار وانما فقط إلى عدم التورط . انها موقف هرب .. ان شخصية الفرد لدينا تكونها ألسنة الناس . هي التي ترسمه . كل واحد منا يحاول ان يكون صورته المرتسمة في عيون الناس . لذا فنحن نميل دائماً إلى اتخاذ موقف الدفاع عن النفس ، موقف الاعتذار لا موقف

المبادرة » ... ان شعوبنا تعاني من كبت للمواقف الحقيقية الاصيلة لا حد له ... « ليس بالضرورة كبتا لرغبة في الجنس بل احياناً كبتاً لقرف وإعراض عن الجنس ، كالشاب الذي يضاجع احياناً مومساً خوفاً من سخرية اصدقائه » .. اخطر ما يتعرض له مجتمعنا هو الكبت بمعنى الجبن ، كبت الحقيقة ، كبت الصدق ... والتستّر على عقد نفسية أحكم من الحديد ، حديد العصور الوسطى ، وفي ذلك يقول الدكتور اللبان « الكبت لا يعرف تفصيلاً وانما هو وحدة ... انه جزء من موقف في الحياة ، موقف الهرب... جزء من الكبت ، أي زجر العطاء » . والحل ؟ هل هو اعادة النظر في الّتربية الجنسية ؟ « بل انه اعادة النظر في الّتربية ككل ... تربية الجيل الطالع يجب ان تزود الفرد بالقدرة على الحياة في المجتمع بلا خوف ولا اضطراب ولا احجام فذلك يجعله بمنجاة عن دكاكين الجنس وعقاقير التفاهة والرخص » كما يقول الدكتور اللبان .

والواقع ان اعادة النظر بقوانيننا واجب ايضاً . اعتبار القتل من أجل (الشرف) كعذر مخفف لم يعد منطق عصرنا يقبله .

نريد الآن أن يقتل الرجال من أجل (شرف الارض) و (شرف التاريخ) قبل (شرف البنت) . ثم انه لا يمكن ان تحدث جريمة جنسية الا والرجل شريك فيها . وللدكتور اللبان نظرة ثاقبة في ذلك ، يقول « الجرائم الجنسية بلامعنى اذ ان الرجل لا يقتل ابنته للاصلاح وانما ليبرر نفسه أمام الآخرين » .

والواقع ان لبنان الحر مؤهل للعب دور طليعي في هذا المجال ، فلبنان كبيت للحرية والتطور في قرية العالم العربي ، قد سبقها جميعاً إلى تعديل القانون الجائر المبني على مفاهيم تتناقض والمفهوم الحقيقي للعدالة وحرية الانسان .

يقول المحامي فيليب ضرغام: «قررت محاكم التمييز في لبنان عدم الأخذ بالاجتهاد القائل بتخفيف الحكم في موضوع الجرائم — دفاعاً عن الشرف بمفهومه القديم — ، والرئيس القاضي بطرس نجيم قد غيّر هذا الاجتهاد غير العادل وغير الانساني» .

نحو فهم جديد للأخلاق

وبعد ..

مطلوب منا نسف اسلوبنا العتيق في فهم الاخلاق وايجاد مفاهيم جديدة .

يقول الشاعر العربي :

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى   حتى يراق على جوانبه الدم ...

ومطلوب منا ان نفهم ان شرف الامة الرفيع ليس عضواً من أعضاء جسد بناتنا وانما هو موقع امتنا الحالي من العالم ومن التاريخ ، واغتصاب اسرائيل لجسد امتنا هو العار الحقيقي الذي يجب ان نجند لصده طاقاتنا البشرية كلها نساءً ورجالاً . والعار هو ان تبقى امرأة لا تعمل ولا تؤدي دورها الصحيح وفقاً لظروفها (زوجة — محاربة — مهندسة — سائقة تراكتور ...) . ومطلوب منا الوقوف بوجه تجار الاخلاق بلا خوف والحد من سوء تفسير تراثنا ...

وهكذا ... المطلوب فتح حوار مثقف واع ، بعيد عن الزيف والهرب .. فالمشكلة عميقة ومعقدة .. واذا كانت إثارتها ممكنة في مقال ، فإن حلها سيتطلب أكثر من جيل ..

٢٨ / ١١ / ١٩٦٦

غربان البلاط !

غداً ٢٩ تشرين الثاني .

غداً ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ذكرى قرار تقسيم فلسطين ...

طبعاً لم يعد هنالك ما يقال .

لم تبق في لغتنا العربية كلمة حماسية واحدة الا واستهلكناها في مهرجاناتنا الخطابية ومقالاتنا الافتتاحية ...

جثث الكلمات التي تدور حول الثأر وتحرير فلسطين صارت مكدسة تحت منابر مسؤولينا وأعتابهم ... تحول بيننا وبين لقاء ثقة جديد بهم .

طبعاً لم يعد هنالك ما يقال .

الكلمات كلها صارت هياكل فارغة باردة لألعاب نارية أضاءت سماء الفرد العربي لفترة يوم صدقها ... ثم انطفأت وبقيت «اسرائيل» ...

ومع ذلك ...

غداً ، وبصورة آلية ، تُفتح (أدراج أرشيف) الاذاعات العربية وصحفها ، لتستخرج منها كلمات جاهزة تتم تلاوتها كل عام ، باللهجة المسرحية نفسها ، ثم تعاد إلى الأدراج بانتظار المناسبة إياها في العام المقبل ...

كل ما صنعناه طيلة فترة الانتظار كان : أرشيفاً ... ارشيفاً للمناسبات كلها ... لذكريات فواجعنا الوطنية بأكملها ... ارشيفاً جاهزاً من جثث الكلمات ومجزرة معانيها .. تحول رجالنا وزعماء أحزابنا الذين طالما فرشنا لهم أهدابنا – مجاناً – إلى كورس من الندابين في بلاط التعازي بالنكبات العربية ! ...

لم يعد هنالك ما يقال ، لانه لم يعد هنالك من يصدق ! ...

لم يعد هنالك ما نخشاه لانه لم يبق لنا ما نفقده .. حتى ولا ادعاء الكرامة ! ..

نحن ، الطيبين الاغبياء ، نحن الفاشلين في سوق المزايدات ، نتهم أكثر الوسائل

الاعلامية العربية بتسميم حياتنا ... اذ إنها تلوث بقايا صدقنا ، بالجراثيم الفائحة من جثث الكلمات التي اهترأت منذ أعوام ... إنها تخدرنا ، تحول بيننا وبين رؤية الحقيقة المخجلة .

لم يعد هنالكَ ما يقال ...

صار الموت بالرصاص ، أهون من الموت على أرصفة التجاهل والادعاء الكاذب والتمزق الخفي ...

لم نفقد إيماننا بالآخرين فحسب ، بل بدأ كل منا يفقد إيمانه بصدقه هو نفسه ...

فلنعلن حداد الصمت ، ولنعاقب غربان بلاط فواجعنا ...

٢٧ / ٤ / ١٩٦٤

ان عطاءً بلا كبرياء ليس كرماً ! ..

« ــ ماذا أعجبكِ في لبنان ؟

ــ طعام لذيذ جداً اظن انه يدعى .. آ .. آ ..

ــ الكبة ؟

ــ لا .

ــ التبولة ؟

ــ نعم .. نعم .. التبولة .. » .

ما هذا بحوار عابر من آلاف الاحاديث التي يتبادلها أي سائح مع مضيفه اللبناني الكريم ، ثم تنضم همساتها إلى آلاف الهمسات الحلوة في فضاء لبنان ، وانما هو مقطع لا أحمل سوى مسؤولية نقله حرفياً عن احدى الصحف الكبيرة ، وهو جزء من حديث يماثله في (الخطورة) ، دار بين أحد المحررين وأحد الممثلين الاجانب الذين يزورون لبنان ، ونقرأ باستمرار ما يشبهه من حيث « العمق الفكري » .

وكلما زار لبنان فنان أو فنانة من بلاد الغرب ، هبت رياح الكرم ــ تحمل الصحافيين ،والمستقبلين بباقات الورود إلى المطار ــ على اولئك الفنانين ، وفتحت لهم أبواب المجتمعات الراقية ، وامتلأت أعمدة الصحف بأحاديثهم وصورهم ، وحتى مجلاتنا الرصينة المعروفة بـ «الاتزان» نراها تفرد لهم عدداً كبيراً من الصفحات ... هذا كله رائع وطبيعي في لبنان لأنه كان وسيظل دائماً أخضر النفس والروح ، وحامياً للتراث العربي في الكرم .

ولكن الامر الذي يثير الاستنكار ، هو المبالغة في أمر هذه الدعوات ، والافراط في هذا الكرم ، حتى ليفهم منه الضيوف شعوراً بالنقص، وضعفاً في شخصية المضيف،

في غمرة التكالب على احتضانهم ، يجب ان لا ننسى انهم فنانون عاديون رغم شهرتهم ، ولعطائهم أثر محدود على تاريخ الفن ، وان بلادنا العربية تضم عشرات

الموهوبين أمثالهم في الزوايا المعتمة .. وكلما التقينا بفنان عادي محدود المواهب كرّمناه لمجرد انه يحمل جواز سفر أجنبياً . ويجبِ ان لا نجعل من جواز السفر هذا خاتماً سحرياً يفتح أمامه الأبواب الصلدة لمجرد انه صادر عن دوائر لا تنطق بالعربية .

اعتقد ان هذه الظاهرة ، إلى جانب تعبيرها عن بعض الكرم ، تعبر ايضاً عن عقلية ما زالت تشعر بالكثير من النقص أمام كل ما هو غربي ، وتحاول تغطية هذا الإحساس بتصرفات كثيرة ، منها تطعيم أحاديثها بجمل غربية ، وتطعيم أساليب حياتها بتصرفات غربية لا تنسجم وجذورها ، ولا تتلاءم مع طبيعة مناخنا الشرقي .

لقد ولى الزمن الذي كنا نصفق فيه للوالي حينما يخلع على مغنٍ أطربه كيساً من النقود .. صرنا الآن ننتقده ، لأنه ينفق أموال الشعب على من لا يستحق ، كما انه سيفسد الفنان بالمبالغة في إكرامه ، ويدفع به إلى الغرور ، وإلى الاستهتار بعقلية صاحب الدار الذي « يسكر من زبيبة » ..

إن أهم ما في العطاء هو ان نعرف كيف نعطي ، ومتى ، ولمن ، وكم .. والذي يُكسب الهدية مدلولها هو اسلوب تقديمها . وان عطاءً بلا كبرياء ليس كرماً .

٢٨ / ٣ / ١٩٦٦

بصارة لمؤتمرات القمة ! ..

كان ياما كان ..

كان هنالك أمير ، فراشه وثير ، وتحت وسادته الحرير ، مبلغ من المال كبير ...

ذات صباح ، تجمع أهل امارته على الصياح ، وكان أميرهم يندب ماله المستباح ، ويهدد السارق السفاح ، بالويل والثبور وعظائم الامور ...

ولم يلجأ الامير ، لكشف السارق المكير ، إلى بصمات الأقدام والاصابع ، ولكنه للم منجّمي المرابع ، وصاح بصوت عال ، اكشفوا السارق الضال ...

وجيء بعدد من المتهمين ، إلى حفرة الدجالين ، وفي فم كل منهم أودعوا بلحة ، ووعدوا الامير بفرحة ، لان البلحة المسحورة ، سوف تعلق في حلق السارق لحظة البلع المشهورة ، ومن بلع بلحته كانِ من الناجين ، ومن علقت في حلقه كان من الضالين السارقين ...

ونُفخ في الابواق ، وهرع الناس من الاسواق ، فرأوا المتهمين يبتلعون البلح باشتياق بعد أن عضهم الجوع بنابه ، وأدماهم السجن بعذابه ...

وثار الامير ، وأمر بطرد كل منجّم أجير ، من أرضه السعيدة ، جزاءً وفاقاً على تلك المكيدة ...

وتناهى اليه في حلم جميل ، أن على بعد مئة فرسخ وميل ، مدينة بحرية ، تقطنها بصارة اسطورية ، اسمها فاطمة الذهبية ... وأرسل في طلبها ، لعل حجب الغيب تطيعها ، ولعل وسادته الحرير تخبرها بمن سرق نقود الامير ...

لكن فاطمة بنت الحكيم ، أبت الرحيل بإباء عظيم ... كان ياما كان ... لا في سالف العصور والازمان ، ولكن في عصر ارتياذ الاقمار والاكوان ! ...

وهذه الحكاية ليست من ألف ليلة وليلة ، ولا من أحد كتب حكايا الاطفال ... ولكنها حدثت منذ اسبوع ، وفي امارة عربية ، وبطلها شيخ الامارة ... والخبر

منشور في الصحف العربية الكبرى ... المفروض ان الامارة مسلمة ، وان شيخها هو المسلم الاول فيها ... والمفروض انه يحكم بوحي من تعاليم الدين ... واذا كان التخلف الذي سببه الاستعمار سبباً في الماضي قد يدفع بحاكمها إلى تجنيد المنجّمين ليكونوا (اسكوتلنديارد) جنائية ، فان في إسلامه ما يسمو به عن منطق الدجالين هذا ...

ان عقلية شيخ هذه الامارة في كشف السارق ، هي كأسلوب كثيرين من المسؤولين العرب في التعامل مع سارقي أراضي الامة العربية ومواردها وثرواتها البشرية والطبيعية ..

واذا كان شيخ هذه الامارة قد دعا فاطمة البصارة اليه للكشف عن الأسرار ، فهل نقرأ ذات يوم عن استدعاء فاطمة إلى أحد مؤتمرات القمة ؟!! .

٩ / ٥ / ١٩٦٦

لا نريد .. حفنة من المفاتيح .!

خبر ضجت له الصحف والمجلات ...

ملكة جمال «اسرائيل» ، أمضت في بيروت أحد عشر يوماً تتخطر على شاشتي « المتروبول » و « سارولا » كممثلة في فيلم تم عرضه في الصالتين ...

وطبعاً ، بدأت التحقيقات في الدوائر المختصة لتحديد المسؤول عن الفضيحة . وتضاربت الاراء ..

هل هو مكتب المقاطعة ؟ أم موظف الرقابة ؟ أم مكتب شركة فوكس في بيروت ؟. أم ؟ .. شيء واحد اتفق الجميع عليه ..

ان الأمر فظيع ... وفضيحة ... وجريمة ..

فضيحة ؟ أجل ... ولكن ،

إذا كنا صادقين في ثورتنا على فيلم الممثلة الاسرائيلية الذي يستمر عرضه ساعتين، وعلى شاشتين صغيرتين ، كيف نستطيع ان نتابع حياتنا اليومية ، هكذا ، ببساطة. وفيلم اسرائيلي لا حد لفظاعته ، ظل يدور طيلة ثمانية عشر عاماً ــ وما زال ــ وعلى شاشة كبيرة من أرضنا وبيوتنا وبياراتنا اسمها فلسطين ؟ ...

فضيحة ؟ .. أجل .. ولكن ..

ماذا عن تلك الفضيحة الاخرى الكبرى ، الفضيحـــة الأم ، التي تدور منذ ثمانية عشر عاماً ، والتي لم نواجهها بغير عد الاعوام ، ودفن رؤوسنا المهترئة بالخزي في الرمال ؟ .. المسؤول ؟ .. من المسؤول ؟ ... غداً نرشي ضمائرنا بمعاقبة فرد أو اثنين.. وكلنا مسؤول عن الفضيحة الكبيرة الاساسية .. حتام نداوي فلسطين بالمخدرات الموضعية ؟ .. لماذا نعي فظاعة الجزء . ونهرب من مواجهة المشكلة ككل ؟ .. ألسنا بذلك جميعاً متواطئين على الهرب من مواجهة حقيقة السرطان الكبير ؟ ..

مقاطعة « اسرائيل » جزء من الحل الكبير . مرحلة ضرورية لكنها غير كافية ،

آن نمنع ملكة جمال «اسرائيل» من التخطر على شاشتنا أمر ممكن ... لكنه للأسف لا يعني اعدامنا لبقية شاشات العالم التي تعرض الفيلم نفسه ..

أن نرمي بتلفزيوناتنا إلى البحر ، - بدلاً من ان نرمي بمحطات بث «اسرائيل» إلى البحر - لا يعني انها كفت عن بث برامجها ...

وان تبحث التلفزيونات العربية أمر مواجهة تلفزيون «اسرائيل» على طريقة «رغوة البيرة » ، لا يعني ان حلاً قد نفذ ، وخطراً مدمراً قد سحق ...

شبعنا تخديراً وهرباً ورشوة لضمائرنا ..

يوم خرج العرب من الاندلس ، حملوا معهم مفاتيح بيوتهم رمزاً للعودة المرتقبة ... وظلوا طيلة أجيال يحتفظون بها انتظاراً للعودة المرتقبة ، وما زالوا حتى اليوم ..

لا نريد ان يبقى لنا من أرضنا ، فلسطين ، مجرد حفنة من المفاتيح ! ..

٢٧ / ٦ / ١٩٦٦

« الجيمسبوندية » في امتحانات البكالوريا !.

لا ، ليسوا مجرمين ..

بتهمة الغش في الامتحان قُبض عليهم ...

طبعاً لا جديد في ذلك .. انه أمر كان وما زال وسوف يظل يقع ...

ومع ذلك نُشرت أخبارهم في صفحات الصحف الاولى ، فقد أذهلت « أداة الغش » الناس جميعاً بمن فيهم مراقبو الامتحانات ...

اللاسلكي ... هكذا بكل بساطة اتخذوا من اللاسلكي وسيلة لالتقاط (الأجوبة الطائرة) ...

لا ليسوا مجرمين ...

النص القانوني لا يدينهم بتهمة الغش ، وانما بالاسلوب : استعمال لاسلكي بلا ترخيص ...

ومع ذلك فقد روعت الناس الحادثة ، وأثارت قلق الاوساط كلها أكثر مما قد تثيره أية جنحة لا ينص القانون على سجن صاحبها أكثر من عامين ...

لماذا ؟ ..

لان هذه الحادثة تدق ناقوس الخطر ... لأنها تديننا جميعاً ...

ذلك الطالب ، الذي جلس في قاعة الامتحان وتحت الضمادات المزيفة التي تلف رأسه خبأ سماعته « الجيمسبوندية » ، ليس في نظري تلميذاً سيئاً ...

إنه في نظري تلميذ مثالي مخلص لما علّمناه إياه خارج الكتب ...

إنه حصيلة صادقة التعبير لما غُرس فيه ... إنه واحد من ذلك الجيل الذي شب في عالم مهزوز .. وكبر بينما كل ما حوله يعلمه درساً واحداً : ان النجـــاح يعـــني القرصنة ...

ان كهارب الجو العام الذي (يلتقط) شحناتها منذ طفولته لا تحمل له الا حكايا

القرصنات السياسية والفكرية والاجتماعية والمساومات بالقيم والتقاليد وحتى الأديان... ثم جاءت الموجة الجيمسبوندية تنسكب من شاشات التلفزيون كتعبير عملي (طريف) عن تجاوز (غير طريف) لتراث أخلاقي ضائع ...

هذا التلميذ ليس مجرماً ...

إنه التلميذ العربي الاول ... إنه أصدق تلميذ لأنه مارس ما تعلمه ببراءة لا حدّ لها ... الدليل ، أجوبته بعد القبض عليه ... إنه لا يستطيع ان يستوعب لماذا يكون فيما قام به خطأ ما .. ثم إنه ليس غبياً .. بل ربما كانت في رأسه بذور مخترع كبير زرعت في تربة مريضة في عصر مريض ، فكان منه (ما نسميه باللغة التي لا نمارسها في الحياة الواقعية) غشاش كبير ...

وهكذا ، بدلاً من أن نقول للعالم عندنا أول مخترع لجهاز ما ، نقول لهم عندنا أول مخترع (للامتحانات اللاسلكية) ! .. الدليل ؟ ...

انه استطاع ان يصنع اللاسلكي بنفسه ... ويضبط موجة البث .. ببساطة وبذكاء عملي كبير ، لو لم نسيء نحن توجيهه لاستطاع أن يقدم لبلاده شيئاً آخر ...

لا ، ليسوا مجرمين ...

كانوا أوفياء لما تعلموه ! ... وقد حرمنـــاهم من قيم آبائنا ، واستوردنا لهم المخدرات الجيمسبوندية .. ليسوا مجرمين ... إنهم أول حصاد الهشيم ! ...

١٢ / ١٢ / ١٩٦٦

لمن تقرع أجراس السجن ؟

عن رصيف (بنك انترا) المفلس في بيروت التقطوها . امرأة تنزف خريفاً وشيباً وفجيعة . تصرخ في جموع المارة نادبةً ما جمعته طيلة أيامها السود الماضية ، لأيامها السود المقبلة . والمرض يقرع أبواب صدرها والمصير المجهول ، وغداً يأكلها الجوع . هكذا ، وبلا أي سبب تستطيع فهمه ، قالوا لهـــا : لا سيولة . أزمة ، أي نقودك ضاعت . (ربما كانت نقودها هذه لا تساوي ثمن أحد معاطف الفراء المنسية في خزانة إحداهن .. ولكن ...)

وتم لمّها بسرعة عن الرصيف ، حيث كانت تنزف احتجاجاً وصراخاً ممسكة برأسها وهي تحس بأنياب قطيع من الكلاب الوحشية تنغرس فيه ، وتم إيداعها في مستشفى المجانين — أضيف إلى المستشفى المذكور جناح جديد بعد إفلاس بنك انترا —.

وما كاد صدى صراخها ينطفىء على الرصيف حتّى عادت الأقدام تمضي في طريقها كأن شيئاً لم يكن ... تماماً كما عاد الناس إلى متابعة حياتهم المعتادة بعد أيام من هزة بنك انترا ، وكما عاد بعض المسؤولين عن الازمة يحملون وجوههم إلى الحفلات إياها وشوارع اللهو دون أن يخجلوا بها أو يشعروا بالمسؤولية . وظهر انعدام المشاركة بين الناس حينما لم تخلف الأزمـــة جرحاً الا على صدور الذين فقدوا ما ادخروه ... (من دلائل عدم المشاركة وعدم رهافة الحس بالمسؤولية حفلة انتخاب « ملكة جمال المال » عقب « حفلة الافلاس الجماعية » التي أصابت عدداً كبيراً من المواطنين) وهكذا لم يبق من هذه المرأة سوى خبر صغير نُشر في زاوية إحدى الصحف.

وبينما كانت المنكوبة تقاد إلى مستشفى المجانين بعيداً عن المدينة وأنياب قطيع الكلاب تعمل في رأسها ، كانت هنالك مدينة في اليابان تدعى « كيتاكيوشو » تتضامن معلنة الحرب على أنياب الكلاب التي تهاجم أمن سكانها وطمأنينتهم ...

فقد هاجم قطيع من الكلاب إحدى نسائها ، وتسبب في موتها وبالتالي موت أمن

أهل المدينة ... وهكذا لم يكتف أهل الموتى فقط بالندب ، وانما اتُّخذت الخطوات العملية لمواجهة الكارثة ... وحتى المواطنون الذين لم تصب أنياب الكلاب أجسادهم مباشرة ، لم يكتفوا بالمراقبة السلبية . ولم تبدر منهم أية إشارة (قلة حس وذوق) ولم يقيموا حفلة لانتخاب « أجمل كلب » بينما الناس يدفنون أمواتهم ويداوون (عضاتهم) . وانما انضموا إلى أهل المدينة المتضررين ومسؤوليها (الواعين لمسؤوليتهم) وقرروا إعلان الحرب على الكلاب والقاء قطع اللحم المسموم في شوارعها ...

هذا ما حدث هناك ...

نحن لا نطالب اهل المدينة « مبكى انترا » بوضع قطع اللحم المسموم أمام أبواب مسببي الكارثة، إذ ما زال وعينا بالمسؤولية وحسّنا الإنساني الجماعي أضعف من أن يدعم موقف تضامن شامل كبير كهذا ...

ولكننا لا نملك الا التساؤل : من فقد وعيه ؟ تلك المرأة التي تبكي عمرها الضائع ، أم أولئك الذين يقيمون الاحتفالات لانتخاب « ملكة المال » وشبح « الفقر » يفتك بعقول أهلها ، مَثَلُهُمْ في ذلك مَثَلُ أهل مدينة أصابها وباء الطاعون،وفي غمرة دفن الموتى ومداواة من تبقى يجتمع بعض « عقلائها » الذين لم يمرضوا بعد لانتخاب « ملكة جمال الصحة » ! ...

ماذا نقول لو سمعنا انهم في الهند حيث يعانون من « المجاعة » أقاموا حفلة لانتخاب « ملكة التخمة » ؟ ! ...

ترى من يستحق التهديد بقضبان السجن ؟ ...

أولئك الذين عجزوا عن إسكات أصوات ضمائرهم ، فكتبوا محتجين ضد مؤامرة النسيان التي تدفع مأساة انترا إلى بئرها ، أم كورس المصفقين لقطيع الكلاب ـ الذئاب ؟ ..

(ملاحظة : لا أملك قرشاً واحداً في بنك انترا) .

٧ / ١١ / ١٩٦٦

« يه يه يه »

يقال – على ذمة الرواة ناشري الخبر – ان البيتلز يستعدون لزيارة بيروت (سيتصادف ذلك بعد ابحار شباب الاسطول الأميركي السادس عن منطقة الكاباريهات البيروتية في الزيتونة) .

وجيلنا الذي خرج منذ أسابيع متظاهراً ليكون في استقبال مغنيـــه (ادامو) ، لن يتخلف طبعاً عن (زعيق) عواطفه وهز أردافه إعجاباً .. وقد يحج الى بيروت كل قادر من أبناء بعض الأقطار العربية المجاورة لينضم الى رتل الضائعين الممزقين في مظاهرة الاستقبال .

وسيهز الشيوخ رؤوسهم احتقاراً وحزناً .. وربما ستدمع أعين بعضهم وهم يذكرون المظاهرات التي طالما واجهوا فيها الرصاص من أجل الاستقلال ، ومن أجل قضايا أخرى تتعلق بالخبز والكرامة ..

والصيحات التي تتعالى من وقت الى آخر مقررة – بحسن نية أو بسوء نية – ان جيلنا « جيل فاسد » ستجد تأكيداً جديداً لهذه (الحقيقة) . وستتهم الجيل باستيراد قلقه وضياعه ، وسيرد بعض المسترزقين اللؤماء مدافعين : عصر حديث يتطلب ذلك .

نعم جيلنا ضائع وقلق لأنه بلا يقين ، ولأنه لا شيء حوله يمنحه الطمأنينة من حكام أو ساسة . ماذا يمكن أن يمنحه اليقين ؟ من قال إن الكتب المدرسية وحدها تكفي ؟ .

ماذا حوله ؟ ..

الصحف مرآة ؟ لنقرأ معه ما يقرأ من تناقضات . ولنلتقطها من الصحف العربية المختلفة .

هذا خبر اجتماعي أنقله حرفياً .

« السيدة س . سافرت الى أوروبا للاستجمام من ... من عناء الحفلات ! ! ! ... »

في صفحة الجرائم من العدد نفسه خبر (أقل أهمية) : نساء احدى القرى تظاهرن مطالبات ببناء مدرسة لأطفالهن ! ..

ريبورتاج مصور عن السيدة التي امتهنت قص شعر الكلاب المدللة — الكلاب تشكل اليوم طبقة مهمة في المجتمع (المودرن) لم يخطر لابن خلدون ذكرها — .

وهذا خبر آخر مكرر : عامل بناء سقط من الطابق الخامس اثناء عمله وانطفأ على الرصيف بقعةً من حبر أحمر مهدور .. العدالة الاجتماعية لم تبخسه حقه ، فقد نشرت الصحف نبأ موته وتحت عنوان « قضاء وقدراً » ، كأننا لم نسمع بأساليب البناء الجديدة التي تحمي إنسانية العامل وتحول دون تعرضه للسقوط (قضاء وقدراً) أو (دواراً من الجوع أو نتائجه كفقر الدم) ،.. « مصلحة » رب العمل « المادية » تغريه بألا يسمع بها ، وسيظل الناس يتناثرون على الأرصفة بقعاً محطمة من الحبر الأحمر المهدور ..

وعلى ذكر الحبر ، مطلوب من أدبائنا التغريد دوماً ، فالتعبير عن أي قلق أو تمرد ، متهم سلفاً بالاستيراد من أوروبا ، وعلينا جميعاً أن نستسلم لرومانتيكية القرن التاسع عشر . ومع انه لم يتبق في ضمير كل منا موضع (إلا وفيه طعنة سيف) ومع ذلك مطلوب منا — باسم التراث — أن نغرد ، وأن نتحدث عن خرير المياه ووشوشات العبير .. وإذا نقلنا صورة حقيقية لما يدور ، رمادية وقاتمة — لأن هذا ما يدور — اتهمونا بعمى الالوان ، الألوان التي يتم اغتيالها على المستويات كافة .. واتهمونا بإفساد الجيل الصاعد .

لنعد الى الصحف : مرآة ما يدور ... ولننتقل الى صفحات السياسة ...

في عدن ما زال الرجال يعذبون في اسطبلات الاعتقال ، ونحن (الأمــة العربية الواحدة) آخر من يعلم ، وقد تم الاهتمام بنشر أخبار أولئك المناضلين مؤخراً ، عن طريق نقل الخبر في صحف أجنبية ! الصحف الأجنبية هي التي نقلت احتجاج الضمير الإنساني لفئات كثيرة هناك ، ضمت صوتها الى صوت منظمات الصليب الأحمر الدولية المستنكرة للمعاملة الوحشية التي يلقاها ثوارنا في عدن ...

غردوا أيها الادباء . لا تقلقوا أيها الشباب . النضال بخير ، والاتكال على همة الصليب الأحمر والشعوب الأخرى .. مشكلة فيتنام مثلاً ، ألم يتم حلها على يد مظاهرات الأمريكيين المحتجين على سياسة دولتهم ؟ .. ملعقة أخرى من عسل التخدير .. أسلوب مبتكر للمناورة ، كله حب ومشاركة ، يضرب على وترنا العربي :

حسن النية ...

كل عام والعالم الحر بخير .

منظمة السلام (الأمم المتحدة) بلغت سن الرشد (بالهوية فقط) واحتفلت منذ أيام بعيد ميلادها باطفاء ٢١ شمعة (ومع ذلك ما تزال الشمس تشرق بالضياء نفسه) ...

وتصادفت ذكرى مولدها المجيد مع ذكرى مرور ٤٩ سنة على وعد بلفور الذي أساء التقدير (فلو عرف مدى تخاذلنا لأقطع إسرائيل أقطاراً أخرى من بلادنا ولما اكتفى بجس نبضنا في فلسطين وترك الباقي على خلفائه) ...

أحداث وأحداث ... وفي مثل هذا الجو يترعرع جيلنا .. جيلنا القلق الذي يصرون على أنه يستورد قلقه ، حياة جيلنا الرافض .

جيلنا أصيل ، لأنه رغم الجو الفاسد الذي يحيطونه به — بحسن نية أو بسوء نية — ما زال مصراً على التمرد بحثاً عن مصير أفضل ...

وأهلاً بالبيتلز ... ولينضم رتل الكتّاب الى المراهقين ، ولنردد معهم (يه يه يه) بملء حناجرنا المخنوقة بآلاف الكلمات ، ولنغنِ معهم (يه يه يه) كي لا (نبق البحصة) ونقول المزيد .

٣ / ١٠ / ١٩٦٦

مطلوب أيضاً .. قبعات

سترة مضادة للرصاص ...

صحف أوروبا تتحدث عنها ، وعن المؤسسة التي تصنعها (مؤسسة ولكنسون سورد) واسمها لا يهم كثيراً ، فالمهم أسماء زبائنها (السريين) الذين يرفض صاحب المؤسسة ذكر أسماء الاحياء منهم ، ويكتفي بالاشارة الى انهم من كبار رجال السياسة وحكام بعض الدول ... وانهم يتزايدون يوماً بعد يوم ! ..

سترة مضادة للرصاص ، يرتديها (الرجل) الذي يخشى على نفسه من الاغتيال تحت ثيابه ، وهي مصنوعة من معدن لا يخترقه الرصاص فيما لو أُطلق عليه (من الخارج) ... وهي تحوّل أي زعيم سياسي الى (جيمس بوند) فعلي غير قابل للاغتيال ..

اعتقد أن الفكرة على قدر مدهش من السطحية ، ..

فإما أن يكون الزعيم تعبيراً حقيقياً عن رغبات الشعب وأمانيه ، وإما أن لا يكون .

في الحالة الأولى يرفض الرجل العظيم أن يتحول الى سلحفاة (حديدية القوقعة) ، لأن له من يقينه الكبير بإخلاص عطائه ، وامتداد أفكاره داخل رؤوس الآخرين ما يجعله يشعر بنوع من الطمأنينة الداخلية العميقة ، تلك التي عبّر عنها القائل لعمر ابن الخطاب « حكمتَ فعدلت، فأمنتَ فنمت»(*) ... وعمر بن الخطاب حينما كان يرفض أية (سترة مضادة للقتل) من حراس أو خيام مصفحة بالمعدن ، لم يكن ساذجاً ...

فقد كان يعرف انه مهما كان الحاكم عادلاً ، فقد يطل من زحام المواطنين العقلاء مريض أو موتور ويغمد سكينه في القلب الذي « عدل فأمن فنام » ... لكنه

(*) قالها رسول كسرى ، ملك فارس في ذلك العهد .

أيضاً كان يعرف إن قتل الزعيم الحقيقي أمر مستحيل .. فهو ، بأفكاره الممتدة داخل ملايين الرؤوس أشبه بذلك المخلوق الاسطوري الذي كلما قطع له رأس نبت في موضعه الف رأس ... وهو بتعبيره عن رغبات الشعب وتجسيدها في (نظام) يستمر في ذلك (النظام) وفي قلوب ابنائه حتى بعد إغماد السكين في قلبه ...

فالاغتيال السياسي إذن أمر مستحيل إذا كان الزعيم حقيقياً ، وهو بالتالي لا يخشاه ...

والسكين التي كانت قد اخترقت لحم عمر لم تخترق لحم (فكره) ، بعده ...

والرصاصة قد تصرع جسد الزعيم ، وقد يُختطف جسده وتحول اجزاؤه الى (هدايا تذكارية) و (بورت بونور) ، ولكن إعدام ما كانت تمثله شخصيته ، هو أمر يعجز أمامه الاغتيال السياسي المحدود الأثر .. فالرصاص يمزق جسد السياسي لا جسد الافكار ، ولا جسد النظام .

أما في الحالة الثانية ، حينما يكون الحاكم متسلطاً وبعيداً عن رغبات شعبه ، فان فكرة حمايته ، بارتدائه للسترة المضادة للرصاص تحت (السموكن) ، تبدو أكثر تفاهة ...

فالسترة المضادة للرصاص تحمي الحاكم المستبد من الرصاص الذي قد يُطلق من الخارج .. ولكن الرصاص في هذه الحالة ينطلق من (داخله) ، من داخله هو نفسه ... من عيني محتضر قتله ظلماً وعجز عن سلخهما من داخله . من ملايين العيون الحاقدة التي فقأها ، وصرخات الألسنة التي قطعها ..

تلك اللحظات ، لحظات اغتيال المغتصب لنفسه ، لحظات انطلاق الرصاصات من داخله ، أية مؤسسة تستطيع أن تبتكر لداخله درعاً ما ؟ ..

وبعد ،

أولئك الساترون أجسادهم بالسترات المضادة للرصاص،أين يهربون برؤوسهم ، والأزياء المعاصرة لا تتضمن ارتداء القبعات ؟ ..

مطلوب مؤسسة إضافية لصنع القبعات ، التي تحول دون اختراق الرصاص القادم من الخارج ... وذلك المنطلق من الداخل !

... الى أين يهرب الحاكم الظالم حين ينفجر غضب شعبه؟ وهل من مظلة تقي من السيل ؟ .

١٩٦٥/١٠/٤

هنيئاً لـ (بوبي) سيدة المجتمع !

كهل ، تسلل مع الكلاب الجائعة الى كومة من القاذورات بحثاً عن شيء يأكله ، عندما وصلت سيارة البلدية وألقت بحملها فوقه دون أن يلمحه سائقها ، فمات مطموراً بالنفايات ، وبالدم النازف من رأسه ...

هذا خبر من عندنا ، من محلة المسلخ في بيروت . القتيل عربي ، واسمه لا يهم أحداً : جمعه شناوي . وربما كان يفضل أن يستبدله باسم (بوبي) لو وجد سيدة مجتمع تستعرض دلال صوتها حينما تناديه لتطعمه ..

والخبر الثاني من عندهم . من شتوتغارت في ألمانيا الغربية : تقرر اتخاذ اجراء سريع من أجل صحة أسماك البحيرات والأنهار ، وهو بث الأوكسيجين في المياه (عن طريق خراطيم من النايلون لها مسام دقيقة يرسل بداخلها غاز الاوكسيجين بقوة ضغط عالية وذلك للحيلولة دون اختناق الاسماك) ، وربما للحيلولة دون انحراف مزاجها أو اصابتها بحالات نفسية من جراء ضيق التنفس ! ! ..

والخبران تصادف أن نُشرا في جريدة واحدة ، وتصدرت الصفحة صورة الرأس الدامي لذلك العربي الباحث عن اللقمة ، ولم تنشر أية صورة للاسماك السعيدة ربما حرصاً على مزاجها من أضواء لمبات التصوير ...

وهكذا مات الجائع المجهول عندنا ببساطة .. ففي هذه المرحلة الحاسمة من الزخم الثوري والتطور الاجتماعي لأمتنا العربية ، الكل في شغل شاغل عنه بالقضايا الكبيرة...

الجميع مشغولون بقضايا أكثر أهمية ..

هنالك زوابع الأخبار عن المؤتمرات والمصالحات والمخاصمات ، وهنالك بعض (الثوار في بدلاتهم السموكن) ، والمثقفون المتخمون بالنظريات التقدمية والرجعية (والكوكتيلية) يبثونها في مجالسهم ، وفي مقاهي الأرصفة بينما على الأرصفة أمامهم يُطمر الجياع تحت النفايات ، أو يتلونها في مقالاتهم ليقرأوها وحدهم ويغازلوا

بها نرجسيتهم .. وهنالك جموع الزاحفين خلف صياح مؤذن وجرس كنيسة ، كل يتمتم على طريقته بعبارات لم يكن المقصود منها أكثر من أن لا يدفن إنسان آخر جائعاً تحت النفايات بينما هم يتمتمون بصلاة الشكر بورعٍ على موائدهم ويحنون المِعَد الممتلئة تحت محراب أو أيقونة ..

أولئك المشغولون بقضاياهم الذين لا وقت لديهم للذهول – على الأقل – أمام مقتل إنسان .. أليست قضيتهم الإنسان ؟ .. ألا ينطلقون جميعاً من نقطة واحدة هي ان كل انسان قضية ؟ ؟ .. ألم يختر بعضهم درباً ما كي يحققوا للفرد العربي غاية واحدة هي الخبز مع الكرامة ؟ ..

كلهم يقول انه صادق ..

ومن أجل هذا الصدق ، فليكف كل شيء لبرهة عن الحركة والضجيج . ولتجمد الأيدي الممتدة بالشموع نذوراً للقديسين والاولياء ، وليجف الحبر ولتسحْ الألوان على اللوحات ، ولتصمت الأدمغة التي استحالت مجرد ألسنة مشلولة إلا عن أزيز نحل بلا خلية ، وليكف العالم العربي لثانية عن الزيف ، لنمنح ملايين الجائعين في شخصه مأتماً ، بعد ان فشلنا في منحهم لقمة ..

ولنعترف باننا مزيفون ، أو أننا اخطأنا الدرب ، أو اننا نعمل لنتبجح بأننا نعمل ، أو لنداري بقية من ضمير عربي لن نقوى على تهجينه ، أو اننا ما زلنا اطفالاً ليس لنا من شرف القضية إلا النية الطيبة ...

وهنيئاً للاسماك عندهم ، ولـ (بوبي) سيدة المجتمع عندنا .

١٢ / ٩ / ١٩٦٦

توابيت ، و«بيروت ترحب بكم» !

أسوةً بالمدن السياحية، والعواصم الشهيرة ، تم تزيين شوارع بيروت بطريقة (هتشكوكية) مبتكرة فعلاً ..

فقد استيقظ أهل بيروت ، وإذا بالتوابيت تزين ساحاتها وتقاطعات شوارعها الرئيسية ..

توابيت معدنية كان قد تم استيرادها تحت اسم « سيارات » . ثم تولت (الصناعة المحلية) مهمة تحويلها الى توابيت في (مناسبات) مختلفة أهمها حوادث الاصطدام بسيارة أخرى أو بجدار (جانح !) أو جرافة أو في غمرة مغازلة صخور قاع أحد الوديان .

وقد تم توزيع هذه (التوابيت) بالعدل على مختلف مداخل بيروت ، وتوافر لهذا (المشروع) من الدقة في التوزيع وعدم حرمان أية منطقة من (بركته) ما لم يتوافر لأي مشروع آخر ..

وهكذا ، فلن يفوت أي سائح – وبيروت مدينة سياحية ! – هذا المشهد الذي لن يجد له شبيهاً في أية عاصمة أوروبية أخرى مهما تفنن مهندسوها في تزيينها .. وإذا أسعفه الحظ بالافلات من طريق المطار ، فسوف يجد في مدخل طريق الشام أو طرابلس (تابوتاً) ، بالضبط الى يمين لافتة « بيروت ترحب بكم » ! ! ..

الذين زرعوا انصاب السيارات المعجونة بالدم والصدأ لهم وجهة نظرهم : تذكير الناس بعاقبة السرعة بطريقة واقعية حسية .

ولما تصادف ان سكان بيروت يتضمنون الى جانب السائقين مجموعة ضخمة من الاطفال ومن المواطنين الذين لا (يتعاطون) السيارات وقيادتها ، هذا الى جانب السياح والضيوف الرسميين والفرق الفنية العالمية ، لذا كان لا مفر من أن ينال الجميع قسطاً إجبارياً من هذا العقاب النفسي ..

فالطفل الذي يلتقي بحطام السيارة وهو في طريقه الى المدرسة أو النزهة ــ ان كان لاطفالنا نزهة ــ سوف يكبر والصورة البشعة مدموغة فوق عينيه بكآبتها .. والأخطر من ذلك هو أن يعتادها حتى تفقد قدرتها على إثارة استنكاره وتصبح مشهداً عادياً ، جزءاً من المشاهد التي تربى عليها ، والتي لن يضايقه أن يلتقي بها فيما بعد ، أو يشارك في (صنعها) ..

أما السائح الاجنبي ، فسيحاول أن يستجمع في ذاكرته مثيلاً لهذه (البادرة التزيينية) .. واذا كان فرنسياً فقد يظن انها غنائم خلفها العدو في ارض المعركة اسوة بالمدافع التي تزين مدخل أحد قصور باريس والتي غنمتها فرنسا في احدى حروبها .. وربما سيفهم القصد منها ، حينما (يطير) به سائق التاكسي (المرسيدس) الى فندقه ، وهنا لن يفوته أن يلتقط صورة ذلك المشهد المميز (لباريس الشرق) ، ويضيفها الى ألبوم صور التخلف التي يهوى بعض الذين ضللتهم الدعايات التقاطها : كصورة امرأة مكفنة بالسواد تتلصص من خلف حجابها على العالم . صورة جائع عاري القدمين خرقه الممزقة تكاد لا تستر هيكله العظمي . حي مدينة التنك ــ شاهدت صوراً لها التقطها مصور فرنسي وتم عرضها كخلفية لمسرحية قدمت في مناسبة دولية ــ حيث البشر يحسدون كلاب التانتات ونجمات المجتمع (بالمناسبة تم افتتاح مدرسة للكلاب في بيروت ، وقسط الكلب فيها أكبر من قسط طالب جامعي) .

ذلك كله يهون لو كان في هذا التدبير ما يحل تلك المشكلة المأساة : ضحايا حوادث السيارات ..

ولكن ، ترى هل يكفي زرع التوابيت في الشوارع ، وفي الحدائق العامة أيضاً لتهدئة جنون السائقين ، وبالتالي لهبوط الخط البياني لحوادث السيارات ؟ ..

أقول لا .

مشهد التوابيت لن يداوي جنونهم ، قد ينسيهم جنونهم للحظات ، يستيقظ فيها « الخوف من الموت » ومن الجنون الذي يقودهم الى الموت ، لكنه لن يشفيهم منه .

ما يداوي جنونهم هو البحث عن أسباب هذا الجنون أولاً ثم العمل على ازالتها ..

السائق اللبناني ، لماذا يبدو كأنه مجنون متهور ، قاتل ومنتحر ؟ .. هل هو هكذا حقاً ؟ ..

أقول لا .

ذلك السائق اللبناني (سائق الجحيم) ، لا أجد ما يدعوني الى الاعتقاد بانه مجرم

مستهتر ، (ولد) هكذا من دون سائقي الارض جميعاً ..

أقول لا .

أقول : ربما كان السائق اللبناني يقرع ناقوس الخطر .. والأمر أعمق من مجرد رعونة .. فهو أحد أفراد هذا المجتمع .. وهو أحد افراد جيلنا العربي يعاني من أمراض التخلف الفتاكة ، والتي قد تتفاوت مظاهرها من قطر الى آخر وفقاً لظروفه السياسية ..

ماذا في لبنان اليوم الى جانب ارتفاع نسبة حوادث السير والعنف والسرقات التي لا يمكن أن تكون (أفلام جيمس بوند واغاني البيتلز) وحدها مسؤولة عنها ؟ ..

هنالك ما في أكثرية البلاد العربية الأخرى من امراض مشتركة : غلاء . اضرابات . تململ . عدم تفاهم بين الحاكم والمحكوم . ازمة ثقة. لعبة شد حبل، وتطور اجتماعي كبير مفاجىء باتجاه غامض يتعرض له لبنان بالذات أكثر من أي بلد عربي آخر بوصفه (ميناء) كبيراً وبلداً سياحياً يعج بنقود الغرباء ومفاهيمهم الاخلاقية المختلفة ..

ذلك كله ينعكس على حياة افراد المجتمع جميعاً ، وهكذا تتوتر أعصاب السائق مع أعصاب الجميع بسبب الغلاء والقهر الطبقي ومشاكل الاولاد والمدارس وعدم التفاهم مع البنت التي تكاد (تفلت) والابن الذي بدأ يتهرب من الصلاة ويطيل شعره ، وربما هنالك فرد مريض في الاسرة ، ونفقات العلاج حيث الطب في بلادنا من الكماليات ، والخوف من العجز والشيخوخة وعدم الاحساس بالطمأنينة للغد .. والماء والكهرباء ربما لم يبلغا داره بعد ، وابنة الجيران (الساقطة) التي هربت منذ أعوام التقى بها ضيفة مكرمة لدى أسياده لأنها هي أيضاً تمتلك سائقاً مثله ، والنائب الذي زاره أيام الانتخابات وكرمه ، له اليوم خادم يطرده كلما حاول مقابلة نائبه الوهمي ..

عدا عن المذياع الذي يتوج هذا كله بشعور من عدم التفاهم والانسجام في العالم العربي بأكمله ..

وبهذا المزيج المحتقن المكهرب من الاحساسيس المضغوطة ، ينطلق الفرد عامة واللبناني خاصة الى عمله — بمن فيهم السائق — ..

بعضهم يفقد أعصابه كما يفقد بعض السائقين أعصابهم . ولكن طبيعة قيادة السيارة بالذات تجعل من فقد الإنسان لأعصابه (أو توترها خلال العمل) كارثة علنية

تتخذ صورة هيكل سيارة معجون بالدم والصراخ .. لذا يلحظها الناس وتشملها الاحصاءات الرسمية لأحداث العنف الامر الذي لا يمكن أن يشمل الآف حوادث الدمار الفردية الصميمة لدى بقية افراد المجتمع .

وهكذا فحكاية ارتفاع نسبة حوادث السير والعنف والسرقات لا يمكن فصلها عن ازدياد موجة (الاضرابات والغلاء والقلق) .

ولكن لماذا يحدث هذا في بيروت بالذات من دون بقية البلاد العربية ما دام نتيجةً لأمراض مشتركة ؟ ..

على أية حال ،

يبدو زرع (التوابيت) في الشوارع علاجاً موضعياً سطحياً ، وبالتالي علاجاً (عربياً) يمكن تصنيفه في جدول (العلاجات العربية) لأمراض أمتنا في هذه الفترة .

ذلك السائق المسكين – غالباً – ، وهو يعاني ما يعاني ، أخشى من أن تحمل له التوابيت المبثوثة حوله (رسالة) هي تماماً عكس ما أقيمت من أجله ..

ربما يتصور أنها اقتراح رسمي لحل ممتاز ونهائي لجميع مشاكله .. فيأخذ به ..

إقــرار

محتويات هذا الكتاب نُشرت في المجلات والصحف اللبنانية التالية (وفقاً للترتيب الأبجدي) :

مجلة « الأسبوع العربي »

مجلة « الحوادث »

جريدة « المحرر »

جريدة « النهار »

الفهرس

مؤلفات غادة السمان

عيناك قدري	(الطبعة التاسعة)	(قصص)
لا بحر في بيروت	(الطبعة الثامنة)	(قصص)
ليل الغرباء	(الطبعة الثامنة)	(قصص)
رحيل المرافىء القديمة	(الطبعة السادسة)	(قصص)
بيروت ٧٥	(الطبعة الخامسة)	(رواية)
كوابيس بيروت	(الطبعة السادسة)	(رواية)
ليلة المليار	(الطبعة الثانية)	(رواية)
حب	(الطبعة التاسعة)	
أعلنت عليك الحب	(الطبعة التاسعة)	
غربة تحت الصفر	(الطبعة الثانية)	
الأعماق المحتلة		
أشهد عكس الريح		

منشورات غادة السمان

بيروت ـ لبنان ص.ب.: ١١١٨١٣

تلفون: ٣١٤٦٥٩/ ٣٠٩٤٧٠

مؤلفات غادة السمان

الأعمال غير الكاملة

صدر منها:

١ ـ زمن الحب الآخر	(الطبعة الخامسة)
٢ ـ الجسد حقيبة سفر	(الطبعة الثالثة)
٣ ـ السباحة في بحيرة الشيطان	(الطبعة الخامسة)
٤ ـ ختم الذاكرة بالشمع الأحمر	(الطبعة الرابعة)
٥ ـ اعتقال لحظة هاربة	(الطبعة الخامسة)
٦ ـ مواطنة متلبسة بالقراءة	(الطبعة الثالثة)
٧ ـ الرغيف ينبض كالقلب	(الطبعة الثالثة)
٨ ـ ع غ تتفرس	(الطبعة الرابعة)
٩ ـ صفارة انذار داخل رأسي	(الطبعة الثالثة)
١٠ ـ كتابات غير ملتزمة	(الطبعة الثانية)
١١ ـ الحب من الوريد إلى الوريد	(الطبعة الرابعة)
١٢ ـ القبيلة تستجوب القتيلة	(الطبعة الثانية)
١٣ ـ البحر يحاكم سمكة	
١٤ ـ تسكع داخل جرح	

منشورات غادة السمان

بيروت ـ لبنان ص.ب.: ١١١٨١٣

تلفون: ٣١٤٦٥٩/ ٣٠٩٤٧٠



لقد نقلت غادة السمان الكتابة الصحفية من تصوير الواقع تصويرا خارجيا فحسب الى كتابة الابعاد الاربعة في المادة المطروحة. ونصوصها هذه تمتلك حرارتها حقا وتتابع قارئها قبل ان يتابع هو سطورها بعينيه وهو يلهث. فاذا بالاثنين كمن يطارد احدهما الآخر. تلك المطاردة التي لا يملكها إلا الفن الرفيع الشديد الخصوصية والالتصاق بمآسي البشر وهمومهم.

صفارة إنذار داخل راسي مجموعة من اندماجات غادة بالعالم الخارجي و الانطحان بها، كحبة القمح بين حجري الرحى.

ـ مجلة الكفاح العربي ـ

***

غادة السمان قد ادركت ـ بذكاء وعمق ـ ان هناك خدعة اسمها التفرقة بين عالم الرجل وعالم المراة. وكان هذه الخدعة كان مقصودا بها ان تتحدث المراة عندما تكتب عن اشياء خاصة بها وحدها والا فلن تكون اديبة ولا كاتبة. وهذا وهم خاطىء. فالاشياء المشتركة بين الرجل والمراة في الحياة اكثر من الاشياء الخاصة بكل واحد منهما. ولذلك فقد تخطت غادة السمان تلك الخدعة او هذا الوهم وتركت «الحريم الادبي» يحكي ثرثراته واشياءه الخاصة. ودخلت بقلمها وموهبتها في عمار القضايا الانسانية الحية. وشاركت بفنها ومقالاتها وتحقيقاتها المثيرة في قضايا العصر والمجتمع. ولذلك كتب لغادة السمان النجاح والنجاة.

ـ رجاء النقاش ـ

***

نصوص صفارة انذار داخل راسي تؤكد ان غادة السمان كانت ومنذ بداياتها في الستينات تتامل وتكتب بحس قومي انساني وتعمل عبر الحرف والكلمة على نقل معاناة الانسان العربي واحزانه وتطلعاته على امتداد هذا الوطن العربي الكبير.

ـ جريدة البعث السورية ـ

***

منشورات غادة السمان